

مَحْمُودُ الْعَنَانِي

الجانب العاطفي

من الإسلام

بحث في الخلق والسلوك والتصوّف

41



العنوان: الجانب العاطفى من الإسلام.
المؤلف: الشيخ/ محمد الغزالى .
إشراف عام: داليا محمد إبراهيم .
تاريخ النشر: الطبعة الثالثة يوليو 2005 م .
رقم الإيداع: 2003 / 8653
الترقيم الدولى: ISBN 977-14-2122-0

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابي - الممهندسين - الجيزة
ت: 3466434- (02) 3472864- (02) فاكس: 3462576- (02) ص.ب: 21 إمبابة
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: publishing@nahdetmistr.com

المطبع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287- (02) 8330289- (02) فاكس: 8330296- (02)
البريد الإلكتروني للمطبع: press@nahdetmistr.com

مركز التوزيع الرئيسي: 18 ش كامل صدقى - الفجالة - القاهره - ص . ب : 96 الفجالة - القاهره.
ت : 5903395- (02) 5908895- (02) فاكس: 5909827- (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجاني: 08002226222
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: sales @nahdetmistr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدى)
ت: 5462090- (03)

مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: 2259675- (050)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmistr.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر(كتاب / C D)
وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع
www.enahda.com

جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بآية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

مقدمة الطبعة الأولى

التصوف الفلسفى فى تاريخنا العلمى لون من الغزو الثقافى الماكر قُصد به لفتنا عن عقائidنا ومناهجنا وأهدافنا ، ويجب أن ينتبه أولو العلم له ، وأن يُحذّرُوا أمتنا من بقاياه ودسائسه فإن أعداء الإسلام ينشدون من إشاعته خلق أمة لا انتماء لها ولا وجهة ، أمة ثرثارة كسول واهية الصلات بكتاب ربها وسنة نبيها ، لا تحسن إلا تأويل الآيات والأحاديث وتحريف الكلم عن مواضعه والاسترسال مع الأحلام والخيالات . . . أما التصوف الإسلامي فشأن آخر ، وربما كره البعض هذا العنوان ونحن لا نكترث لاختلاف الأسماء إذا اتفقنا على حقيقة المسمى !

أسماء البعض : علم القلوب! وأسماء آخرون : علم الإحسان بمقاميه من مشاهدة ومراقبة! وأسماء جماعة من علماء النفس والأخلاق : علم البواعت على الأعمال . . .

وأثرت أنا تسميته بالجانب العاطفى من الإسلام! وقد قيل قدِيماً : لا مشاحة في الاصطلاح . . .

المهم أن نفكرونعمل داخل سياج محكم من توجيهات الوحي وسنن صاحب الرسالة ، ومنهاج سلفنا الصالح ، وهذا ما حرصت عليه في هذا الكتاب أشد الحرص . . .

إن أولى النهى أجمعوا على أن الحضارة الحديثة تربط الإنسان بالأرض وتقطعه عن السماء ، وتعلق قلبه بآرب الدنيا ، وتذهبه عن مطالب الآخرة ، وتعمل على سوق البشر بعيداً عن الله . . .

أى أنها تسير في اتجاه معاكس للدين كله ، وربما أعنانها على إدراك بعض النجاح ففشل المتدينين في تقديم المنهج الإلهي مشبعاً للعقل والقلب كافلاً للدنيا والآخرة ، مليئاً لحاجات الروح والجسد والعاجلة والأجلة . . .

ونحن المسلمين أغنى الناس بمواد البناء في هذا المجال ، وفي تراثنا ما يكفي
ويشفي إذا أحسنا الإدراك والإفادة . . .

ليس الدين أحکاماً جافة وأوامر ميتة ، إنه قلب يتحرك بالشوق والرغبة ، يحمل صاحبه
على المسارعة إلى طاعة الله وهو يقول : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبَّ لَتَرْضَى ﴾ (طه : ٨٤) .

فكيف تحول التكاليف الصعبة إلى شيء سائع حلو . . . ؟

ليس الدين ابتعداً عن المخذلات ابتعاد خائف من مجھول ، أو ابتعاد مكره
مضطرب ، إنه الوجل من عصيان ملیک مقتدر ، سبقت نعماؤه ووجب الاستحياء منه .

قيل ذلك لبني إسرائيل قدیماً : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّاهُ فَارْهَبُونَ ﴾
(البقرة : ٤٠) وقيل للMuslimين من بعدهم : ﴿ لَا تَنْحِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ
فَإِيَّاهُ فَارْهَبُونَ ﴾ (النحل : ٥١) .

لا إيمان إلا لضمير يرفض الدنيا ويرقب الرحمن ، ويحرس الحدود والحقوق
ويتخض لله وحده ابتغاء ما عنده !

في هذا الكتاب إحياء لجانب مهم من موراثتنا العلمية الثمينة ، تتجهم له الحياة
المعاصرة ، ولكنها سوف تحرم من برکات الأرض والسماء إذا خاصمته ومضت إلى
غايتها الأرضية بعيدة عنه ..

وقد حرصت على ضبط المفاهيم الإسلامية وتقريرها إلى الأجيال الجديدة ،
وكان همي الأول كيف أصل بين العمل المطلوب في هذا العصر - لنصرة الإسلام -
وبين المعانى الروحية الموفورة لدينا ، كى تنطلق هذه الأعمال بطاقة داخلية قوية
ينتعش بها الحق ويسبق !

هناك متکاسلون في طلب الدنيا .. والکسل صفة رديئة ، وعبادة الدنيا صفة
ردئية ، والإسلام يحتاج إلى دنيا تخدمه ، وتدفع عنه ، وتمد رواقه ، فكيف السبيل
إلى جعل القلب متعلقاً بربه ، يملک الدنيا كى يسخرها لخدمته ، ويجمع المال
والبنيان ليكونا قوة للحق ، وسياجاً يحمى بهما؟

كيف يتحول ذكر الله بالغدو والأصال إلى مسلك إيجابي فعال ، يجعل أصحابه رهاناً بالليل فرساناً بالنهار .

وليس الفروسيّة هنا في ميدان الوغى وحده؟ بل هي كدح في أرجاء البر والبحر والجو ، ليكون التوحيد صبغة الدنيا كما هو هتاف الكائنات كلها في الأرض والسماء .

إنتي خرجمت بالتصوف من جحره أو من صومعته ليكون طاقة محركة ... وقد سرني أن يضع الله القبول لما كتبت ، والله أسأل أن يجعله في ميزان الحسنات ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ (المؤمنون : ١١٨) .

محمد الغزالى

٦ فبراير ١٩٩٠ م

١٠ رجب ١٤١٠ هـ

مقدمة

هذا جزء من ثقافتنا الإسلامية يستحق البعث والعناية .

فإن بعض شعب الإيمان لقيت من الدراسة الحصيفة ما جعلها قريبة المأخذ يسيرة العرض ، بل لقد حُسِّبَتُ الإسلام كله لطول ما توافر العلماء على خدمتها . وذلك كفقه العبادات ، وما تضمن من طهارة وصلوة وزكاة . . . الخ ، وفقه المعاملات وما تضمن من بيع وشركات ومعاوضات . . . الخ .

وكسائر الأحكام التي نظمت العلاقات بين أفراد الأسرة وأركان المجتمع . إن هذه الجوانب من ديننا العظيم استبحر الكلام فيها ، واتسمت دراساتها بدقة . علمية ملحوظة ، وبرز فيها أئمة مرموقون .

أما الجانب النفسي والخلقي فهو - على جلالته - مغمومٌ على الحق ، أو لم يلق العناية الدقيقة التي لقيتها الجوانب الأخرى .

لماذا تؤلف في الموضوع مثلاً كتب كبيرة لها طابع علمي محدد؟ ولا تؤلف هذه الكتب العلمية في الإخلاص ، والتوكيل ، والتقوى ، والأمانة والصبر والحب . . . الخ .

إن محبة الله جل جلاله ، والإخلاص له ، والتبتل إليه ، والتوكيل عليه ، والصبر فيه - معانٌ تعد في الطبيعة من شعب الإيمان ، أو هي من أركانه الركيينة .

وتحrir هذه المعانى وفق تفاسير مضبوطة ، وشرح مستفيضة - خدمة جُلُّ الإسلام وأكاد أقول : إن الأعمال الظاهرة من عبادة ومعاملة ما تصدق وتكمel إلا إذا اتسقت وراءها هذه المعانى الباطنة ، وتخللت مسالك الفؤاد ولذلك يجب أن تطرق موضوعاتها بكثرة ودقة .

وميدان التربية الإسلامية في هذا العصر أحوج ما يكون إلى هذه الدراسات ؛ فالتعاليم المدنية تزحف من كل فج ، وتقتحم طريقها إلى النفوس من مسارب لا حصر لها .

وإذا لم نحسن البناء الداخلى للنفوس ورفع الإيمان على دعائمه الفكرية والعاطفية كلها ، فإن الأجيال الناشئة لن تنجو من آثار هذا الزحف ، وربما شعرت بنقص فى كيانها الروحى تسعى كى تستكمله من جهات أخرى ، وهذا باب لو افتح هبت منه شرور جائحة .

ولست أجهل أن صلة الإنسان بربه ، وصلته بنفسه كانت موضع كلام طويل الأنفاس فى كتب التصوف .

غير أن هذا الكلام كان أشبه بمقالات الأدباء ، وعواطف الشعراء ، يصور الإحساس الخاص لصاحبه أكثر مما يصور حقائق علمية قيمة . ومهمما كان ذلك الإحساس صادقاً فإن خصائص المنطق العلمي أعوزته . والمنطق العلمي يقوم على الثبات والعموم لا على وجهات النظر الخاصة .

ذلك ، أن هذه الكتب أثبتت خلالها أخطاء مزعجة ، ومن الخطورة بمكان أن يتناولها رجل الشارع ، فلا يدرى ما هو مستقيم منها ، وما هو معوج ، أو ما هو ذوق خاص ، وما هو حقيقة عامة . ومن الإنصاف أن نسجل للقوم عنایتهم بما انصرف غيرهم عنه أو قل اكترااثهم له .

وهو هذا القسم الضخم من شعب الإيمان المتعلق بأحوال النفس الباطنة . وإذا كانوا أخطأوا حين درسوا وكتبوا - فغيرهم أخطأ حين وقف وحمد .

على أن الأخطاء فى ثقافتنا التقليدية ليست حكراً على كتب التصوف - وإن نالت هذه الكتب نصيباً جللاً منها - فإن الأخطاء تطرقـت إلى كتب التفسير والفقـه والـسيرة ، واندنسـ فى صـحائفـها ما يـؤذـى اللهـ ورسـولـهـ ، وما اجـتـهدـ الأئـمـةـ فى التـحـذـيرـ منـهـ . وكـشـفـ القـنـاعـ عنـ دـخـلـهـ وـغـشـهـ .

وكم تحتاج مواريثـنا الثقـافيةـ إلى جـهـادـ علمـىـ كبيرـ؟ـ كـىـ تـتـجرـدـ منـ الـظـنـونـ والأـوهـامـ التـىـ عـلـقـتـ بـهـاـ ،ـ وـتـعـودـ إـلـىـ السـمـاتـ المـأـثـورـةـ عنـ كـتـابـ اللهـ وـسـنـةـ رـسـولـهـ .ـ وهـىـ سـمـاتـ الحقـ وـالـيـقـينـ فـيـماـ تـتـناـولـ مـنـ قـضـاـيـاـ ،ـ أوـ تـصـدـرـ مـنـ أـحـکـامـ .ـ

وقد دفعـنىـ إـلـىـ تـأـلـيفـ هـذـاـ كـتـابـ ماـ رـأـيـتـهـ منـ ضـرـورةـ تـجـلـيـةـ هـذـهـ الـحـقـائـقـ المـطـمـوـرـةـ ،ـ وـتـكـمـيلـ الـلـامـحـ الـإـسـلـامـيـةـ بـكـشـفـ الغـطـاءـ المـضـرـوبـ عـلـىـ جـانـبـ مـنـهـ .ـ ثـمـ مـاـ رـأـيـتـهـ مـنـ أـنـ هـذـهـ الـحـقـائـقـ شـيـبـتـ بـمـاـ غـضـنـ فـضـلـهـاـ ،ـ حـتـىـ تـجـهـمـ كـثـيرـونـ لـهـاـ وـضـاقـواـ ذـرـعاـ بـعـجـرـدـ ذـكـرـهـاـ .ـ

فكان جهدي أن أنحى في هدوء تلك الشوائب الغربية ، وأن أعود بالمادة الإسلامية الصرف إلى موضعها الحالى منها ، لتحتلء إلى جوار زميلاتها من حقائق الإسلام الأخرى ، معتمدا على كتاب الله وسنة رسوله ومتأثرا خطوات الأسلاف من رجالات الإسلام الذين سبقو بإنارة الطريق وتمهيده للسالكين .

وقد أسفت - كما أسف غيري - لصنفين من الناس :

● صنف تلمس فى قلبه عاطفة حارة ، ورغبة فى الله عميقه ، وحبًا للرسوله باديا ، ومع ذلك تجده ضعيف البصر بأحكام الكتاب والسنة ، يعلم منها قليلا ويجهل منها كثيرا ، ويغريه بالتعصب للقليل الذى يعلمه أنه يأنس من نفسه صدق الوجهة ، وقوة محبة لله ورسوله ربما افتقدها فى غيره فلم يشعر بها .

● وصنف تلمس فى عقله ذكاء ، وفي علمه سعة ، وفي قوله بلاغة ، يعرف الصواب فى أغلب الأحكام الشرعية ، ويؤدى العبادات المطلوبة منه أداء لا بأس به ، ولكنه بارد الأنفاس ، بادى الجفوة ، غليظ القلب ، يكاد يتمنى العثار لغيره ، كى يندد بأغلاطه ، ويستعلى هو بما أوتى من إدراك للحق ، وبصر بمواضعه من كتاب وسنة .

عرفت الصنفين معا فى تجاربى مع الناس .

فكان يغيبنى من أصحاب العاطفة ، ما يغلب عليهم من جهل وما يشين غيرتهم من عكوف على الخرافات ، وعجز عن استيعاب الأحكام التى استعملت فى دين الله أدلتها ، واكتفاهم بحب سلبى طائش .

وهؤلاء يصدق عليهم :

ما رواه ابن الجوزى بسنده^(١) : عن ابن عباس ، أنه دخل على عائشة - رضى الله عنها - فقال : يا أم المؤمنين أرأيت الرجل يقل قيامه ويكثر رقاده ، وأخر يكثر قيامه ، ويقل رقاده . أيهما أحب إليك؟

قالت : سأله رسول الله ﷺ كما سألتني ، فقال : أحسنهما عقلا ، فقلت يا رسول الله . إنما أسألك عن عبادتهما .

قال : يا عائشة إنهما لا يسألان عن عبادتهما إنما يسألان عن عقولهما فمن كان أعقل كان أفضل في الدنيا والآخرة .

(١) اعتمدت فى تدوين هذه الأحاديث على ابن الجوزى ، لكن يبدو أن أسانيده ضعيفة ، فلم أرها فى الصحاح ولا الحسان ، وإنما أغراقنى بقولها أن معناها دلت عليه نصوص أخرى ثابتة .

وعن ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرجل ليكون من أهل الصيام وأهل الصلاة وأهل الحج وأهل الجهاد ، فما يجزى يوم القيمة إلا بقدر عقله ». وكان يغيبنى من الآخرين استكمارهم لما هدوا إليه من صواب فى بعض الأحكام العقائدية والفقهية ، واستهانتهم بأفات القلوب وفراغهم من حرارة الإقبال على الله ، والحنو على عباده .

وقد ياشكا الإمام ابن القيم من أن بعض المدرسين والمفتين والقضاة غالب عليهم جفاف الطبع ، وقسوة القلب ، وإن كانت براعتهم النظرية في ميدان العلم لا مطعن فيها .
وال المسلم الكامل رجل نير الذهن والقلب معا . حاد البصر وال بصيرة جميما
تعانق فكرته وعاطفته في معاملته لله ، ومعاملته للناس ، فلا تدرى أيهما أسبق؟
صدق أدبه أم حسن معرفته ، ولا تدرى أيهما أروع؟ خصوبة نفسه الجياشة أم
فطانة عقله اللماح؟ ..

وهذه الصفات مشتقة من طبيعة الإسلام نفسه ، فهو دين يبني عقائده - من ناحية الصحة العقلية - على أساس فكرية تشبه البديهيات فى علوم الرياضة من حساب وجبر وهندسة .

والركائز العقلية لهذا الدين ثابتة فيما شرع من معاملات عامة ، وفيما يعرض لها من مشكلات متتجدة .

والى جانب هذا فالإسلام دين عبادة تقوم على سلامه القلب ، وشحنه بالخلاص ، والمحبة والأدب ؛ وتجريده من الهوى والأثرة والغش .

وسيرة صاحب الرسالة - صلوات الله عليه - مثل لهذا الا زدواج بين يقظة القلب
واللب والتقاءهما في سلوك واحد .

三

ودين الإنسان ينقص بقدر ما يصاحب عاطفته الحارة من نقص علمي أو عجز فكري ، وما نظننا ناسيق قصة الديبة التي قتلت صاحبها من حيث ت يريد حمايته ، وإن العقل للإيمان كالبصر للسائر ، هيهات أن يرشد سيره إذا فقده .

على حين ينسون عزائم الإسلام ، وتكليفه المهمة ، وموازينه الحساسة في تقويم
الخلق والسلوك وشئي المعاملات .

وما أكثر ما تخدع النفس صاحبها . حين تغريه بعمل ، وتبطئه عن آخر .
والذى قعدت عنه هو خيرها وشرفها ، والذى أسرعت إليه قليل الجدوى إن لم
يكن مبعث ضرر !!

أعرف موظفاً كبيراً يظهر حب آل البيت ، ويمسك السبحة بيده ليحصى عليها ما
يريد من أسماء وصلوات ، إنه يحسب نفسه من الواصلين بإدامنه هذا اللون من
ال العبادة ، وتلك عنده مظاهر التّقى الشديد ، إلى جانب - طبعاً - أدائه للفروض
المكتوبة فهو - فيما أعتقد - لا يقتصر في أدائها .

وحدث يوماً أن أقيمت حفل تباري فيه الخطباء ، وذكرت الصحف أسماء
المتحدين ونسيت أن تذكر اسم العاشق لآل البيت ، وكاد الرجل يجن لما فاته من
أسباب الرياء .. !! وانكشفت خبيته ، وانكشفت معه خبيثاً هذا النوع من التدين
الذى لا يستكمل عناصر الإيمان الحق ، ولا يحسن فطام النفس من أخبت عللها ،
بل يدارى هذا النقص بتلاوة أذكار ، أو إحصاء صلوات على رسول الله ﷺ ...
ولو أنه قرأ القرآن كله ، وهو يستبطن تلك العلل ما أفاده شيئاً أن يتلو القرآن
والسيرة معاً .

إن الله جل شأنه جعل الصراط المستقيم هو المعبر الفذ لمن يتبعه . وكل
قصير ، أو قصور في فهم هذا المنهج ، واستيانة مراحله - لا يدل على خير .
وكل عوض يشتعل المرء به عن المعالم التي وضعها الله لا يزيد صاحبه إلا خيراً .
وأى عاطفة لا يصحبها تفصيل صحيح لأصول الإسلام وفروعه ، وعمل تام
بها فليس لها عند الله وزن .

وصدق العاطفة ليس عذرًا للخلط العلمي ، ولا للقول في دين الله بالهوى
والرأي ، فإن للإسلام ينابيع معروفة محصورة تؤخذ أحکامه منها وحدتها ، ولا
يؤذن لبشر بالتزييد عليها أو الانتقاد منها .

وقد توفر العلماء جيلاً بعد جيل على خدمة هذه المصادر واحترام حدودها .
لكن بعض العاطفيين يؤثرون - بالهوى - حديثاً واهناً أو موضوعاً على حديث
صحيح ، ويعتنقون أقوالاً فقهية ليس لها من أصول الفقه سند .

وقد يفسرون القرآن فتسمع منهم الغرائب .

معانى لا صلة لها بدلالات الألفاظ ولا بتراكيب اللغة ، ولا بالتأثير عن رسول الله ، ولا بالمرور عن أصحابه الذين تعلموا منه ، ومشوا فى أثره .

اسمع هذا التفسير الخرافى لسورة النصر :

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرًا اللَّهُ﴾ أى المدد الملكى ، والتأييد القدسى بتجليات الأسماء والصفات .

﴿وَالْفَتحُ﴾ : المطلق الذى لا فتح وراءه وهو فتح باب الحضرة الأحديه والكشف الذاتى بعد الفتح المبين ، فى مقام الروح بالمشاهدة .

﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ : أى التوحيد ، والسلوك على الصراط المستقيم وبتأثير نورك فىهم ، عند فراغك من تكميل نفسك .

﴿أَفَوَاجَاهُ﴾ : أى مجتمعين كأنهم نفس واحدة .

﴿فَسَبَحَ﴾ : أى نزه ذاتك من الاحتجاج بمقام القلب إلى الترقى فى حق اليقين .

﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ : أى حامدا له بإظهار كمالاته وأوصافه التامة عند التجريد بالحمد العقلى .

﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ : واطلب ستر ذاتك بذاته ، كما كان حال الفنان قبل الرجوع إلى الخلق أبدا .

﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَابًا﴾ : قابلا لرجوع من رجع إليه بإفناه بنوره ولما كمل الدين واستقرت دعوته طول الرسول بذلك أى بالرجوع إلى مقام اليقين الذى يستمر إلى ما بعد الموت ^(١) .

نقول : وسورة النصر هذه لها قصة معروفة مشهورة .

فإن عمر بن الخطاب كان يقرب إلى مجلسه عبد الله بن عباس ، وهو مجلس يشهد أشياخ الصحابة ، وعبد الله لما يزال شابا في مقتبل العمر ، فكانوا استكثروا عليه تلك المنزلة .

(١) نشرت مجلة العشيرة الحمدية حلقات متصلة لهذا اللون من التفسير ، وقد استغربت هذا النشر لا أعلم عن رائد الجماعة من أدب وفضل وغيرها على الإسلام ورغبة فى إصلاح التصوف من الأقداء التى علقت به ونحن نعد هذا الشroud العلمى أخطر الآفات على كيان الإسلام نفسه .

ورأى أمير المؤمنين ذلك فآراد أن يريهم سر إعزازه لابن عباس ، وأنه لم يؤثره بقربه إلا لرجاحة عقله ورحابة علمه .

فسألهم عن تفسير سورة النصر ، فأجابوا بالمعنى المبادر إلى الذهن : أمر بالتسبيح والاستغفار ، موقوت بمحى النصر ، ودخول الناس أفواجا في الإسلام بعد الفتح الأعظم ، وسائل عمر : أكذلك يا ابن عباس؟ ، وأجاب ابن عباس بإضافة معنى آخر ، أن السورة تتعنى إلى الرسول نفسه ، كأن الأمر بالاستغفار بعد دخول الجماهير في دين الله إذان بانتهاء وظيفة الرسول ، وتهديد لانتقاله إلى الرفيق الأعلى ... ذلك كله ما تعنيه السورة .

لكن هذا المفسر المتصوف سلك طريقا لا يعرفه شيوخ الصحابة ، ولا ابن عباس ، ولا أمير المؤمنين عمر ، ولا تطيقه معانى الألفاظ ، ولا توحى به صياغة الجمل ، ولا سند له من علم ؛ اللهم إلا شرود قائله .

وهذا الهراء لا يسمى تفسيرا ، ولا يقبل القول به من أحد .

وأسوأ ما فيه أنه فتح لباب الفتنة والتأويل الباطل لدين الله ، وأنه تهجم على القرآن العزيز . ما يليق أن يصدر من مسلم .

لندع هؤلاء ولننظر إلى الطرف المقابل ، وهو خاص بالعلماء النظريين ، الذين أحسنوا دراسة الأحكام وتقريرها .

ولما كنت قد أتممت دراستي في هذا الميدان فأنا خبير بما ذكره .

تلقينا فقه الصلاة مثلا ، وحفظنا من واجباتها بضعة عشر ، ومن سننها فوق الخمسين ، ومن فروضها وشروطها كذا وكذا ، واستغرق ذلك وقتا طويلا .

ومع ذلك فلم نع شيئا من روح الصلاة ، من الخشوع الحتم في حضرة الله ، لم ندر شيئا عن العظمة الباهرة التي ينبغي أن تغمر أفئدتنا وأوصالنا .

لقد درسنا الشكل بدقة واستوعبنا من التعاريف والضوابط الكثير .. أما موضوع الصلاة فربما عرض له بعض المدرسين الأتقياء بكلمات قلائل وحسب .. !!
وليس هذا هو دين الله .

ودرسنا التفسير ، فخذ مثلا هذه الآية أنموذجا للشرح المقرر ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِيقَيْهِ فَلَنْ يَضْرُرَ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (آل عمران : ١٤٤) .

الجملة الأولى فيها قصر موصوف على صفة ، فما سر هذا القصر؟

والجملة الثانية جاءت بعد اسم نكرة فهى صفة .

والجملة الثالثة تضمنت استفهاما إنكاريا بيانه كذا . . .

والجملة الرابعة فيها الشرط والجزاء يدلان على خسار المرتد واستغناء الله عنه .

أما الجملة الخامسة ففيها وعد الله بثوبة الشاكرين .

هذا هو التفسير الذى يجىء فيه الامتحان :

أما التنويه بالوفاء للمبدأ وإن مات مثله .

أما تحديد وظيفة المرسلين بأنها البلاغ الذى يقف كل امرئ بين يدى الله مسئولا عن نفسه .

أما النعي على هؤلاء الذين يعبدون الله على حرف ، والذين يفرون من الميدان عند أول مصاب .

أما تبيين قيمة الحياة الدنيا بالنسبة لحملة المبادئ ولسائر الناس .

أما تعليق القلوب بمحلى النعم ، وبعث الهمم على الارتباط به وبالبذل له والفناء فيه وحده .

أما توضيح معنى الشكر على نعمة الإسلام ، وتوفيق الإيمان الذى ختمت به الآية .

أما ذلك كله فإن أحدا لا يعرض له ، ولا يسأل عنه ، مع أنه لباب التفسير .

وما إعراب الجمل واستبيانه وجوه البلاغة ، وتعرف شتى الأحكام إلا إطار لإبراز هذه المعانى التى تدعم اليقين ، وتربي الإخلاص ، وتعلم التضحية ، وتدريب على الجهاد .

وعجيب أن نقع بين صنفين متناقضين :

صنف يفسر بقواعد اللغة والبلاغة ، ولفت النظر إلى بعض الأحكام القريبة الظاهرة ثم يقف .

وصنف آخر يهدم القواعد ويتجاهل الحدود ويهاجم على القرآن بمعان مبتوطة الصلة به لأنها فى نظره ترقق القلب ، وترهف الوجدان ، وتنقل الناس إلى الله .

إننا في هذا الكتاب نعرض - كما قلنا - جزءاً من الإسلام لا مصدر له إلا ما يفهم
من الوحي ، ولا سند له إلا شواهد القرآن والسنة .

وأعرف أن ناساً من أهل السنة سيقولون : لقد تصوف المؤلف .

وأن ناساً من المتصوفة سيقولون : إنه شارد عن الطريق .

وحسبي أنني استهديت ربى ، وأنصفت هذا الدين من شتى الأفهام الحائرة .
ولله الحمد أولاً وأخراً .

محمد الغزالى

الإسلام والإيمان والإحسان

حدیث جامع

من حديث لعمر رضى الله عنه قال : « بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الشيب شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأمسك ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرنى عن الإسلام؟ قال : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتوتّي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحجج البيت إن استطعت إليه سبيلا ، قال صدقت . قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال : فأخبرنى عن الإيمان؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتومن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت .

قال : فأخبرنى عن الإحسان؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ... »^(١).

الإسلام ، الإيمان ، الإحسان ، كلمات ثلاث وردت في الحديث معرفة بما يشرح دلالتها ، وهي - في نظرنا - تتعدّ عنوانين شتى لحقيقة واحدة .

والحقيقة الواحدة قد تنظر إليها من عدة جهات فيعنيك من كل جهة وصف خاص بارز ، مع أن هذه الأوصاف كلها متضافة في تحديد الحقيقة وتوضيح معالمها . ولذلك ختم الحديث بتلك العبارة : « هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » .

والدين الذي نزل أمين الوحي لتوضيحه هو الإسلام إن نظرنا إلى السلوك الظاهر ، والعمل البين .

وهو الإيمان إن نظرنا إلى اليقين الباعث والعقيدة الدافعة .

وهو الإحسان إن نظرنا إلى كمال الأداء والوفاء على الغاية عند اقتران الإيمان الواضح بالعمل الصالح . . .

(١) بقية الحديث « قال فأخبرنى عن الساعة؟ قال : ما المستول عنها بأعلم من السائل قال : فأخبرنى عن أماراتها؟ قال : أن تلد الأمة ريتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتغاذون في البنيان ، ثم انطلق فلبيث مليا . ثم قال : يا عمر أتدري من السائل؟ قلت الله ورسوله أعلم ، قال : هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » رواه البخاري .

بل هو جملة هذه المعانى ، لا ينفصل أحدها عن الآخر عند التصور الكامل ، كالشجرة الحية . قد تنظر إلى جذعها الذى يحمل الغذاء للغصون الدانية والذوائب العالية .

وقد تنظر إلى الأثمار المطعومة والأوراق المظللة .

وقد تنظر إلى ينع الشجرة وحفولها وازدهارها .

بيد أن هذه الأنوار المختلفة لا تغير من وحدة الشجرة ، واكتمال صورتها فى الذهن وفي الخارج . من الجذع القائم ، والأغصان المتعددة ، والرواء الشائع فى الأزهار والجنى ...

وربما انكمشت العناصر التى تتكون منها حقيقة الدين ، ووهت الروابط التى تشد بعضها إلى البعض الآخر ، فيكون الإسلام عملا خافتا لا تلمح وراءه قوة الإيمان ، أو يكون الإيمان باعثا مريضا لا يدفع الأهواء ولا يوقف الضمائر ، أو يكون الإحسان زعما لا يبصر الحق ولا يحس بهيمنته .

نعم ، قد يقع هذا فى حياة الناس كما ترى أحيانا شجرة معطوبة الشمر ، ذابلة الورق ، لا جذعها يحمل الخصب والثمار ، ولا أفنانها تحمل القطوف والخير ولا منظرها يوحى بالبهجة والرضا .

ولكن هذه الأحوال المعتلة ليست الفطرة العامة والطبيعة السائدة .

والحديث الذى بين أيدينا يشرح الحقيقة الصحيحة للدين .

والإيمان إذا صح لابد أن ينتج العمل .

والعمل إذا صح لابد أن يرتكز على الإيمان .

والإحسان إذا صح لا ينشأ إلا من إيمان راسخ وعمل كامل .

ويمكنك أن تقول : إن الدين الذى جاء جبريل يعلمه هو الإسلام .

والإسلام لا يصح إلا بالروح الكامنة فيه ، والوقود الحرك له أى الإيمان الحق .

فإذا استبطن هذا اليقين الدافع فأمامه مثله الأعلى فى إحكام الصلة بالله ، والشعور برقبابته الدائمة وشهوده الجليل ، وهو مقام الإحسان .

وقد شرحنا الحديث بهذا الأسلوب لأن بعض الناس وهم أن كلمات الإسلام والإيمان والإحسان مراتب يسلم بعضها إلى البعض الآخر ، وأن بينها فواصل وجولات ، أى أن الإسلام قد ينفك عن الإيمان ، وأن الإيمان قد ينفك عن الإسلام .

ثم جاء في هذا العصر الهازل من ظن الإحسان منزلة يتوصّل إليها بغير الفروض المشروعة والعقائد المقررة .

وبذلك أصبحت الكلمات الثلاث ترمي إلى حقائق شتى لا إلى دين الله الواحد ، وهذا شرود بعيد .

والقرآن الكريم يهدي إلى تلازم هذه المعانٍ وتساوقها في بيان حقيقة الدين من ألفه إلى يائه ، وإلى أن تلون العبارات إنما يشير إلى الوجه الوضاء لهذه الحقيقة الواحدة . وإنك لترى هذا في عشرات الآيات التي تصف هذا الدين ، وتشرح تعاليمه ، ذاكراً في تضاعيف هذا الوصف كلمات الإسلام والإيمان والإحسان ، لتكون هذه الكلمات منارة يضيء الطريق ، وحادياً يسوق إلى الغاية .

قال عز وجل يصف المؤمنين في صدر سورة النمل : ﴿ هُدٰى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوْقَنُونَ ﴾ (النمل : ٣، ٢) .

وقال يصف المحسنين صدر سورة لقمان : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدٰى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوْقَنُونَ ﴾ (لقمان : ٣ - ٢) فاتحدت الصفات للتنوعين معاً .

وأنت خبير بأن إقام الصلاة وإيتاء الزكاة أهم عناصر الإسلام التي ذكرت في الحديث .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأعراف : ١٦٢) .

﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لَأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (الزمر : ١٢، ١١) .

﴿ ... وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلَّدِينِ حَنِيفًا ﴾ (يونس : ١٠٥، ١٠٤)

﴿ وَمَنْ أَحْسَنَ دِيَنًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ (النساء : ١٢٥) .

﴿ وَمَنْ يُسْلِمَ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرُورَةِ الْوُثْقَى ﴾ (القدى : ٢٠)

﴿بَلِّيْ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرٌ هُوَ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزُنُونَ﴾ (البقرة : ١١٢)

والآيات السابقة كلها ترادفت فيها عبارات الإسلام والإحسان على أساس أن الإيمان المستكين في الأفئدة شيء مقطوع بوجوده ووفرته ، وإنما لا يتصور هنالك إسلام ولا إحسان .

وإذا كانت هذه الآيات قد تناولت الجانب الظاهر من جوهر الدين فإن الآيات الأخرى تناولت الحقيقة تناولاً يصف جذرها الأصيل :

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَجَلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلِيتْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ (الأنفال : ٢) .

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَأُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (الحجرات : ١٥) .

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آتَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًا﴾ (الأنفال : ٧٤) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلٍ وَمَنْ يَكْفُرُ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرَسُولِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (النساء : ١٣٦) .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفْرِقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَخَذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًا (النساء : ١٥١ ، ١٥٠) .

والمتأمل في هذه الآيات يرى أن متعلقات الإيمان كثيرة لا يجوز بتة أن ينفك أحدها عن الآخر ، كما يرى أن آثار الإيمان العملية - وهي لباب الإسلام لا يمكن أن تنفصل هي الأخرى عن طبيعة اليقين الموحى بها .

بل يرى أن الإيمان بالبعض والكفر بالبعض كفر كامل .

وأن الإيمان المقون بنية التمرد ، ورفض الخضوع لله كفر كامل .
﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ (النور : ٥١) .

ومن ثم يتضح أن حقيقة الدين واحدة ، وأن أوصاف الإسلام والإيمان والإحسان التي تعرض له هي شروح لوجوه شتى منه ، وليس مراحل مغایرة له أو بعيدة عنه ، وإن كان العنوان الذي شاع علما على هذا الدين ، بل صفة للأديان كلها ، وسمة للفطرة الإنسانية السليمة ، هو الإسلام . . .

ما هو الإيمان؟

الإيمان معرفة بلغت حد اليقين ، أو هو علم يصحبه الجزم والقطع .

فإذا قلت : أنا أؤمن بوجود القاهرة فمعنى ذلك أمران :

أحدهما عقلي ، هو أنك تعرف وجود هذا البلد ، والآخر قلبي ، وهو أن علمك لا ريبة فيه ولا تردد ، بل مقررون بالتصديق التام .

والإيمان بالله - جل شأنه - ينطوى على الأمرين جميماً ، النظري والنفسى .

فإذا قلت : أنا أؤمن بالله فمعنى ذلك أنك تعرفه ، وأن معرفتك له لا تتبع بشك أو تردد . بل إن فوادك مليء بالتصديق لقضية هذا الوجود الأعلى .

وبديهي أن تتفاوت حقائق الإيمان في النفوس بتفاوت المعرفة ضيقاً وسعة ، وتفاوت التصديق عمقاً وقرباً .

فهناك عارفون بالله معرفة صافية الرونق ، مجلوة الأفق ، شديدة التألق كأنها معرفة دراسة وخبرة .

﴿الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ (الفرقان : ٥٩) .

وهناك معرفة دون ذلك .

وهناك أصحاب قلوب مفعمة باليقين ، راسخة الثقة ، تمر بها العواصف كما تمر الرياح بشماريخ الذرى لا تزحزحها عن الحق قيد أنملة .

وهناك يقين دون ذلك .

على أن الإيمان إذا كان معرفة وتصديقاً . فإن هذه المعرفة يجب أولاً أن تتسم بالصحة ، وإلا فلا قيمة لتصديق لباب الخطأ .

إن من البشر أجيالاً لا تعرف الله ، ومنهم من يعرفه على وجه حافل بالأغلاط والترهات .

والفريق الأول : ينكر أصل الألوهية كالشيوعيين والوجوديين وأنصاراً لهم من الملحدين .

والفريق الثاني : يعترف بالألوهية ولكنها يتصورها تصوراً مخالفًا للواقع ، وينسب

إليها ما لا يليق بها ، كجماهير المشركين على اختلاف مللهم ، سواء فيهم عبدة الأصنام ، أو الزائغون عن الحق من أهل الكتب الأولى .

والإيمان عندنا يجعل العلم الصحيح بالله روح التصديق المقبول .

وقد امتلاه القرآن الكريم بالأيات التي تعرف الله لعباده تعريفا ينفي عن أذهانهم صور الضلال والانحراف ، ويقر الحق في نصابه .

خذ هذه الآية : ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سَنَةٌ وَلَا نُوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عَنْهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسَعَ كَرْسِيهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا يَنْعُودُهُ حَفْظَهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (البقرة : ٢٥٥) .

هذه الآية تعرف بين المسلمين بأية الكرسي ، وقد نوهت السنة النبوية بفضلها ومكانتها ، وت تكون من عشر جمل متصلة المعنى في الحديث عن ذات الله وصفاته : ١ - ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ...﴾ ليس في الوجود أحد يتجاوز مرتبة العبودية ، فكل ما عدا الله عبد له ، وهو وحده المتفرد بالألوهية في السموات والأرض ... من قال عن نفسه إنه إله فهو كاذب ، ومن قال عنه الناس ذلك فهم عليه كذبة ، وقد تمر بالناس أعصار يتخدون فيها بعض الجمادات والدواب آلهة ، وهذه أعصار الانحطاط الذهني والنفسي التي نرجو أن يتم خلاص البشر جميعا منها . ولكن الضلال الشائع إلى اليوم اتخاذ بعض البشر الطيبين آلهة مع الله بحججة أنهم انبثقوا منه أو أنه حال فيهم .

وقد حارب الإسلام هذه الضلة حربا شديدة ، وأكيد أن البشر مستحيل أن يرتفعوا إلى مصاف الآلهة ، وأن الله العلي الكبير لا يمكن أن يهبط إلى منازل البشر .

إنه الإله الذي خلق غيره ، ومنحه الحياة ، وقام على أمره من المهد إلى اللحد ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً﴾ (الفرقان : ٣) .

رسول الإسلام - وهو قمة البشرية - عندما يدعو الله يؤكّد هذه الحقيقة «اللهم

أنا عبدك وابن عبدك وابن أمتك وفي قبضتك . ناصيتي بيده ماضٌ في حكمك ، عدل في قضاؤك . . . »^(١) .

٢- «الْحَيُ الْقِيَوْمُ . . .» والأحياء من الخلق ليس لهم من أنفسهم ما يوجب الحياة ، إن الحياة عرض مفاض عليهم من خارج أنفسهم .

وهو عرض يفارقهم يوماً ولا يعود إليهم إلا وفق مشيئة مفيضه جل شأنه ، الحي الذي لا بداية لحياته ولا نهاية ، فحياته وصف ملازم له أزلاً وأبداً ، وذلكم الفارق بين حياة الخالق والخلق .

ومن ثم يقول الله لنبيه : «إِنَّكَ مَيْتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ» (الزمر : ٣٠) أما المفرد بالحياة العظمى فهو الله .

ولما كانت هذه الحياة وضاحية نفاحة ناسب أن يجيء عقبها وصف القديم أي الذي يمد الأكون والخلائق كافة بحركاتها وسكناتها ، ويشرف بإشراف إحاطة وهيمنة على شؤونها وأحوالها فهي أحوج ما تكون إليه ، وهو أغنى ما يكون عنها .

وقد ورد في الآيات والأثار أن الله قائم على كل نفس بما كسبت ، وأنه القيم على السموات والأرض ومن فيهن .

والقائم على الشيء ، والقيم عليه أو القوام عليه ، ألفاظ تتفاوت في الكشف عن هذه الإحاطة الشاملة لفنون التصريف وألوان السيطرة على العالم .

ولكن لفظ القديم جاء على هذه الصيغة في المبالغة ، إشارة إلى أنه من المستحيل أن يفلت زمام الأمور من الخالق ، أو أن تسير في وجهة غير ما قضى ، إذ كل شيء يستند في وجوده وبقائه وتقلبه إلى هذا الوجود الأعلى «إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَرُوْلَا وَلَئِنْ زَالَنَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ» (فاطر : ٤١) .

وهذه الجملة - الحي القديم - أولى الجمل التسع التي ترادفت أشباه بالاستدلال على الوحدانية المقررة في الجملة الأولى من آية الكرسي .

إذ هذه الأوصاف تنفي الشركة نفياً حاسماً ، وتشهد للبارئ الفرد أنه لا إله غيره .

٣- «لَا تَأْخُذْهُ سَنَةٌ وَلَا نَوْمٌ» السنة ما يخالط الأجهان من أوائل النعاس ، والنوم هو الاستغراق التام .

(١) الترمذى .

والمراد أننا نحن البشر تدركنا ساعات غفلة فقد فيها الشعور بأنفسنا وما حولنا .
بل نحن في إيان اليقظة يختلف انتباها ونشاطنا الذهني نحو ما نفكر فيه وما يحيط بنا .

وعند الكلال يضعف هذا الانتباه ، وتهيء العزيمة ، وتكثر الأخطاء .

لكن رب العالمين لا يشغله شأن عن شأن ولا يغفل عن أمر في السماء
لاهتمامه بأمر في الأرض ، ولا تلحقه عوارض الوهن والإعياء ، ولا تنفك قبضته
الواعية عن ذرة في العرش أو الفرش لسهو أو إغفاء .

٤- ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ الله واسع الملك . وما تقول في
غنى يشمل آفاق السموات وجاج الأرض؟ إن العالم كله ، علوه وسفله ، ملك لله
وحده . والذين يظنهم الجاهلون شركاء لله ، ليس لهم في هذا العالم ذرة ، إن كانوا
أصناماً فما الأصنام؟ تماثيل تحتها المصورون فهم في الحقيقة يملكونها ولا غلوكهم .

وإن كانوا بشرا ، فهولاء البشر ملك لمن صورهم في الأرحام ، وجعل صدورهم
تهبط وتعلو بالشهيق والزفير ، ولو شاء أن يقف دقات قلوبهم في أية لحظة من ليل
أو نهار ما رده راد ..

إن هناك ملائكة على المجاز يضعون أيديهم على بعض التراب ليترتفقوه حينا ، وربما
طغوا بما يملكون ظاهرا ، ثم يحيطهم الموت فيدعون الحياة صفر الأيدي ، يدعونها
لملائكتها الحق الذي له ميراث السموات والأرض . ﴿وَلَقَدْ جَئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا
خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوْلَنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورَكُمْ﴾ (آلأنعام: ٩٤) .

٥- ﴿مِنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عَنْهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ القاعدة العامة في الإسلام أنه لا
شفاعة لشرك ، أو ملحد .

وأنه لا حق لأحد من الملائكة أو المرسلين يذهب به إلى الله ليقول له : اعف
عن فلان ، أو اترك فلانا .

وأن الأساس الأول للنجاة هو الإيمان والعمل الصالح ، ولذلك قال الله تعالى
قبل هذه الآية مباشرة : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِي
يَوْمٌ لَا يَبْعِثُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (آلبقرة: ٢٥٤) .

ويقول مخبرا عن مصاير المشركين والجرميين : ﴿إِنَّمَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَمَ اللَّهَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارِ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (المائدة : ٧٢) .

ويقول أيضا : ﴿وَإِن تَدْعُ مُتَّقِلَّةً إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ (فاطر : ١٨)

وقد يقع - من ينجون بأعمالهم - شيء من الفضل ترتفع به درجاتهم فوق ما يستحقون .
أو يقع - من قاربوا ولم يصلوا - شيء من العفو ينجحون به ولا يربون ويجعل الله السبب الظاهر في ذلك شفاعة المسلمين أو الصالحين .

وهي شفاعة لا ترجع إلى أن هؤلاء المسلمين أو الصالحين يغيرون على الله ،
أو ينقذون منه من يريد عقوبته ، كلا ، فما يجرؤ ملك ولا نبى على أن يقف من الله هذا الموقف .

إنهم لا يشفعون إلا بإذنه ، ولا يشفعون إلا من ارتضى .

﴿لَا يَسِيقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (٢٧) يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا من ارتضى وهم من خشيته مشفقون﴿﴾ (الأنبياء : ٢٧ ، ٢٨) .

﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذْنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ (طه : ١٠٩) .
وربما قال قائل : ولم هذه الشفاعة وما قيمتها؟ والجواب أنها لا تعدو لونا من إكرام الله في الدار الآخرة لمن أهينوا بسببه في الدنيا ، فيريد الله أن يصلح بهم وأن يعلى قدرهم ، وأن يشعر عباده بما لهم عنده من مثوبة ومنزلة ، وأن يطوى قلوب المقصرين والتأخرى على محبتهم وإعزازهم لما سبق إليهم من فضل على أيديهم .
بيد أن الشفاعة المذكورة لا تهدم قواعد العدل ، ولا تعطل موازين الحساب ولا يحتاج إليها سابق بالخير ، ولا ينتفع بها مارق من الحق .

٦ - ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ليس يخفى على الله شيء في الأرض ولا في السماء ، وعلم الأمس واليوم والغد عنده سواء . كان العالم منذ خلق ، وإلى أن تبدل معالله ، صفة واحدة يستوي فيها القريب والبعيد والأول والآخر .

وذلك - بداعه - لأن الخالق يعلم ما خلق ، ولا يتصور أن أحدا صنع من وراءه شيئا فيكون هو سبحانه - جاهلا به .

إن الإبداع - وهو إبراز شيء من العدم - لا يقدر عليه إلا الله .
والتحفيزات التي تحدث في المادة - وهي محور الأعمال البشرية - لا تتم إلا
بأقدار الله ، ومن هنا كانت إحاطة العلم .

ومن هنا كان معنى قولنا : إن الله لا يعلم هذا الشيء ، أن هذا الشيء لا وجود
له ، إذ لو كان موجوداً لعلمه حتماً ، وهذا معنى الآيات الكريمة .

﴿وَيَعْبُدُونَ مَنْ دُونَ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هُؤُلَاءِ شُفَعَاءُنَا عِنْدَ
اللَّهِ قُلْ أَتَنْبَئُنَّ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا
يُشَرِّكُونَ﴾ (يونس : ١٨) .

ولقد تجول الفكرة في خاطري - وكم يحمل تيار الشعور الساري في كيان المرء
من خطرات ، وسوائح - فأقول : إن الله يعلم هذه الخطرة المارة ، كما تمر السحب
بالآفاق . ثم أقول : وعلمه بها منذ أجيال :

وأستنلي القول : وهو يعلم من غيري مثل ما يعلم مني !
ومن غيري ؟ ألوف مؤلفة تزحم أرجاء العالم .

وعلمه يسع هؤلاء في عصرنا . وما قبل عصرنا وما بعد عصرنا !!
وما يملك المرء وهو يتبع هذا التصور إلا أن يهتف بالآية :
﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِيمَهُمْ
عَذَابَ الْجَحَّامِ﴾ (غافر : ٧) .

7- «ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء» ينابيع المعرفة تنبع من ابتداء من
مشيئة الخالق ، حتى العلم بما يقع في مجال السمع والبصر ، إنه لولا ما ركب في
الإنسان من عقل مدر ، لماه ، ما استطاع أن يفقه مما حوله شيئاً .

والاطلاع على ما هو أعمق من ذلك موكول إلى مراتب الذكاء الإنساني ،
 وأنصبتنا من هذا الذكاء مقسمة علينا ونحن أجنة في بطون الأمهات .

ومن هنا كان فتح نوافذ قليلة يطل منها العقل البشري على آفاق من العلم
محدوداً بما تهيء المشيئة العليا من أسباب عادية أو غير عادية .

ومصادر المعرفة المعتمدة مبثوثة في كتاب الكون المفتوح ، وفي تجارب الناس مع

الحياة العامة ، ويمكن بالوعى والتأمل والتجربة أن نبلغ أماذا بعيدة فى هذا المضمار دون حرج ودون قيد .

أما المعرف الغيبية التى مصدرها الوحي الأعلى ، فإن الله قد اصطفى لها رسلا الأولين وقد انتهى هذا المصدر بالرسالة الخاتمة ولن يحيط أحد بشيء من هذا العلم عن طريق الاتصال بالله أو بملائكته ، ومن زعم ذلك فهو كاذب .

و قريب من ذلك الإنباء بالغيب ، فإن هذا ليس من العلوم الميسرة للخلق حتى تناح فرصها للبشر على سواء : ولا مكان لوحى ينزل به بعد انقضاء النبوات .
ومن ثم فلا يقبل من أحد القول بأنه داخل ضمن الإمكان العام فى قوله تعالى (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) .
فإن هذه المشيئة مبينة بما أوضحتناه لك آنفا .

٨ - «وَسَعَ كُرْسِيهِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ» المتบรรدى إلى الأذهان أن السماوات والأرض هما حدود الملك الإلهى ، وهذا خطأ ، فإنهما بعض آثار القدرة العليا فحسب ، ولذلك قال فى آية أخرى :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ (الشورى : ٢٩)
﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ (الروم : ٢٥) .

هما من آيات الله وأيات الله الشاهدة بجلاله لا يحاط بها ، وكرسيه من الرحابة بحيث يسع السماوات والأرض وسائر ما لا يحصى من آيات .
ونحن لا ندرى ما الكرسى؟ ولا نكلف باكتناه ذلك .

وكل ما ندركه من هذه الجملة هو ما توحى به من الإشراف الإلهى العالى على سائر الخلق ، ما نرى منه وما لا نرى ، وأن السماوات والأرض ما يستغرقان إلا جزءا من الملائكة الواسع الذى اشتمل عليه هذا الكرسى ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ (البروج : ٢٠)

٩ - «وَلَا يَئُودُهُ حَفْظُهُمَا» لا يتجمشم أية مشقة فى ضبط السماوات والأرض وتدبیره الأمر بينهما ، كما أنه لم يتجمشم أية مشقة فى الخلق الأول ، وهذا ما ذكره فى قوله : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لُمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات : ٤٧) .

أى أن ذلك البناء شيء هين إلى جانب ما فى وسعنا ، كما ينفق صاحب القنطرة من الذهب والفضة فلوسا قليلة ، فلا يرى أنه أعطى شيئا طائلا

كذلك - ولله المثل الأعلى - بناء العالم وحفظه ، ما يتعب الخالق المدبر ، ولا يرهقه ، لفروط عظمته .

والجملة السابقة في وصف الكرسي تشير إلى علو الذات . ولذلك جاءت الجملة الأخيرة .

١٠ - «**وهو العلي العظيم**» تذيلا يختتم المعانى السابقة بذكر اسمين من أسماء الله الحسنى مناسبين للمقام ، مقام العلو والعظمة الواجبين لدى الجلال والإكرام .

العقيدة الصحيحة بين الإسلام والنصرانية:

هذا الاعتقاد الشريف في إله منزه عن كل عيب مستحق لكل كمال هو أساس الدين .

وإن وراء المادة وجودا أعلى يجب اليقين فيه والاستمداد منه .

والله جل شأنه لم يدع الخلق دون رعاية وهداية ، بل تعهدهم بالوحى الذى ينير لهم الطريق ويعرفهم المبتدأ والمنتهى .

وما الوحى؟ إنه ليس حديث نفس ، ولا ارتقاء فكر ، إنه تعاليم حملها ملك ، وتضمنتها كتب ، واصطفى لها بشر .

واستمعت إليها الأم على مر العصور من أناس يعلمون عن ثقة وصدق أنهم مرسلون من لدن الله إلى عباده لإبلاغ كلماته .

ومن هنا كان من تمام الإيمان بالله ، الإيمان برسله وكتبه وملائكته . لا بد لتمام الإيمان من أن يعترف البشر بما وراء المادة ، وبالعلم الذى تخوض عنه الوحى السماوى .

إن الإيمان بعلوم الحياة الأرضية وحدها دلالة كفر بالله رب العالمين . ولا ينجاب هذا الكفر إلا بالاعتراف بالوحى وتصديق المسلمين ، والشعور بأن ما جاءوا به حق وأنهم مو福德ون من قبل الله كى يعدوا الناس لحياة راشدة يحسن بعدها لقاوئهم لله فى اليوم الآخر .

تلك عرى الإيمان كما ذكر الله فى كتابه ، وبينها رسوله الأخير فى سنته .

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ

وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفرانكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ
الْمَصِيرُ» (البقرة : ٢٨٥).

وال المسلمين يرون الأنبياء جميرا إخوة .

ويرون الكتب النازلة من السماء كلها شارحة لأصول الدين شرعاً يصدق بعضه بعضاً .

ويرون الأجيال الأولى حفلت بالعديد من هؤلاء المرسلين الكرام ، ولا ينتظرون
نبوة جديدة في الأجيال الأخيرة ، لأن السماء ألمت كلمتها الأخيرة ، في القرآن
ال الكريم الذي جاء به محمد خاتم النبيين .

﴿ وَتَمَتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

(آلأنعام : ١١٥)

والخلاصة التي أكدتها الإسلام لدين الله الذي بلغه المسلمين عامة تتحضر في أنه :

- ١- لا إله إلا الله ، ليس هناك إله ثان ولا ثالث .
- ٢- استحقاق الله لكل كمال وتنزهه عن كل نقص .
- ٣- نجاة البشر في عبادتهم وانقيادهم لتعاليم هذا الإله الفرد كما نزلت من لدنـه .
- ٤- ليس هناك أحد يغير على الله ، أو يملك التعقيب على حكمـه ، فلا
شركاء ولا شفعاء .

والإسلام يأخذ على أتباع الديانات السماوية الأخرى انحرافـهم عن الجادة في
تقرير هذه المعانـى .

فال المسيحية مثلاً ترى أن هناك إليها هو الأب وثانياً هو الابن ، وثالثاً هو الروح
القدس ! ثم تلحق ذلك بأن الأب هو الابن ؛ وأن الثلاثة مع ذلك إلى واحد !!
وهذا الكلام شطر الإيمان في المسيحية ؛ أما الشطر الآخر الذي لا يتم الإيمان إلا
به ، فهو القول بأن الإله الابن صلب كـي يرضي الإله الأب عن أولاد آدم بعد
خططيته الموروثة .

ولما كان الإله الأب هو نفسه الإله الابن ، فمعنى هذا أن الله ، قـتل الله ليـرضـي
الله .. !!

والحق أن العقل البشري تبهـظـه هذه الأثقال ، ولذلك فهو بين أمرين إما أن
يهضم نفسه فيقبل هذه الأوهـامـ ويـعـتـنـقـها على ما بها .

وإما أن يطرحها ويسير وفق ما يراه .

وذاك سر البراكين التى تثور فى الكيان الصليبي ، وتجعله يقذف العالم بين الحين والحين بأشتات من مذاهب المروق والفسوق والعصيان ، كالشيوعية والوجودية والإباحية وغير ذلك من عوج فى الطبيعة الإنسانية بعد ما سارت فى الأرض من غير زمام .

وهاك ما يصور العقيدة المسيحية منقولا عن بعض الكراسات التى توزع اليوم - للدعاية - ومدعوما بالمصادر الشاهدة له من الكتاب المقدس .

«إن الثالوث الأقدس هو الله الأب السرمدى وهو كائن ذاتى قادر على كل شيء حاضر في كل مكان عالم بكل شيء ، لا حد لحكمته ومحبته ، والرب يسوع المسيح ابن الله الأزلى الذى به خلقت كل الأشياء وبه أيضا يتم خلاص المفديين ، والروح القدس الأقنوم الثالث في الثالوث الأقدس ، وهو القوة العظيمة المجددة في عمل الفداء .

إن الرب يسوع المسيح هو الله نفسه إذ هو من طبيعة الله الأبدى نفسها وجوهره ، الذى مع احتفاظه بطبعاته الإلهية اتخذ الطبيعة البشرية ، وعاش على الأرض كإنسان ، ومثل في حياته ، كمثال لنا ، مبادئ البر ، وأثبت ألوهيته بعجائب كثيرة عظيمة ، ومات على الصليب من أجل خطايانا وقام من بين الأموات وصعد إلى الأب حيث الآن يشفع فينا . يوحنا : ١٤ ، ١ ، عبرانيين ٢: ٩ - ١٨ و ١: ٨ ، ٢: ٤ ، ٧: ١٦ - ١٤ .

لقد توج السيد المسيح بإعلانه عن محبة الله ، إذ سار أخيرا إلى الصليب ، وهنالك ، بوصفه الممثل الكامل الأوحد للجنس البشري ، امتزجت طبيعتاه الإلهية والبشرية امتزاجا لا انفصال له . وهكذا بعد أن قضى سحابة حياته على الأرض في طاعة تامة لناموس البر الأبدى الذى وضعه هو ، بذل نفسه عن خطايا الناس ذبيحة كاملة تامة وافية بلا تلاعيب ، «لأنه كما بعصية الإنسان الواحد جعل الكثيرين خطاة هكذا أيضا بإطاعة الواحد سيجعل الكثيرين أبرارا» . رومية ٥: ١٩ .

وكتب الرسول بولس : «مخلصنا يسوع المسيح ، الذى بذل لأجلنا لكي يفدينا من كل إثم» تيطس ٢: ١٣ ، ١٤ .

لقد صور الرسول بولس التضحية الإلهية الجلى بهذه الكلمات الخالدة : «إذ كان

في صورة الله لم يحسب (المسيح) خلسة أن يكون معادلاً لله . لكنه أخلى نفسه أخذًا صورة عبد صائراً في شبه الناس . وإذا وجد في الهيئة كإنسان وضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليب» فيلبسي ٢: ٦ - ٨ .

أجل ، تنازل السيد فانتقل من أسمى علو إلى أدنى مرتبة ، من كرسى المجد إلى خشبة العار ، من القدرة اللامحدودة إلى التسليم التام ، من السلطان المطلق إلى التواضع العميق من تسبيح الملائكة وتعبدهم له إلى تحديف البشر عليه وهزئهم به . يا لها تضحية عجيبة فائقة التصور! أجل ، لقد كان الله مستعداً أن يدفع هذا الثمن الذي لا يستقصى في سبيل خلاصنا .

هكذا أراد أن يعلن محبته لنا ويتصل بنا عبر الهوة السحيقة التي أوجدتها الخطية ، وعليه قال الرسول بولس : «فإن المسيح أيضاً تألم مرة واحدة من أجل الخطايا . البار من أجل الأئمة لكي يقربنا الله» بطرس ٣: ١٨ » أ. ه.

هذا الكلام العجيب المشحون بالنقائض هو محور الإيمان عند القوم . الله صلب الله ، لكي يرضي الله . . . يرضى عن الخاطئين من بنى آدم ، لو خبر الإنسان بأن قوماً في كوكب آخر يجمعون في تدینهم هذه الغرائب لأنكر وجودهم ، ومع ذلك فهم يعيشون معه على ظهر هذا الكوكب .

وليس لنا من تعليق على قصة الأبوة والنبوة والفاء وروح القدس التي تلتقي كلها في ذات واحدة إلا قول الله في كتابه الكريم : ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكَيلٌ (١٠٢) لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يَدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ﴾ (آلأنعام: ١٠١ - ١٠٤)

الإِلْحَادُ خِرَافَةٌ عَلَمِيَّةٌ

قلنا : إن الإيمان معرفة بالله بلغت حد اليقين ، وإن المعرفة المقبولة هي المعرفة الصحيحة التي تطابق الحق .

وقلنا : إن هناك من يعرفون الله معرفة مشوبة بالخطأ ، مقرونة بأوهام لا يساندها الواقع . وقد ذكرنا نماذج لتفكير هؤلاء .

وبقى أن نعرض لقوم آخرين لا يعرفون الله أصلا ، بل ينكرون وجوده بقوه .

وهؤلاء الموغلون في الجحود قد اشتدت سواعدهم في العصر الأخير اشتداداً محزناً ، وأسعفتهم حضارة الغرب المادية بقوى كثيرة .

فللسنة الشيوعية القائمة على أنه ، لا إله والحياة مادة ، أمست لها دولة مسلحة مخوفة .

وفلسفة الوجودية ، أو نزعات بعد الدين إجمالا ، تنتظم مواكب ضخمة من المثقفين في دول أوربا الغربية .

وهؤلاء يروجون لنظرية النشوء والارتقاء ، ويدرسون الحياة على أنها بداية هزلية مبهمة تدرجت في سلم التطور حتى بلغت وجودها الحالى .

واستطاع الغزو الثقافي أن يقذف مجتمعنا بجملة من هذه الأفكار العليلة وهي أفكار ما تثبت - إذا نوقشت - أن تنهر .

وقد تجددت الحملة على الإيمان في الأونة الأخيرة فرأينا أن ندفع ما فيها من باطل ، تحت العنوان نفسه الذي اختاره المبطلون وهو :

لغز الحياة :

ماذا ترى عندما تعبث الأيدي بأوراق اللعب ، أو بأزهار النرد ؟ .

إنها تلقى ما بها أو تستقبل ما أمامها دون أن تدرى عنه شيئاً ، ثم تتأمله بعد أن يقع لتعرف ماذا يحتوى .

أتري الأطفال وهم يلهون بالألاعيب المهدأة إليهم ؟ إنهم يرمونها يمنة أو يسراً

ويحركونها بضعف أو قوة ، دون أن يكون لهم هدف أكثر من حب العبث وطلب المرح . هذه الحركات التي تلمحها في الصغار والكبار لا يمكن أن توصف بأنها مقرونة بحكمة أو محكومة بقانون ، أو مصوغة في إطار من سداد الفكر ودقة الغاية ، إنها حركات وحسب .

ونحب أن نسأل : هل خلق العالم جاء على هذا الغرار؟ فركمت مواده بعضها فوق بعض دون قصد ، وسيرت حركاته علواً وسفلاً دون ضبط ، كأن الخالق أراد من هذا الصنيع اللهو والتسلية !

والجواب السريع لا ، فإن مبدع هذه العوالم قال في وضوح :

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَا يَعِينَ﴾ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَخْذِلَهُمَا
لَا تَخْذِلَنَا مِنْ لَدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الأنباء : ١٧، ١٦).

وفي آية أخرى يبين أن كيان هذا العالم تضام وتماسك ، أو تحرك وانطلاق وفق نظام رائق ، وسفن متسق ، وغاية مرسومة ، ومراحل معلومة .

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَا يَعِينَ﴾ (٢٨) مَا خَلَقْنَا هُمْ إِلَّا بِالْحَقِّ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الدخان : ٣٩، ٣٨).

ونريد أن نقف وقفه ذكية فاحصة عند كلمة (الحق) هذه . فإنها تكررت في كتاب الله عشرات المرات . وهي في شتى مواضعها تعنى أن الحياة لا تسير خبط عشواء ، وأن بناء الكون قائم على بصر نافذ وأوضاع اكتنفها من ألفها إلى يائها إعداد حكيم ، وتنظيم مضبوط ، يستحيل أن يتطرق إليه خلل أو ينتابه عوج .

فكل قطرة في المحيطات الفسيحةأخذت سماتها والتقت مع سواها وتهيأت لحمل السفن الماخرة ، أو صلحت لحياة الأسماك والحيتان ، وثارت موجاً عاتياً أو حالت جليداً بارداً . كل قطرة في عالم الماء العميق الواسع تكونت على هذا النحو وفق قانون عتيد وخطة مرسومة ، وصل العلم البشري إلى جزء منها ، وربما وصل إلى أجزاء أخرى مع إدمان النظر والتفكير .

وكل ذرة في القارات الراسية من أرض مخصبة أو مجدهبة تمسكت مع غيرها وصلحت مهاداً للناس يستخرجون دفائنهما ، ويرتفقون ظواهرها ، ويجبون أقطارها ،

ويعمرون فجاجها كل ذلك ما يتم إلا في نطاق التخطيط الأزلى الذي وضعه البارئ
الأعلى للكائنات كلها . فهي مطبوعة به منساقه إليه لا تعرف غيره ولا تحيد عنه .

أجل ، فالنظام الشامل يسود كل حركة وسكنة تتعرض لها الكائنات جملة وتفصيلا .

وعندما وجه فرعون إلى موسى وأخيه هذا السؤال : ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾ (٤٩) ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَنَا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (طه : ٥٠) .

إن هداية كل شيء في الحياة ليقوم بوظيفته المطبوع عليها ، هو «التقدير» الذي
سير الله به الحياة تسيرا متقدنا .. ! ﴿سَبَعَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَى
(٢) وَالَّذِي قَدَرَ فَهَدَى﴾ (الأعلى : ٣ - ١) ، وذلك هو معنى الحق الذي قامت به
السموات والأرض . فلا تخسبن نبتا ينبعش من ترابه كما يحلوله . إن مقادير
الأغذية التي يحملها أو الروائح التي يطلقها عبشت فيه وفق سنن بيضة قائمة .

ولا تخسبن نجما يخترق هذا الفضاء متوجلا فهو يسرع إذا أحب ويبطئ إذا أحب .
إنه يجري تبعا لقوانين قيد بها ، وقوى حبس في حدود أذن الله بها ، ولم يأذن بغيرها .
وقد وزعت هذه الإيحاءات من بدء الخليقة توزيعا لا يلحقه اضطراب ولا ترقى
إليه فوضى .

وابرازا لهذه الحقيقة قال الله جل شأنه : ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ
فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ اتَّئِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبَعَ سَمَوَاتٍ
في يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَ السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ
تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (فصلت : ١٢، ١١) .

ذلكم هو الحق الذي انساب في أوصال العالم كما تناسب الروح في البدن ،
والذي تكرر كثيرا في سور القرآن الكريم .

﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٌ مُسَمٌّ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
عَمَّا أَنْذَرُوا مُعْرِضُونَ﴾ (الأحقاف : ٣) .

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْبِرْ
الصَّفَحَ الْجَمِيلَ﴾ (الحجر : ٨٥) .

﴿أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ
وَأَجَلٌ مُسَمٌّ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ (الروم : ٨) .

ولما كان القرآن هو الكتاب السماوي الأوحد الذي لفت الأنظار بقوته إلى كتاب الكون المفتوح وأغراها بفهم أسراره وسبر أغواره صع أن يقول الله في وصفه :
﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (الإسراء : ١٠٥) .
ويديه أن يكون التأمل في الكون مفتاحا لإدراك عظمته ، وبالتالي مفتاحا لإدراك عظمة الباري الذي أبدعه ! .

إن التأمل في صورة مليحة التقسيمات جملية الرواء طريق طبيعى لتعظيم من رسماها والاعتراف بعلو فنه ، والتأمل في قصر منيف الشرفات رحب الأكناf متين الدعائم طريق طبيعى لإكبار بانيه والتنوية بهندسته وعقبريته .

فلا غرو أن يكون النظر إلى الأرض والسماء وما بينهما طريقا طبيعيا لإكبار من سماك هذا السقف المحفوظ ، ومهد هذا الفراش المبارك ، وبث في تضاعيف الخلق من أسرار الإبداع وروائع القدرة ما ينطق البكم بالإعجاب .

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشَنَاهَا فَنَعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨)
وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات : ٤٧ - ٤٩) .

بيد أن بعض الناس انقلب في تفكيره هذا المنطق الطبيعي ، ونظر إلى القوانين الازمة الدائمة الملحوظة في بناء هذا الكون ثم أخذ يتغزل فيها ويتحدث عنها وينسب إليها ما يشاء .

فإذا وجد على قضبان السكة الحديدية قطارا منطلقًا يخترق الريح قال : ما أروع هذه العجلات ، إنها تدور بقوه لا تهدأ ، ما أقوى الأذرعة التي تغمزها . إن جلدتها على أداء هذه الوظيفة يستحق الثناء ، إن العربات المجرورة تتحسس طريقها بحدور وراء القاطرة الذكية .

وينتهي من هذا الوصف بأن القطار كائن عاقل أو جد نفسه ! .

وينظر مثلا إلى المصباح الكهربائي فيقول : إن مفتاح التيار يرقب الأصابع التي تحركه ، والتيار السالب في شوق حار إلى التيار الموجب كي يتعانق وإياه ويتزوج به وتُضاء الحجرة .

وينتهي من هذا الوصف . بأن الكهرباء كائن يدرى ما يصنع عندما يحرك آلة
واقفة أو يضيء مكاناً معتماً !

وربما ظن القارئ أن هذا الكلام خيال شاعر سخيف ، أو تصور طفل غريب ! لكننا
نسارع إلى زيادة دهشته فنقول له ... بل هذا الكلام يوصف بأنه تفكير علمي
لدى بعض الناس ! .

هذا المقطع الصبياني هو للأسف محاولة علمية لتفسير لغز الحياة ! وحل مشكلة
الوجود ! وبيان أن العالم مادة وحسب ، وأنه لا إله .

هذا المقطع يرثد أن ينقل خصائص الألوهية إلى المادة نفسها جاعلاً السنن
الكونية المنتظمة لها علامات تفكير واختيار لدى الأحياء والجمادات على سواء .

يقول الكاتب :

«اسمعوا . هذه ليست نكتة .

إن الوردة فيها عقل .

وشجرة البلوط لها عقل . وإن كان عقلاً ثخيناً مثل جذعها الشخين .

إن حركة زهرة عباد الشمس وهي تلوى عنقها للتوجه نحو الشمس لا تختلف
كثيراً عن حركة النحلة وهي تطير إلى الحقل لتجمع العسل . ولا عن حركة
الإنسان الوعية العاقلة وهو يطير ليقترب المخاطر مستهدفاً رسالة سامية .

إن الحركات الثلاث منتظمة متصلة الحلقات ، الفارق بينها فارق في الدرجة فقط

إن حركة زهرة عباد الشمس في بساطتها . عقل . فما هو العقل ؟

إنه قدرة تصرف وتكيف بالبيئة .

إنه في كلمات قليلة بسيطة . القدرة على اتخاذ موقف انتقائي أكثر ملاءمة
للحياة في كل لحظة ، والزهرة حينما تلوى أوراقها نحو الضوء تتخذ موقفاً انتقائياً
أكثر ملاءمة لحياتها . إنها تتحرك عاقلة .

ومعنى هذا أن العقل ليس شيئاً جديداً في الإنسان . إنه في الطبيعة الحية كلها .

كل الفرق أن الإنسان لديه وسائل أكثر يتصرف بها ويحتال على بلوغ أهدافه ،
الإنسان بحكم كونه مخلوقاً معقداً يملك يدين فيهما عشرة أصابع . ويملك لساناً
ناطقاً . ويمتلك عينين مبصرتين . وأذنين حادتين . وبشرة حساسة . وأنفًا شماماً .
 وكل هذه الأجهزة في خدمة عقله .

الإنسان حيوان إقطاعي عنده عشرة آلاف فدان من المواهب وعمارات من الأعصاب والحواس المرهفة .

وهو لهذا ظلم نفسه وظلم غيره من المخلوقات حينما اعتبر نفسه الوحيد العاقل بينها .
وهذه خرافية إقطاعية غير صحيحة .

العقل باطن كامن في كل الطبيعة الحية .

ومنذ أن انبثت الحياة في الأميبا الحقير ذات الخلية الواحدة . وحركة هذه الأميبا فيها كل الحذر والتلصص والخبث والنية التي في الإنسان : لا جديد في الإنسان . وإنما هناك تطور فقط » .

أقرأت هذا الكلام العجيب ووعيت مراميه؟ إن أرضنا هذه لم يصنعها أحد خارج عنها ، فإن كل ذرة فيها تؤدي رسالتها وفق عقلها الخاص ورأيها المستقيم! .
فإذا خرجت بعزة من دبر بهيمة ، فبرأيها خرجت ، وبرغبتها وقعت حيث وقعت! .
وإذا تحركت جرثومة بفرض فبعقلها سادت وبمشيئتها أصابت من أصابت . وهذا الكلام ليس نكتة .

بل هذا هو التفكير العلمي كما استقر في أذهان بعض الغافلين ، وهو الحل الموفق للغز الحياة ، كما يتخيل نفر من الحاقدين على الله الكارهين لاسم المخواлиن إطفاء نوره .
والجنون فنون .

الله هو الحق المبين :

إن بعض الناس يتناول الحقائق العليا بعبارات ساخرة ، فلا حرج علينا إذا دافعنا قضايا الإيمان بأسلوب يمزج بين الجد والتهكم .

وليعذرنا القراء إذا رأينا نسوق الأمثلة والشواهد جامعة بين هذه الأطراف البعيدة .

لو قيل لك إن إسكافا في إحدى حارات القاهرة شارك - بعلمه - في إرسال صواريخ الفضاء! وبعث الأقمار المصنوعة! فماذا تقول؟ .
ستقول يقينا : هذه أضحوكة!

لماذا؟ لأن إطارة هذه الأقمار توفر عليها نفر من العلماء العمالقة أتقنوا من الدراسات الكونية ما يعجز أمثالهم عن مناله .

إن سبعين قنطرًا تنطلق في الفضاء وتعود وفق خطة مرسومة متحدية قوانين الجاذبية وعواصف المجهول عمل هائل ، تراصت عقول كبيرة في إتقان كل أغلظة منه .

وليس ثم مجال للقاصرين والجاهلين لتحمل وجودهم به مشاركتهم ، فما للأساكنة وهذا الأفق؟

ولو قيل لك : انظر هذا القصر الوسيق الأركان السامق البنيان!
إن أحد البغال التي تشد عربات النقل هو الذي شاده!!

إنك - بداعه - ستشق من أن القائل قد جن . لماذا؟ لأنك تعلم أن أفكاراً نيرة وأيدياً قادرة هي التي خططت الشكل ، ثم أقامت الأركان ، وصاغت الأبواب والنوافذ ، ونسجت شبكة الضوء والماء ، وزوّدت عليه ، علواً وسفلاً ، أنواع الطلاء .

وأنى للبغال كلها هذه القدرة؟

ولكن العقل الإنساني الذي يستسخف هذه الفروض ، لا يزال يهوى عند بعض الناس حتى يحول هذه الفروض الغبية إلى حقائق محترمة .

إطارة قمر صغير تحتاج إلى ذكاء لامع ، وعلم واسع وتقدير دقيق ، وبصر عميق .
أما إطارة الألوف المؤلفة من الكواكب الضخمة الرحيبة فلا تحتاج إلى شيء من هذه الصفات!

إن إسكاف أفندي بعبائه هو الذي يطيرها ويديرها!!!

بناء بيت محدود يحتاج إلى هندسة وقدرة وفن وابداع ، وهذه الصفات لابد أن تكون طبعاً في ذات لا في فراغ .

أما بناء الكون الكبير الطويل العريض ، فلا يحتاج إلى شيء من هذه الصفات .
إن بغل أفندي يستطيع بباهيمته أن يضع الرسم ، ويبرز البناء .

إن الإيجاد والتدبير وظائف عالية ، لا يمكن أن تتم إلا إذا تصورنا إراده علينا ، وقدرة علينا ، وحكمة علينا وعلمًا أعلى . وإبداعاً أعلى .

وهذه الصفات لا تتصور إلا في ذات المرشد القادر الحكيم العليم بديع السموات والأرض ذى الجلال والإكرام .

هذه بداعه لا تحتاج إلى كد الذهن ، وإجهاد الفكر ، ومع ذلك فإن أحد الكتاب أخذ يتناول لغز الحياة ، لماذا؟ ليحل هذا اللغز على أساس أن إسكافا طير القمر الصناعي ، وأن بعلا بنى أهرام الجيزة . وأن شيئاً باطنًا في تراب الأرض هو الذي أنبت سنابل القمح ، ولف كل حبة في غلالها ، ونسقها صفوافا متراكبة ، وأودع بها النشا والرزلال والسكر ... إلخ .

شيء باطن في تراب الأرض لا عقل له ، ولا إحساس ، ولا مشيئة ، ولا تدبیر هو الذي صنع هذا .

هكذا يريد منا أن نفهم وأن نصدق .

إنها غرائز في الطين - ليس لها مصدر إلا الطين - جعلت هذا الطين ، ينشق عن الحدائق الزاهرة والحقول العامرة !!

فما تلمح على صدور الأغصان من ثمار ، وما تشم رائحته من أزهار ، وما تقيم به حياتك من عناصر طيبة كمنت في هذه الحبوب المخصوصة والفواكه الجنية ، هذا كله ، من صنع «العلامة طين أفندي» قام من تلقاء نفسه ، فلا ألوهية هنالك ، ولا وجود أعلى . وطين أفندي هذا هو أخو إسكاف أفندي الذي شارك علماء الروس والأمريكان تطوير أقمارهم !!

لا إله والحياة مادة ، هكذا يريد أن يعلمونا الكاتب البائس الباحث عن حل لغز الحياة!
اسمعه يقول : «ما الحياة؟ وما سرها؟

من الذي علم الكتكوت أن يكسر البيضة عند أضعف أجزائها ويخرج ...؟ .
إنه طبعا اهتدى إلى ذلك بعقله الخاص!

«من الذي علم الطيور الهجرة عبر البحار والصحاري إلى حيث تجد الغذاء الأوفر والجو الأحسن ، وإلى حيث تتلاقى وتتوالد؟ ومن الذي يحدد خططاها طول هذه الرحلة من ألف الأميال فلا تضل ولا تتوه؟» .

إنها طبعا عرفت ذلك بعيقريتها الملهمة!

«من الذي علم دودة القرأن تنسلخ من ثوبها مرة بعد أخرى ، ثم تنزوى في ركن



لتبني لنفسها شرنقة من حرير تنام فيها ليالى طويلة مثل أهل الكهف ، ثم تخرج منها فراشة بيضاء جميلة .

يقول الكاتب الألماني! : هذا الانتقال المنظم الدقيق من نمط في الخلق إلى نمط آخر . هذا التطور من دودة إلى حشرة ، الذي تتعاون فيه الألوف المؤلفة من الخلايا ، يحدث تلقائيا بلا معلم؟» .

أى ليس هناك منهم من الخارج تولى هذا الأمر وأشرف عليه ، إذن كيف حدث؟ يقول : «إن المعلم هو الفطرة المرشدة المغروسة في المادة الحية بطريقة لا يعرفها أحد .. ». والطريقة التي لا يعرفها أحد هذه ، هي الخل الموقق المخترم للغز الحياة . !!

قل أى شيء في قطع صلة الموجودات ببارئها الأعلى يكن الكلام علما تقدميا مسماً . مهما كان الكلام سخيفاً سمجاً .

النطفة تحولت إلى إنسان سوى العضلات ، مكتمل الحواس ، ذكي العقل ، لأن موجوداً أعلى تولى ذلك وأشرف عليه ، بل لأن النطفة من تلقاء نفسها مشت في هذا الطريق ، وبلغت تمامها كما يتحول الشخص المفلس إلى غنى مكثرا بجده واجتهاده . !!

هذا هو منطق العلم ، ولا بأس أن نتمشى مع هذا المنطق في مراحل خلق الإنسان لنشترى على حقيقة واضحة فيه .

يبدأ وجود الإنسان عقب التقاء الحيوان المنوى بالبوصية السابحة في رحم الأنثى والحيوان المنوى كائن عجيب فهو مع ضائلته المتناهية يحتوى على خصائص الرجل المادية والمعنوية ، وعنه تكون وراثة المشابه في طول القامة وقصرها مثلا ، في سواد الشعر أو شقرته ، في لون الجلد ، في حدة المزاج والذكاء أو في ضد ذلك . . . إلخ .

ونسائل : من صنع هذا الكائن العجيب؟ أهو الرجل؟ أنا وأنت خلقنا هذا الحيوان وأودعنا فيه أسرار السلالة البشرية والمواهب الشخصية؟
لا بداهة ، فما يذكر أحد منا أنه فعل شيئاً من هذا!

أم أن لقمة الخبز التي أفلتت من بين الأسنان أخذت تكافح في سبيل الترقى فتحولت من تلقاء نفسها إلى دم ، ثم إلى منى؟

إنه شيء مضحك أن تتصور هذه اللقمة من الخبز قد رسمت لنفسها خطة كاملة لإيجاد بشر ، أو للتحول إلى بشر يمشي على ظهر الأرض .

إذن من الذي خلق هذا الحيوان وجعل في كيانه الدقيق مشروع بناء إنسان؟
ليس إلا الله !!

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ (الواقعة : ٥٨ ، ٥٩) .

إن هذا الخالق الكبير يحكم الأسباب ولا تحكمه الأسباب ، وهو مستطيع أن يخلق البشر بوسائل أخرى غير ما يعرف في النشأة الأولى للإنسان الآن .

ولذلك يقول بعد الآيات السابقة :

﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسِيقِينَ (٦٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الواقعة : ٦٠ ، ٦١) .

ولنتابع النظر في أطوار خلق الإنسان بعد النطفة المعلومة ، إنه يتدرج في أعماق الرحم آخذًا طريقه إلى التمام . ترى من يشرف على تكوينه وتصويره ، الأب أم الأم؟ إن دور الأب انتهى فماذا تصنع الأم في تطوير هذا الجنين؟

من الذي يشق الأجفان ليضع العين المبصرة ، ومن الذي يصنع الآذان ، ويوضع فيها حاسة السمع ، ومن ومن؟؟؟ ... إلخ .

إن الجنين في بطن الأم تحت أمعاء مشحونة بالطعام والفضلات ، ووسط أجهزة لا تعى إلا ما سخرت له من وظائف معينة فهل يراد منا أن تتصور الخالق للسمع والبصر والفؤاد هو الجهاز البولي أو الجهاز الدورى؟ .

إننا نتصور بغالاً يبني الأهرام ، ولا نتصور هذا الذي يفترضه الملحدون حين ينكرون الألوهية في هذا المجال الناطق باسمها الدال على عظمتها ...

إن الخلق يا أولى الألباب وظيفة لها مؤهلات ، إن إيجاد شيء من عدم أو من غير عدم يقتضى أوصافاً معينة لا بد منها ، إن تجميع آلات الراديو ووصلها بالتيار لتنطق عمل لا تطيقه دابة من الدواب ، ففائد الشيء لا يعطيه ، إنما يستطيع هذا أمرؤ له عقل وخبرة .

والذين يتصورون العالم المنسق الترتيب قد كونته مادة لا روح بها ولاوعي ، قوم
يريدون أن يشيعوا غفلتهم أو تغفيلهم بين الناس وهيهات . !!

قال لى أحد هؤلاء : أتنكر نظرية التطور؟

فقلت له : لنفرض جدلاً أن نظرية التطور أصبحت حقيقة علمية ثابتة ، وليست
نظرية يمكن أن يعدل العلماء عنها إلى تفسير أصدق لأصل الأنواع فماذا تفيده
تلك النظرية؟

هب الإنسان كان أولاً «أميما» ثم ارتقى حتى أصبح كما هو الآن ، ألمعنى ذلك
أنه لا إله؟ كلا إن الزعم بأن هذا التطور يتم من تلقاء نفسه لأن بالأشياء خصائص
تجعلها تدرج من فوق إلى تحت أو تدرج من تحت إلى فوق ، هكذا من غير مؤثر
خارجي ، زعم فارغ من العلم والمنطق !!

إنك تتصور في تراب الحقول الذي تأنيقته فوقه الأزهار والأثمار عبقرية مصورة
خلاقة ، وأنا لا أتصور في تراب الحقول شيئاً من هذا وأرجع وجود الأزهار والأثمار
إلى كائن أعلى هو الجدير بأن يسمى الخالق المصور .

إنك تستقبل الوليد حين ينفتح عنه الرحم ، زاعماً أن في جسم الأم المصانع
التي نسجت اللحم ، وأنشأت العظم ، وأوجدت المخ قابلاً للذكاء والتفكير . وأنا لا
أرى في جسم الأم إلا مجالاً لعمل المشرف الأعلى .

الذى يقول : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا إِلَّا نَسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ
مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عَظَاماً فَكَسَوْنَا
الْعِظَاماً لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون : ١٢ - ١٤) .

إنك تنظر إلى القصر المشيد فتقول : بناء ما في البلاط من خصائص .
وما في الأخشاب من طبائع! وأنا أقول : لا . بل مهندس معه أدوات التفكير والتنفيذ .
إن ما تسمونه علمًا هو الجهل بعينه ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ

إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الفرقان : ٤٤) .

ما الإسلام؟

إن الإيمان المجرد ينبع شعوراً بالخضوع لله . خصوصاً تمتزج فيه الرغبة والرهبة . وليس في هذا عجب . فإن الذي يعرف عظيمـاً من البشر يحس نحوه بالإعزاز والانقياد . فكيف من عرف الله وفقه صفاتـه العظمـى وأسمـاءـه الحسـنى؟

إن الخضوع المطلق يفعم فؤـادـه ، ويـجعلـ مبدأـ السـمعـ والـطـاعةـ أـسـاسـ صـلـتهـ بـهـ . وأـيـاـ ماـ كـانـ الـأـمـرـ إـنـ الـدـينـ لـيـسـ مـعـرـفـةـ التـمـرـدـ وـشـقـ عـصـاـ الطـاعـةـ ،ـ هـوـ التـسـلـيمـ التـامـ لـلـهـ ،ـ وـالـإـنـفـاذـ الـكـامـلـ لـاـ حـكـمـ بـهـ .

﴿فَلَا وَرِبَّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (النساء : ٦٥) .

وكلمة الإسلام في مدلولـهاـ اللـغوـيـ ،ـ وـفـىـ مـصـطـلـحـهاـ الشـرـعـىـ تـعـنىـ هـذـاـ .ـ إـنـهـ لاـ تـعـنىـ الـخـضـوعـ الـجـزـئـىـ ،ـ أـوـ الـخـضـوعـ الـمـشـروـطـ ،ـ أـوـ الـخـضـوعـ الـكـارـهـ .ـ إـنـهـ خـضـوعـ لـلـهـ ،ـ يـنـقـلـ إـيمـانـ الـمـسـتـكـنـ فـىـ الـقـلـبـ إـلـىـ عـمـلـ تـصـطـبـغـ بـهـ الـجـوارـحـ .ـ وـيـتـرـجـمـ الـيـقـينـ الـخـفـىـ إـلـىـ طـاعـةـ بـارـزةـ فـىـ الـحـيـاةـ الـخـاصـةـ وـالـعـامـةـ .ـ

وهـذـاـ الـذـىـ نـقـولـ يـظـهـرـ فـىـ أـرـكـانـ إـلـاسـلامـ التـىـ ذـكـرـهـ الـحـدـيـثـ الـمـشـهـورـ ،ـ كـمـاـ يـظـهـرـ فـىـ سـائـرـ شـرـائـعـهـ الـمـبـيـنةـ فـىـ الـكـتـابـ وـالـسـنـةـ .ـ



معنى الشهادتين

وأول شرائع الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

وهذه الكلمة العظيمة تعنى شيئاً فوق الإخبار المعتاد ، إنك حين تذهب إلى ساحة القضاء فتذكرة ما تعرف في قضية معروضة لا تقصد مجرد الإخبار .

إنك بما تقول تحق حقاً كاد الباطل يغلبه ، وتخذل باطلاً كاد يروج وينتصر ، إن الإخبار المجرد قد يكون قصصاً مسلية ، وقد يكون حكماً جاداً .

وشهادة التوحيد حين ترسلها في ساحة الحياة فأنت بهذه الشهادة لا تطلق خبراً هو بعض ما يتداوله الناس من كلام أو يتناقلونه من حديث .
إنها شهادة تعنى إحقاق حق وإبطال باطل .

إنها شهادة تعنى أنك قررت المصي في الحياة وفق خطة تابذ الشركاء العداء وتقر لله بالوحدة .

إنك بهذه الكلمة أبديت وجهة نظرك في قضايا كثيرة تشغل الناس ليلاً ونهاراً .
إن الناس في الواقع يخضعون لآلهة شتى . ويطوفون حول كعبة تحفها أصنام المال والجاه والسلطة . وكم في الدنيا من اتخذ إلهه هواه وأضلله الله على علم . وذلك عدا من ساء فهمهم في الألوهية . ومن أنكرواها بتهة . . .

في هذه الظروف العصبية يكون معنى أشهد أن لا إله إلا الله . إنك في ساحة الحياة تدفع بعملك باطلهم وتجابه بحقك ضلالهم . وتعلن أنك مستمسك بعري هذا الحق ، وأنك لا تخفيه في سريرتك بل تشهد به ليظهر بين الملايين ويعرف ويقرر .

إن الشهادة ليست فقط دلالة إيمان . بل هي معالنة برأي . وبداية لسلوك ، إنها شهادة تنتقل من ساحة القضاء إلى ساحة الحياة لتكون شارة مذهب معين .
وصبغة نفس عرفت الله . وقررت أن تسير باسمه في كل درب !

والشهادة بأن محمداً رسول الله لم تذكر في الحديث اكتفاء بالشطر الأول . فإن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بأنبيائه واحداً واحداً .

فمن أمن برجل منهم وكفر بالأخر فهو بهم جمیعاً کافر ، وهو بالله كذلك کافر ، لا فرق بين موسى وعیسی و محمد وسائر المسلمين .

فالله عز وجل أبى بأنبيائه من أن يدعهم لعبث العابثين وتفريط المفرطين ، سيما وهم لم يعيشا على ظهر الأرض لأنفسهم ، بل عاشوا ربهم يذكرون به ، ويدفعون الجماهير إليه ، فكيف يبعدهم الله عنه بعد ذلك؟ لقد قال :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِعَضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَخَذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (١٥٠) أَوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ (النساء : ١٥٠ ، ١٥١)

والشهادة بأن محمداً رسول الله شهادة لجمیع المسلمين على اختلاف العصور بأنهم حق ، وأن اتباعهم واجب .

ذلك ؛ لأن محمداً جاء مصدقاً لجمیع من سبقوه من النبيين ، ومجدداً لتعاليمهم ، ومنصفاً لهم من الأتباع الغالين والجائزين ، ورافعاً لذكرهم في الآخرين كما ارتفع في الأولين .

ومعنى أشهد أن محمداً رسول الله : أتعهد بأن أتخذ من حياته الأسوة الحسنة وأن أستمسك بالسنة التي رسمها ، وأستظل باللواء الذي نصبه .

ولك أن تسأل : من أين هذا التعهد؟ والجواب :

أن سر العظمة في حياة محمد يرجع إلى أنه إنسان كامل ، بلغ ذروة الارتفاع البشري عن طريق العبودية الصحيحة لله .

فهو لم يزعم يوماً أن الله حل فيه ، أو أن بيته وبين الله نسباً يخلع عنه وصفاً من أوصاف البشرية المعتادة ، كلا ، إنه واحد من الناس تخيرته العناية العليا ليبلغ عن الله ، ولن يكون رائداً يتقدم صفوف التائبين إلى ربهم .

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ (الكهف : ١١٠)

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ (هود : ١١٢)

كان رجلاً سوي المشاعر قوى العضلات لم تشنْ بدنـه عـاهـة أو عـلـة .

تصاله هذه العافية بأقطار الحياة الصحيحة دون عقد نفسية .
وكان زوجاً وأباً وتأجراً وفارساً ، وكان يتعرض للغنى والفقر ، والنصر والهزيمة ،
والحزن والسرور ، والرضا والغضب .

ومع هذه البشرية التي يشركه فيها سائر الخلق فقد انتظم سره وعلمه في خشوع
 وجهاد وتفان في ذات الله ، جعله يتحدث عن نفسه صادقاً مصدوقاً فيقول : «أنا
أتقاكم وأعلمكم بالله» .

من هنا تجيء الأسوة .

من بشر مثلنا أحرز الكمال الإنساني على عنت الظروف وقوة البيئة يتعلم
الناس ويتعظون ، وفي هذا يقول الكتاب العزيز :

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيْ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٩٣) وَمَا مَنَّ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ
جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٩٤) ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ
يَمْشُونَ مُطْمَئِنِينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ (الإسراء : ٩٣ - ٩٥) .

أجل ؛ لأن سكان الأرض بشر تعمل في كيانهم غرائز البدن ورغائب النفس ،
ويتعرضون في حياتهم لمشاعر الضيق والفرج ، والشدة والرخاء ، والكدر والراحة ،
والتجمع والشتات ... إلخ ، ناسب أن يجيئهمنبي منهم يتعرض لمثل ما
يتعرضون ، ويواجه ما يعرض له بأحسن تصرف وأشرف سلوك .

من هنا تكون الأسوة ، من خطوات هذا الرسول الإنساني في مرضاته اللهم
والوقوف في ساحتها وابتلاء وجهه تكون السنة التي يجب أن تتبع «فمن رحب عن
سنن فليس مني» .

وكلمة التوحيد تقتعد مكان القيادة في حياة الرجل المسلم والمجتمع المسلم ،
وعليها المدار في فنون الطاعات التي حفل بها الإسلام .

ولما كان الإسلام هو الخصوص التام لله فربما يظن لأول وهلة أن المسلم لا ينبغي أن
يرتكب مخالفة ، ولا أن يقع في معصية . إِذَا العصيان ينافي الخصوص .

الخطيئة في حياة البشر

وهذا المعنى يحتاج إلى إيضاح ينفي التناقض بين منطق الخضوع الواجب لله ، وما تنزلق إليه طباع الأناسى من أخطاء وخطايا . . .

هناك أغلاط تقع دون أن تتوجه إليها الإرادة اتجاهًا بينًا ، بل تقاد تقع دون إرادة .

خذ مثلاً عمل الطياع في جمع الحروف والكلمات ، إن الكتاب لا يتم طبعه إلا بعد أن تمر كل صفحة بعدة تجارب ، ترى الأخطاء في التجربة الأولى كثيرة ، ثم تقل أو تنعدم فيما بعدها من تجارب .

إن العامل يود من أول مرة أن يكون جهده سليماً من كل عيب ، وهو بإرادته وبصره وأصابعه يجمع الحروف والكلمات على أساس تحري الصواب ، ومع ذلك يقع في الخطأ برغمه ؛ لأن قصور قواه يغلبه .

خذ مثلاً عمل الخياط : إنك تذهب إليه بالقماش ليصنع لك بدلة ملائمة ، وهو يجتهد أن يفصل أجزاء الثوب على بدنك بحيث يصنع منه حالة وسيمة ، ومع ذلك فقد يقع من الطول والقصر والسعة والضيق ما يجعله يعيد التجربة على بدنك مرة حتى يصل إلى ما يبغى .

إن هذه الأخطاء أثر العجز البشري في بلوغ الكمال من أول سعي والخطأ هنا يتولد من تلقاء نفسه تقربياً ، لا أثر فيه لرغبة أو تعمد .

والواقع أن المسلم لا يطيق عصيان الله ، ولا يرضي به ، ولا يبقى عليه إن وقع فيه ؛ بل إن ما يعقب المعصية في نفسه من غضاضة وندامة يجعل عروضها له شبه مصيبة ، فهي تجلى غالباً ، غفلة عقل ، أو كلال عزم أو مبالغة شهوة وهو في توقيره لله ، وحرصه على طاعته يرى ما حدث منه منكراً يجب استئصاله إنه كالفلاح الذي يزرع الأرض فيرى «الدنيبة» ظهرت فيه ، فهو يجتهد في تنقية حقله قدر الاستطاعة من هذا الدخل الكريه .

ولو بقى المسلم طول حياته ينقى عمله من هذه الأخطاء التي تهاجمه ، أو من

هذه الخطايا التي يقع فيها ، ما خلعه ذلك من رقة الإسلام ، ولا حرمه من غفران الله . ولعل ذلك هو المقصود من الحديث القدسى .

«يا ابن آدم إنك ما دعوتني ، ورجوتني ، غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي .

يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ، ولا أبالي .

يا ابن آدم لو أتيتني بقرب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقربها مغفرة»^(١) .

وبعض السفهاء يأتي لهذا الحديث وأشباهه فيظنه إذا عاما بالعصيان .

وهذا الفتن من انطمام البصائر ، وأهله أبعد الناس عن المغفرة .

إن المعصية شيء خطير ، واتجاه الإرادة إليها زلزال يصيب الإيمان ، أو ضباب يغطي معرفة المسلم لربه .

يصاحب هذا العمى انفلات من قيد الخضوع ومن مبدأ السمع والطاعة .

من أجل ذلك قال رسول الله ﷺ : «لا يزني الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»^(٢) .

وهذا الانتقاء المؤقت للإيمان ، أو لثره - وهو طاعة الله وتقواه له عواقبه المخوفة ، ترى أيعود كاملاً أو يعود مثلوماً؟ .

فإذا استمرا العاصي المرعى فهل لهذا الإيمان المنفى من عودة؟ مع أنه مطارد باستدامة العصيان! .

ونحن - بطول التأمل واستقراء التجارب - لا نستطيع فك المعصية عن الحالات النفسية المصاحبة لها ، وعن الظروف الخارجية الواقعة فيها .

في هذه الأحوال والظروف فيصل التفرقة بين ألوان الخروج على الدين ، فهناك اللهم المرتجى له العفو ، وهناك الإهمال الذى يستحق اللوم ، وهناك التفريط أو الانحلال اللذان يستوجبان العقوبة .

ووهناك أخيراً المروق الذى يحكم على صاحبه بالارتداد ، والتفضى عن رقة الإسلام .

(٢) البخارى .

(١) الترمذى .

فشرب الخمر مثلاً جريمة ، ولها حد تواضع المسلمين على إقامته .
وربما رأيت بعض واهنى العزيمة من المدمنين الذين ألفوا الخمر في جاھلیتهم لا
يحسنون اجتنابها فيقعون فيها على خزي ! وكان الحد قد يقام على أحدهم
فيتحمله راضيا !!

مثل هذا الجرم لا نستطيع عده مرتدًا عن الإسلام إنّه مسلم مخطئ وحسب ! .
ولكن هناك من يفتح معصراً لتقدير الخمور ، أو حانة لبيعها ، وهو يعلن عن
تضائعيه ؛ ويغرس بتناولها ؛ ويجهد في ترويجها هنا وهناك ؛ ويقيم حياته على
مكاسبه من هذا التجار الخبيث .

هذا الصنف لا يمكننا بأية حال من عده مسلماً ؛ لقد كفر بلا ريب ؛ وابت
رباطه بالإسلام ! .

لماذا ؟ لأن السكير الأول رجل وفت إرادته في الخير ؛ أما السكير الثاني فهو
رجل قويت إرادته في الشر .

فالبُؤُونُ بينهما بعيد ؛ بعد الخضوع المضطرب عن التمرد العاتي .

ونية الخضوع لا تخرج صاحبها عن معنى الإسلام ، أما نية التمرد ؛ والإصرار
على رفض الطاعة فلا يمكن بتة أن تسمى إسلاماً ، بل إن ذلك عادة يصاحبها
استباحة الحرام . وجحد الواجب . وهما كفر باتفاق المسلمين .

وفي أمثال هؤلاء المصريين المتمردين تساق آيات التخليد في العذاب التي
تهددت بعض العصاة :

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ (الجن : ٢٣) .

وهناك مثلاً آخر : إن القاضي قد يميل عن الحق لشفاعة بعض ذوي الجاه وقد
يميل عن الحق لهوى غالب عليه وجعله يحابي أحد الخصوم .

هذه معصية بلا ريب تستحق الويل والثبور ؛ وهي حكم بغير ما أنزل الله يعرض
صاحبها لأشد العذاب ؛ ولكن هل ذلك كفر بالله وارتداد عن الملة ؟

أو بتعبير آخر هل يسوى هذا الآثم بصنف آخر من الناس يرى الحكم بما أنزل
الله بقية من مخلفات الماضي التي لا تستحق البقاء ، ويستبدل بها قانوناً آخر يبيح
ما حرم الله ويقترح عقوبات أفضل في نظره مما شرعت السماء من حدود
وقصاصات ؟! ويدرس ذلك ويدعو إليه ويوسع دائرة جهد الطاقة !!

إن العاصي الأول شخص طاش به نقع عاجل ، أو غلبته شهوة جارفة فحادث
به عن طريق الواجب الذي يعرفه ويعرف به .

أما الآخر فهو يدع أمر الله رغبة عنه واتهاما له ، ويرى أن يتقدم بين يدي الله
ورسوله بأحسن مما أوحى الله وبلغ الرسول .

هذا إن كان في نفسه إقرار بأن النبوة حق ؛ وأن الله قائم بين عباده بالقسط .

إن الفارق بعيد جدا بين معصية تتم في الظلام ؛ ومعصية تقع في وضح النهار .

بين معصية يكون العقل فيها غافيا ، ومعصية تتم مع يقظة الفكر وإعمال الرأي .

بين معصية تتشى في الأرض على استحياء ومعصية تتبعج كأنها فضيلة .

إن عزيمة تتعثر في طريق الخير غير عزيمة استحكمت في طريق الشر .

ويستحيل أن ينسب إلى الإسلام فرد أو مجتمع من ذلك النوع الفاجر
بعصيائه ، السافر باعتداء على حدود الله ، وإطراح فرائضه ، واستبقاء محارمه .

إن الدين - كما أوضحتنا - إيمان بأن الله حق ، وإقرار بأن شرائعه واجبة النفاذ ،
والسجود لها بالقلب والجوارح .

فمن استعلن بسلوك مضاد لما أمر الله به ونهى عنه ، واجتهد كى يرسى قواعد
الشر مشاقا لله ورسوله فهو فاسق كفور ، ومن البلاهة وصفه بالإيمان .

﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا
فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلُّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ
الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾٢٠﴾ (السجدة : ١٨ - ٢٠) .

والضابط الذي يطرد حكمه في كل شيء ، والذى لا نقلق في السير معه هو أنه
حيث يرى أثر الخضوع لله ، والانقياد لأمره فالإسلام موجود . وإنما فلا إسلام .

أجل لا إسلام حيث تجحد الفرائض ، وتقوت الشرائع ، ويسود الهوى ويضيع
هدى السماء .

دائرة الخضوع لله

وقد شرع الله جملة فرائض تعد - مع شهادة التوحيد - أركان الإسلام .
والحكمة من إقامة هذه الأركان تدريب الناس على طاعة الله وإحسان الخضوع
له والبعد عن الرذائل التي زجر عنها .

ولهذه الأركان آثار نفسية واجتماعية بعيدة المدى لا مجال هنا لشرحها .
 وإنما الذي نسأع بتوضيحه أن من أداءها ولم يستفد منها الخضوع الواجب لله في
كل شيء ، فكأنه ما أدى شيئا ، مهما استكثر من هذا الأداء .
ما قيمة صلاة أو صيام لا يعلمان الإنسان نظافة الضمير والجوارح؟

عن ثوبان - خادم رسول الله - عن النبي ﷺ أنه قال : «الأعلمون أقواماً من أمتي
يأتون يوم القيمة بأعمال أمثال جبال تهامة . بيساء ، فيجعلها الله هباء منثورا !! قال
ثوبان يا رسول الله ، صفهم لنا ، حلهم لنا لا نكون منهم ونحن لا نعلم . قال : أما هم إخوانكم ،
ومن جلدكم ، ويأخذون من الليل كما تأخذون ، ولكنهم قوم إذا خلوا بمحارم الله
انتهكواها»^(١) .

هؤلاء - كما ترى - يؤدون الأركان الظاهرة ، غير أنهم لا يستفيدون منها الخشوع
المطلوب ، ولا تخلق فيهم الضمير الصاحي المراقب لله في السر والعلن ، ولا تكون
في نفوسهم روح الخضوع المطلق تجاه كل ما نهى الله عنه ، وما أمر به .
لهذا لم تحسب لهم مع أنها تبلغ الجبال ! .

وما نحب أن نرسل كلاما يغض ظاهره من شأن العبادات المفروضة من صلاة
وصيام ، فإن هذه العبادات حركة حقيقة في صقل الإنسان وترويضه على الخضوع
للله في سلوكه كله .

ولكننا نلفت الأنظار إلى الفروق الطبيعية بين الحركات الحقيقة والحركات التمثيلية !
إذا قلت : إنك بنيت دارا في فضاء ما من الأرض ، فلكي تكون صادقا يجب أن

(١) ابن ماجه .

يرى الراءون هذه الدار رأى العين ، وإذا قلت إنك غسلت هذا الثوب من أوساخه فيجب لتكوين صادقاً أن ينشر هذا الثوب على الملا ، فلا يبين به أثر قذر . وأركان الإسلام عمل حقيقي لبناء النفوس على الخير ، وصياغتها على نحو متربع يتزه عن الدنيا ويبتعد عن الرذائل .

وقول الله تعالى : ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَهْبَى عَنِ الْفُحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (العنكبوت : ٤٥) .

خبر حق .

فإذا رأيت مصلينا لا ينتهي عنها ، فالسبب لا يعود إلى ريبة في الخبر الإلهي ، بل السبب أن الرجل يمثل حركات صلاة وليس مصلينا حقيقيا .

وقول رسول الله ﷺ : «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»^(١) خبر حق .

ويعناه أن الصيام يعفى على آثار الماضي السيئ ، ويسمح أكداره عن مرآة القلب فتعود مجلوة نقية ثم يستأنف الصائم بعد خلاصه من أدران ماضيه حياة تكاد تلتحق بالملأ الأعلى . . .

فإذا رأيت صائماً معتكر النفس غائم الصفحة ، فاعلم أنه مثل فحسب يتشبه بالصوم في ترك الأكل حيناً ، ليغرق فيه بعد .

إن العبادات التي تكون أركان الإسلام ، أو التي تصور جمهرة شرائعه رياضة جليلة الآثار في تربية الأخلاق وتقويم الطياع . وهذا بعض ما ينشأ عنها .

أما الأساس الأول لشرعها فهو أداء حق الله ، والقيام بوظيفة العبودية واعتراف البشر بأن الله الذي خلقهم ورزقهم يجب أن يعبد ويشكر .

إن أغلب الناس في هذا العصر المادي يحسبون الحياة لا تعددوا الخمسين أو الستين سنة التي يقضونها على ظهر هذه الأرض يقضونها وهم في عمالة من أمرهم لا يدركون من أين جاءوا ولا إلى أين يصيرون ، يقضونها وهم يصطخرون في طلب القوت ورفع مستوى المعيشة ، ظانين أن رسالة البشرية محبوسة داخل هذه الحدود وحسب .

(١) البخاري .

والذين يعرفون الله لا ينظرون إلى الحياة هذه النظرة الصغيرة .
إنهم يرونها قنطرة لحياة أخرى عنده وبينون سلوكهم في هذه الحياة الأولى على
تحري رضاه ، وإقامة هداه .

وهم لذلك يعدون «العبادة» شيئاً يقصد لذاته ، ويوثقون صلتهم بالله لأن الله
أول من ينبغي توثيق الصلة به ، إجلالاً لألوهيته ، وإقراراً بفضله ، وابتغاءً لثوابه ،
واتقاء لعقابه . . .

إن شهادة التوحيد وهي الركن الأول في الإسلام إسهام من البشر في إعلان
تنزيه الله ، هذا الإعلان الذي تجاوب به مواد الكون علواً وسفلاً ﴿وَإِنْ مَنْ شَيْءٌ
إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء: ٤٤) .
واسم الله أحق اسم بالهتف والتقديس والدعاء والتمجيد .

فإذا زمت الشفاه دون النطق بهذه الشهادة الواجبة ، وإذا صرف الناس عن
الاعتراف بهذه العظمة السائدة ، فأين يذهبون؟ وكيف يعيشون؟
﴿أَفَغَيْرِ دِينِ اللَّهِ يَعْبُدُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ
يُرْجَعُونَ﴾ (آل عمران: ٨٣) .

إننا نطلب من الناس أن يهتموا بهذه الوظيفة التي خلقوا لها ، وظيفة عبادة الله
واستشعار نعمائه والاستعداد للقاءه ، والفرز إلى طوله ، ومد اليد إلى عطائه .
ولن يبارك للعالم في يومه وغده إلا إذا استقام على هذا المنهج . . .

والله جل وعز لن يمنع الناس فضلها ما بقيت أكفهم ممدودة إليه ، فإن أبويا إلا
النسوان فيسcren عليهم القلق والعنق ولن يصرروه شيئاً ، إنهم أحوج ما يكونون إليه
وهو غنى عنهم أبداً .

عن أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ : أنه قال : يقول الله عز وجل :
«يا بنى آدم كلكم مذنب إلا من عافيت فاستغفروني أغفر لكم .
وكلكم فقير إلا من أغنتك فاسألوني أعطكم .
وكلكم ضال إلا من هديت فاسألوني الهدى أهدكم .
ومن استغفرني - وهو يعلم أنى ذو قدرة على أن أغفر له - غفرت له ولا أبالى .



ولو أن أولكم وأخركم وحيكم وميتكم ورطبكم وباسكم اجتمعوا على قلب
أشقى رجل واحد منكم ما نقص ذلك من سلطانى مثل جناح بعوضة .
ولو أن أولكم وأخركم وحيكم وميتكم ورطبكم وباسكم اجتمعوا على أتقى
قلب رجل واحد منكم ما زادوا فى سلطانى مثل جناح بعوضة .
ولو أن أولكم وأخركم وحيكم وميتكم ورطبكم سألونى حتى تنتهى مسألة
كل واحد منهم فأعطيتهم ما سألونى ما نقص ذلك مما عندي كمغرز إبرة لو
غمسها أحدكم فى البحر .
وذلك أنى جoad واجد ماجد ، عطائى كلام وعدابى كلام .
إنما أمرى لشىء إذا أردته أن أقول له : كن فيكون»^(١) .

وأركان الإسلام لم تشرع لشخص واحد يقيمه إذا شاء ويهملها إذا شاء .
بل شرعت لأمة من الناس تحيا عليها ، وتتوachi بنصرتها ، وتستبطن الولاء
لها ، وتغرس فى أرجاء الجماعة شاراتها وشعائرها ، ويتوارث الأخلاف ذلك كله
عن الأسلاف .

خذ مثلا الصلاة - وهى فى لبابها مناجاة عبد لربه - إن الإسلام لم يشرعها
عملا فرديا ، بل نظاما جماعيا تترافق الصفوف له وتشرف الدولة عليه !!
نعم فالتعبير المختار فى الكتاب والسنّة لأداء الصلاة هو إقامة الصلاة .

ولم يقل : صلوا ، أو ائتوا الصلاة ، أو افعلو الصلاة ، بل أقيموا الصلاة ! وفي
تفسير قوله تعالى : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾
(البقرة : ٣ ، ٢)

قال العلماء : يؤدونها فى جماعة ! لماذا ؟ لقوله ﷺ : «سووا صفوفكم فإن تسوية
الصفوف من إقامة الصلاة»^(٢) .

والواقع أن التجمع للصلوة جزء من إقامتها ، والإقامة الكاملة تكون بتنظيم
الإقبال عليها ، وإشعار البيئة كلها بالمبادرة إليها ، والمحافظة على أوقاتها ، واحترام
ركوعها وسجودها وقراءاتها وتسبيحها واستحياء معانيها بعد انقضائها .

(١) البخارى .

(٢) مسلم .

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ (النساء : ١٠٣)
إن الدين ينشد أن يكون الخضوع لله ظاهرة اجتماعية عامة لا مسلكا فرديا خاصا .

وإقامة الصلاة من أبرز الأعمال لدعم هذه الغاية ودوام تحقّقها ، وفي سبيل ذلك أعدت المساجد لاستقبال النساء والأولاد والرجال كى ينتظموا صفوفا وراء إمام يتلو القرآن ويكبر الرحمن .

وقبل كل صلاة يشق صوت المؤذن حجاب الصمت السائد ، أو يعلو صخب الحياة المعتادة مهيبا بالناس أن يدعوا ما يباشرون من أعمال ويستعدوا للمثول بين يدي الله .

إن هذا الأذان العالى المتكرر المتصل مع اختلاف الليل والنهار ، شعار أى شعار لكل مجتمع مسلم .

وعند اندلاع فتنة الردة أيام الخليفة الأول ، كانت الوصاة للمجاهدين أن يتسمعوا بالأذان فى أوقات الصلاة ، فإذا حملت إليهم الريح أصوات التكبير عرفوا أنهم بإزاء جماعة مؤمنة ، وإذا استمر الصمت ، ولم يرتفع النداء بذكر الله ، عرفوا أنهم أمام قوم مرتدین ، فاستعدوا للقتال . . .

وإنى لأعجب أشد العجب لأقوم يضيقون اليوم بإذاعة أذان الفجر من مكبرات الصوت .

لقد جاءنى - وأنا مدير للمساجد - من يعلنون تأذيهم لذلك ، محتاجين بإزعاج المرضى أو التعكير على الهاجعين ، لا أغمض اللهم لهم جفنا .

وترددت شكايات هؤلاء على السنة صحافيين ما يعرف أحدthem الفرق بين طهارة وجناة ، وصدرت الأوامر ألا يذاع من مكبرات الصوت أذان الفجر كى تبقى القاهرة نائمة لا يعكر صفوها ذكر الله !!

إن هذا بلا ريب أثر الجاهلية التى حملها الغرب إلينا ، ولقن ألفا مؤلفة من الناس تعاليمها . . .

والإسلام شىء غير هذا ، إنه يصفى على أرجاء أمته روح الخضوع لله ويجعل

من رسالتها الإنسانية الكبرى - إذا مكنت في الأرض - أن تشرب الجماهير عاطفة الحب للمسجد وإلف النداء المنبعث منه .

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمْرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (الحج : ٤١) .

أى إن من عمل الحكومة الإسلامية أن تحافظ على الأمانة مثلًا برجال الشرطة ، وأن تحافظ على الإيمان بإقامة الصلاة ، وأن ترفع المستوى الاقتصادي بشتى المشروعات والجهود ، وأن ترفع المستوى الروحي مع ذلك ، وقبله ، وبعده ، بمختلف وسائل الإعلام التي تملكتها .

ولا يحسبن غافل أن الإسلام يتسلل بالحكم لإكراه مخالفيه على الدخول فيه وإقامة شعائره ، كلا ، فليس في ديننا إكراه .

لقد قال العلماء : إن الزوج المسلم يرسل زوجته إلى الكنيسة يوم الأحد إذا كانت نصرانية ، فلها دينها ولها دينه !!

إنما المراد أن تقوم الدولة في الإسلام بواجبها في رعاية حقوق الله ، كما فعلتها الكتاب والسنّة بوصفها ممثلة لجمهور المسلمين ، وحارسة على مثلهم الأعلى .

إن شرائع الإسلام كثيرة ، والأركان الخمسة المذكورة هنا هي بعض الإسلام لا كله . والمهم أن الإسلام خضع تمامًا لكل صغيرة وكبيرة وجاء بها الوحي .

ولن يتم إسلام المرء إلا إذا قال من أعماق قلبه بإذاء كل ما أوصى الله به

﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة : ٢٨٥) .

ما الإحسان؟

عند صدق الإيمان وقام الإسلام بجحىء الإحسان نتيجة لازمة لهما قال
تبارك وتعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَخْسَنَ
عَمَلاً﴾ (الكهف : ٣٠)

لقد علمت أن الإيمان حسن معرفة لله وثقة نامية فيه ، وأن الإسلام استجابة مطلقة لتعاليمه ، وتحرر دقيق لرضاه ، فإذا تجمعت هذه العناصر ، وجرت فيها مشاعر اليقين ، وأينعت فيها صوالح الأعمال ، فإن المرء يكون لا محالة محسنا ..
والحديث الذي بين أيدينا عرف الإحسان ... أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

ورؤية وجه الله في العمل هي الباعث على إجادته والحادي على إتقانه ، وهي ليست تخيلا لقوة موهومة ، بل هي شعور بالوجود القائم ، وإدراك لحقه .

فإذا لم يبلغ المرء هذه المرتبة من الحس فلن ينزل عن المرتبة الأخرى ، وهي الشعور بإشراف الله ورقابته عليه وعلى كل شيء حوله .
ونريد أن نقف عند هذه الكلمة «أن تعبد الله ...» .

إن العبادة تشمل نوعين من الأعمال :

الأول : الفروض العينية التي لا يخلو منها مكلف . وهي فروض تنتظم الناس فردا فردا ، ويعتبر كل أحد مسؤولا برأسه عن أدائه .

الآخر : الفروض التي يسأل المجتمع بجملته عنها ، ويكلف بتوفيرها في نطاقه العام ، ويعد أفراده قاطبة مقصرين ملومين إذا خلا المجتمع منها ، وهذا ما يسمى في اصطلاح الفقهاء بالفروض الكفائية .

والفروض العينية تتصل بالخصائص المادية والأدبية التي يتساوى البشر في أصلها فما من إنسان على ظهر الأرض يمكن أن تسقط عنه الصلاة أو يمكن أن يباح له الزنى .

إن هذه الفروض تستهدف تزكية كل نفس ، فما تصلح أى نفس إلا بها ومن هنا كان وجوبها عينيا .

أما الفروض الكفائية فهى تتصل ابتداء بالملكات والمواهب التى يتفاوت الأفراد فيها ، وتحتفل ميولهم إليها اختلافاً بيناً ، ومع ذلك فإن المجتمع يقوم على أداء كل فرد لما يحسن منها . . .

لو أن الناس كلهم فلا حون فمن يتاجر؟ ولو كانوا جميعاً صناعاً فمن يزرع؟ إن إيجاب عمل بعينه على فرد بعينه شيء متعدّر ، وإنما تفرق الأعمال عليهم وفق رغباتهم ويرشحهم استعدادهم له .

وهذا التوزيع يقوم المجتمع به تلقائياً ، لضمان مصالحة كلها ، فإذا وقع خلل في ذلك كان مسؤولاً عن تلافيه .

وربما سأّل سائل . وما علاقة هذه الأعمال العادلة بالدين؟

والجواب أنها من صميم العبادات ، وأنها حقاً فروض كفايات ، وأن الهندسة ، والطب والفلاحة ، والصناعة ، ومختلف الحرف وأسباب العمران من أركان الإسلام ، وأنها تدخل دخولاً محتوماً في دائرة الإحسان التي تناولها الحديث الشريف بهذه العبارة الموجزة : «أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» .

وذلك لأن الإنسان - وهو محور النشاط الديني وموضع التكاليف السماوية - لا تستقر له حياة ، ولا يستقيم له وجود إلا إذا كفلت له معيشته وتعاونت ظروف البيئة على ضمانها .

أى إنه يوجد ويستقر أولاً ثم تلاحقه الواجبات بعد ذلك .

وهذا الوجود منوط بالكدر سحابة النهار والاستعداد له - بالراحة - أثناء الليل قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ (يونس: ٦٧)

وقال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ (النَّبِيٌّ : ١١، ١٠)

إن تعاقب الليل والنهار مجال النشاط العمري الذي تقوم به الحياة الدنيا ، وهو كذلك مجال النشاط الديني الذي يعرف به الله ، وتكتفى به الحياة الأخرى ، قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ (الفرقان: ٦٢)

فلا بد للإنسان من أن يعمل عملاً ما ، عملاً ترشحه له ملائكته وخصائصه
ويلزم المجتمع الذي يعيش فيه بأن يقوم به .

وفي شبكة الأعمال المنشورة على هذا وذاك ، يسرى تيار الحياة العامة قوياً ،
ويتوزع على الأفراد ما يصون معاشهم ، ولن يستطيع أحدهم صلاة وصياماً إلا إذا
تحقق هذا المعاش الحتم ، ففرض العين لا توجد إلا بعد أن تتحقق فرض
الكافية !!

وربما استطاعت أمة من الأمم أن تحيا على نحو بدائي ييسر الكفاف لبنيها ويجعل
ما يقيم أودهم شيئاً ضئيلاً لا يتطلب إلا أدنى الجهد ، وبذلك يكون كفاحهم
العمري ضيق الدائرة ، ينصرفون بعده إلى الفرض العينية من صلاة وصيام .

وإذا كان ذلك عسير التصور في حياة الجماعات فهو سهل التصوير في حياة
الأفراد .

الإحسان فريضة مكتوبة على كل شيء

وهذا كلام يحتاج إلى فضل بيان ، نعم ، يقدر أحد الناس على تناول أقراص من الخبز ، وارتداء ألبسة من الخيش ، والانزواء بعد ذلك في مكان خرب أو عامر يعبد الله كما يرى .

والبيئة التي يوجد فيها هذا الصنف من الناس ربما لا تتطلب أكثر من رحى للطحن ، ومغزل للنسيج ، وعدد من الأشغال التافهة هي التي تمثل «فرض الكفاية» في مجتمع ساذج .

لكن الإسلام لا يصلح في هذه البيئة ، ولا تعاونه أدواتها على السير ، ولا على مجرد البقاء .

لو كان الإسلام رهبانية صوامع ربما انزوى في جانب منها واكتفى بأى لون من العيش ، ولكنه دين يبغى الاستيلاء على الحياة ، وإقامة عوجها ومحاربة طواغيها . وعدها الجهد تتطلب أبداً موصولة من النشاط والخبرة والتضليل في علوم الحياة والتمكن من أشتات الحرف .

أى إن المجتمع الإسلامي لا بد أن تزدهر فيه جميع الفنون والصناعات التي تشيع بين أجيال البشر في أرجاء الأرض كافة .

وينبغي أن تبلغ براعة المسلمين في هذه الميادين حد التفوق . فإذا قورن بهم غيرهم في النواحي المدنية والعسكرية كانوا أرجح كفة وأهدى سبيلاً .
وإتقان هذه الأمور في طليعة درجة الإحسان التي شرحها الحديث . . .

تصور مثلاً أن المسلمين متخلدون في صناعة الدواء ، وأنهم في هذا عالة على غيرهم من الأمم الشيوعية والصلبية ! أتظنهم بهذا التخلف يسلدون إلى دينهم أو إلى أنفسهم جميلاً ؟

أم أنهم بهذا التخلف يهزمون مبادئهم ومثلهم العليا في أول معركة مع عدوهم ؟

تصور أنهم متخلدون في فن الطباعة ، أتراهم يستطيعون السيطرة على وسائل النشر وإبراز الحقائق وإغراء ألوف القراء بطالعتها والإقبال عليها ؟

إن مهنة صيدلى ، أو مهنة طباع ، فرائض على المجتمع الإسلامى كالصلاحة والصيام سواء بسواء ، غاية ما هناك من فرق أن الصلاة والصيام لا يختلف عن أدائها أحد ، أما فروض الكفاية فيختار لها من يصلح لها .

ومن لم يصلح لحرفة معينة صلح لغيرها ، وكيف بالقيام بها .

وعندما يقع الاختيار على واحد بعينه للقيام بفرضية اجتماعية أصبح مسؤولا عنها لفورة مسؤوليته عن الركوع والسجود ، وأصبح إحسانه لهنته - أى مهنة - كإحسانه للصلاة .

إن عبادة الله فى الحقل كعبادته فى المحراب ، وعبادته فى المصنع كعبادته بالسعى والطوف .

وتشبع المرء من الطعام ليقوى على الجهاد ، كتقلله من الطعام فى عبادة الصيام ، وصور الطاعات شتى ، ومكان الإحسان فيها لا يتناهى .

إن إجاده الأعمال كلها غاية من وجود الإنسان على ظهر هذه الأرض ! ﴿تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الملك: ٢) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوْكُمْ أَيُّكُمْ أَحَسَنُ عَمَلًا﴾ (الملك: ١) .

ولما كان الإنسان خليفة لله فى أرضه ، وكان تصرفه فى عناصرها أثرا من نفحة الروح الأعلى فيه ، وكانت مرتبة الإحسان المنشودة له بعض ما يربطه بنسبة السماوى العريق ، نسبة لله ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (طه: ٥٠) .

ومن هنا استحب الله له أن يتقن كل ما يصدر عنه ، وألا يخرجه من بين يديه معينا أو شائنا .

فلو ذبح حيوانا ليأكله فليكن ذلك بأدب ولطف .

رأى عمر بن الخطاب رجلا يقود شاة من رجلها ليذبحها فقال له : «ويحك ، قدّها إلى الموت قودا جميلا»^(١) .

(١) رواه عبد الرزاق .

وعن المسيب بن دار قال : رأيت عمر بن الخطاب ضرب جمala وقال : لم تحمل
على بعيرك ما لا يطيق ؟
رواه ابن سعد في الطبقات .

وعن عاصم بن عبيد الله بن عاصم بن عمر بن الخطاب أن رجلاً حد شفرة
وأخذ شاة ليذبحها فضربه عمر بالدرة وقال :
أتعدب الروح ؟ ألا فعلت هذا قبل أن تأخذها ^(١) ؟

وعن وهب بن كيسان أن ابن عمر رأى راعي غنم في مكان قبيح ، وقد رأى ابن
عمر مكاناً أمثل منه ، فقال ابن عمر : ويحك يا راعي حولها فإني سمعت رسول
الله يقول : «كل راع مسئول عن رعيته» ^(٢) .

ولو أنفذه القصاص في قاتل فليس القصد إزهاق روحه بأى وسيلة - وإن كان
 مجرماً - بل يجب إقامة أمر الله بنزاهة وترفع .

قال رسول الله ﷺ : «إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلت
 فأحسنتوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنتوا الذبحة ، وليجد أحدكم شفتره وليرجع
 ذبيحته» ^(٣) .

وقال : «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه» ^(٤) .
 والإتقان لا يتأتى بالادعاء والجهالة ، فإن لكل عمل أرضى أو سماوى قواعد
 يصح بها ، وتدرك بالتعلم والمران .

. (٢) أحمد .

. (٤) مسلم .

. (١) البيهقي .

. (٣) البخاري .

قوانين الإحسان وأخطاره

ولن يبلغ المرء درجة الإحسان حتى يستوعب هذه القواعد فقهاً وأداءً وحتى يرقى من طور السلامة إلى طور الإجادة والتبريز للكلام قواعد نحوية وصرفية لا يقبل إلا مع توفرها فيه .

والكلام يكون صحيحاً عندما يتفق مع هذه القواعد ، ولكن لا يوصف بأنه بيان حسن إلا إذا كان عليه من رواء البلاغة طابع جميل .

للصلوة سنن وأركان ينبغي أن يستجمعها المصلى ، فإذا تمت كانت صلاته صحيحة ، ولكنها لا تبلغ درجة الإحسان إلا إذا تألق في حركاتها وسكناتها روح الخشوع ، واطمئنان البصيرة إلى الله ، وخلوص القلب في حضرته .

قيادة السيارات لها تعاليم وشروط ، والقدرة على القيادة تشيع بين خلق كثير ، ولكن البراعة التي تدفع صاحبها إلى الأمام في ميادين السباق لا تناح إلا لنفر قليل . إن الإحسان ليس علماً عادياً ولا عملاً عادياً ، إنما هو الشأو البعيد ، الذي تبلغ الأشياء فيه تمامها ، وتزهى فيه بجودتها ونقائتها .

وال المسلم مخاطب بن Sheldon هذه المنزلة في كل ما يمس من عمل .

العادات ، والعبادات في ذوقه وفقهه سواء ، إذ العادات بمجرد اقترانها ببنية الخير تحول إلى عبادات .

ولا يفرق بين الأمرين إلا أن لهذه صوراً انفرد الشارع برسملها ، أما تلك فهي متروكة لعلم الناس وتجربتهم على مر العصور .

حدد الشارع أعداد الصلوات وهيئاتها ، ولم يحدد طرق الزراعة وأنواع المزروعات ، وجعل هذه فرض عين وتلك فرض كفاية .

ولكن هذا الاختلاف في الوصف والتحديد لا أثر له في درجة الإحسان المفروضة على كل شيء .

وغاية ما يستفاد منه أن الشارع فتح باب الابداع والانطلاق في شئون الدنيا وأتاح للبشر أن يتصرفوا فيه كيف شاءوا .
أما شئون العبادات فهي مجمدة على صورها المأثورة لا مجال فيها للتحوير أو تطوير . وذاك خير .

ومجموعة الأعمال التي يتحرك بها جهاز الأمة في كل مجال ، تختار لها الموابح الصالحة ويعد لها الأكفاء من كل بيئة ، وذلك لضمان الإحسان المكتوب على كل شيء . ويرى الإمام الشاطبى أن ذلك يتطلب مرحلتين : التعليم العام ، ثم الإعداد الخاص .

قال^(١) : « .. وذلك أن الله عز وجل خلق الخلق غير عالمين بوجوه مصالحهم ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ! ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ (النحل : ٧٨) .

ثم وضع فيهم العلم بذلك على التدريب والتربية ، تارة بالإلهام كما يلهم الطفل التقام الثدي ومصبه ، وتارة بالعلم ، فطلب من الناس أن يتعلموا جميع ما تستجلب به المصالح ، وكافية ما تدرأ به المفاسد ، إنهاضا لما جبل فيهم من غرائز فطرية ومطالب إلهامية .

لأن ذلك كالأصل للقيام بتفاصيل المصالح - الكافلة لحياتهم - سواء كانت من قبيل الأفعال ، أو الأقوال ، أو العلوم ، أو الاعتقادات ، أو الأدب الشرعية والعادمة . وفي أثناء العناية بالأجيال الناشئة ، وتنمية مواهبها الفطرية يقوى في كل واحد من الخلق ما امتاز به ، ويبرز فيه على أقرانه الذين لم تهيئهم الأقدار على غراره ، فلا يأتي زمان التعقل حتى ينضج فيه ما اختص به من ملكات ، فهذا يطلب العلوم ، وهذا يعشق الأدب ، وهذا يتوجه لبعض المهن ، وهذا يهوى الرياضة والفروسية ، وهذا يحب الكفاح والجلاad ، وهذا ينشد التقدم والرياسة . . . إلخ .

وإذا كان كل واحد قد غررت فيه القدرة على التصرف العام ، والفهم لقدر مشترك من شتى المعارف إلا أن العادة جرت بغلبة بعض الميول الأدبية والمادية

(١) لم نستطع النقل الحرفي لما كتبه الشاطبى ، وذلك لغلبة التعبيرات العلمية والاصطلاحات الفنية على الأسلوب ، ويمكن الرجوع للموافقات ، جزء أول ، ص ١٧٩ .

عليه ، فتكون التربية الصحيحة تتبع هذه الميول بالإنماء والرعاية ، ثم توزيع الأعمال على المكلفين بما يوائم طبائعهم ، وعندئذ ينهض كل مكلف بأداء ما هو راغب فيه محسن له » .

وبعد أن شرح الشاطبى النظام الدراسى الذى يقترحه للطلاب وفق خصائصهم النفسية قال : « وهكذا يكون الترتيب مع من ظهرت عليه صفات الإقدام والشجاعة وتدبير الأمور فإنه يمال بهذا الصنف إلى ما يرغب ، ويعلم آدابه المشتركة ، ثم يختار له الأولى فالأولى من صنائع التدبیر كالعرفة أو النقابة أو الجنديّة أو الهدایة أو الإمامة أو غير ذلك مما يليق به ، وما ظفرت له فيه نجابة ونهضة .

وبذلك يتربى لكل عمل - هو فرض كفاية - قوم يؤدونه .

وطريق المعرفة الطويل يبدأ بمرحلة مشتركة - حيث يقف السائر ، ويعجز عن المسير - فقد وقف عند مرتبة من الثقافة تحتاج إليها الأمة في الجملة ، وإن كانت به قوة ، ومضى في السير حتى وصل إلى أقصى الغايات فإنه سيحرز من الكفاية ما يرشحه لأداء فروض كفائية أخرى رفيعة القدر في شئون الدين والدنيا .

قال الشاطبى - ونلتزم هنا النص الحرفي - : فأنت ترى أن الترقى في طلب الكفاية ليس على ترتيب واحد ، ولا هو على الكافية بإطلاق ، أو على البعض بإطلاق ، ولا هو مطلوب من حيث المقاصد دون الوسائل أو العكس ، بل لا يصح أن ينظر فيه بنظر واحد ... حتى يفصل بنحو من التفصيل ، ويوزع في أهل الإسلام في مثل هذا التوزيع ، وإلا لم ينضبط القول فيه بوجه من الوجوه ، والله أعلم وأحكم .

وقريب من كلام الشاطبى في توزيع الأعمال على من يحسنونها وفق استعدادهم النفسي والعقلى ما قاله ابن القيم في تغاير التكاليف والواجبات بالنسبة إلى ميول الأشخاص ومواهبهم .

قال : « فالغنى الذي بلغ له مال كثير ونفسه لا تسمح بذلك شيء منه ، فصدقته وإيثاره أفضل له من قيام الليل وصوم النهار نافلة .

والشجاع الشديد الذي يهاب العدو سطوطه : وقوفه في الصف ساعة ، وجهاده أداء الله أفضل من الحج والصوم والصدقة والتطوع .

والعالم الذي قد عرف السنة ، والحلال والحرام ، وطرق الخير والشر : مخالطته

للناس وتعليمهم ونصحهم فى دينهم أفضل من اعتزاله وتفریغ وقته للصلوة وقراءة القرآن والتسبيح .

ولى الأمر الذى قد نصبه الله للحكم بين عباده ، جلوسه ساعة للنظر فى المظالم ، وإنصاف المظلوم من الطالم ، وإقامة الحدود ، ونصر الحق ، وقمع المبطل أفضل من عبادة سنين من غيره .

ومن غلت عليه شهوة النساء ، فصومه له أنسع وأفضل من ذكر غيره وصدقته .
وتأمل تولية النبي ﷺ لعمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد ، وغيرهما من أمرائه وعماله ، وترك تولية أبي ذر ، بل قال له : إنى أراك ضعيفا ، وإنى أحب لك ما أحب لنفسي ، لا تؤمن على اثنين ولا تولين مال يتيم .
وأمره وغيره بالصيام ، وقال : عليك بالصوم فإنه لا عدل له .
وأمر آخر بأن لا يغضب .

وأمر ثالثا بأن لا يزال لسانه رطبا من ذكر الله .

ومتى أراد الله بالعبد كمالا وفقه لاستفراغ وسعه فيما هو مستعد له قابل له قد هىء له ، فإذا استفرغ وسعه بز على غيره وفاق الناس فيه كما قيل :
ما زال يسبق حتى قال حاسده هذا طريق إلى العلياء مختصر
وهذا كالمريض الذى يشكو وجع البطن مثلا إذا استعمل دواء ذلك الداء انتفع به ، وإذا استعمل دواء وجع الرأس لم يصادف داءه .

فالشح المطاع مثلا من المهنكات ولا يزيله صيام مائة عام ولا قيام ليلها .
وكذلك داء اتباع الهوى والإعجاب بالنفس لا يلائمه كثرة قراءة القرآن
 واستفراغ الوسخ فى العلم والذكر والزهد .
 وإنما يزيله إخراجه من القلب بضده .

ولو قيل : أيهما أفضل ، الخبز أو الماء؟ لكان الجواب : أن هذا فى موضعه أفضل ،
 وهذا فى موضعه أفضل .

كذلك فتون العبادات . . .

الإحسان بين التأمل الذاتي والصلاح الاجتماعي

جمهرة الناس تغلبهم طبيعة العيش ، وضرورات النفس والأولاد ، وظواهر الحياة الدنيا ، فتراهم منصرين بأفكارهم ومشاعرهم إلى تأمين حاضرهم والاحتباس في نطاقه الضيق .

ولو أنك تسمعت الصجة التي تسود أرجاء العالم ، وحاولت استبانة معناها ما وجدت إلا ب GAM الغرائز المهاجنة تريد إثبات نفسها وتحقيق رغباتها .

أما منطق الإيمان خلال هذا الضجيج العالى فهو همس لا يكاد ي听见 .

إن كان ذلك بين الأمم الكافرة بالله - وهي اليوم ألف مؤلفة - فالأمر ظاهر ، كيف تذكر من تجهل؟ أو من تتجدد؟

وإن كان بين جماهير المؤمنين ، فإن معرفتهم لله كامنة في طواياهم ، قد تحرکهم إلى رحبات العباد حينا ، وقد تجزهم عن بعض الحرام حينا ، ولكن هذه المعرفة قلما تبقى وضاحة مع الركض المجهد في ساحة الحياة وراء مأرب أخرى ...

من أجل ذلك حتى الله عباده المؤمنين به أن يقاوموا هذا الذهول السائد ، وأن يتخلصوا من هذه الغيبة العامة ، وأن يذكروه برغم هذه المنسيات ، وأن يحاولوا الاستضاءة بوجهه الكريم خلال غواشى الدنيا وكرباتها .

أجل ، يجب أن ينقذوا أنفسهم من الغرق في هذه اللعنة المتتابعة ، وليس من طريق إلا الإكثار من ذكر الله ، والتثبت بأسمائه الحسنى ، وشدة التعلق به في كل حين وفي كل حال .

وهذا سر الوصايا المتكررة بإدمان الذكر وإطالته .

﴿وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضْرُعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ
وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (الأعراف: ٢٠٥) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾
(الأحزاب: ٤٢، ٤١)

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقَعْدًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ (النساء: ١٠٣).
والذكر ليس افتاعاً نفسياً لشيء بعيد عن الإنسان ، أو تخيلاً لهم مقطوع
الصلة بالحياة الخارجية .

كلا . إن الله لا يغيب عن الناس لحظة ، وهو معهم حيثما كانوا .
ومن ذلك شأنه ، فمن الحق أن يحس وجوده ، وأن يدرك شهوده ، وأن يتصرف
الناس - ما شاءوا - لكن مع الاستيقان بأنهم في حضرته ، ما ينفكون عنه أبداً ، وما

يتركهم لحظة ﴿فَلَنْقُصْنَ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ (الأعراف: ٧).

وذكر الله من أشرف العبادات وأنفس ما يجري على اللسان من كلمات ،
وأذكي ما يمر بالخاطر من صور ، وما يثبت في القلوب من معان .

وهو مفتاح الصلة المباشرة بالله الكبير المتعال ، ما إن يشرق معناه في نفسه
وتتحرك به شفاته حتى يذكره الله ببره ولطفه ، ويصحبه بتائيده وعونه .

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «إن الله عز وجل يقول : أنا مع عبدى إذا
هو ذكرنى وتحركت بي شفاته»^(١).

وفي الآية ﴿فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (البقرة: ١٥٢).
وعن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : «أربع من أعطيهن فقد أعطى خير الدنيا
وآخرة . قلبًا شاكرا ، ولسانا ذاكرا ، وبدنا على البلاء صابرا ، وزوجة لا تبغيه حوباً في
نفسها وماله»^(٢).

وقد تنافس الصالحون في ذكر الله ، وربطوا أفتئتهم وأذهانهم به ، لم يتوهوا عنه
في زحام الحياة ، ولم يفتنهم عن ذكره نعمة ، أو تشغله محنـة .

وقد رأوه طريقة سريعة التوصيل إلى مقام الإحسان ، والأنس بمشاهدة الله عما
تزخر به الحياة من فتون ومجون . وسعى وعبث ، وعزلة واحتلال ، وقصور وانطلاق !!
ونحن نريد أن نقف هنا وقفـة قصيرة ، لنكشف شبهـة خدع بها الكثـرون فإن

(٢) الطبراني .

(١) ابن ماجه .

إلف الذكر والاستئناس بمعانيه الرقاق ، والاعتزاز بما يتركه في النفس من صفاء ووداعة ، كل ذلك جعل لفيفا من الصالحين يحسبه الغاية المنشودة لا الوسيلة الباعثة ، ونشأ عن ذلك أنهم استغناوا به عن غيره ، وظنوا مقام الإحسان وليد حالاته وإشرافاته .

ولعل مما روج لهذه الخدعة ما روى عن أبي الدرداء^(١) قال رسول الله ﷺ : «ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاهها عند مليككم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق . وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أنفاسهم ويضربوا أنفاسكم؟ قال : بلى ، قال : ذكر الله ...»

قال معاذ بن جبل : «ما شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله ». ونحن لا نسأع إلى تكذيب حديث ما لأن ظاهره - لأول وهلة - يخالف المعروف من الدين .

والأمر يتطلب شيئاً من الفقه والتدبّر ...

من الذي قال : إن المجاهدين في سبيل الله طائفة أخرى تقابل الذاكرين لله ، وتوضع في كفة مغایرة يقال : هذه أرجح من تلك؟

إن الجهاد في سبيل الله أرفع درجات الذكر ، والمجاهد في سبيل الله رجل يعرف ربه ، ويريد أن يغرس هذه المعرفة في الحياة ، وأن يرويها بدمه حتى تزدهر وتنمو . المجاهد في سبيل الله رجل يذكر الآخرين بالله بعد أن امتلأ هو بهذا الذكر من أخمص قدمه إلى ذؤابة رأسه .

لقد ذكر ربه عند التقاء الجميين استجابة لقول الله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِتْنَةً فَاثْبِطُوا وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأనفال : ٤٥)

وصاحبه هذا الذكر في أدوار المعارك كلها خصوصاً عند اشتداد البأس وتكلب العدو ، وعند ابتعاد النصر وإثخان الجراحات واستحرار القتل في إخوانه .

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا أَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (١٤٧) فَاتَّاهُمُ اللَّهُ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابُ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران : ١٤٨)

(١) مسند أحمد بن حنبل .

نعم ، يحب الحسنين ، وهذا الجهد الصبور المحتسب هو الإحسان ، وهو أحق شيء يوصف بالعبارة المأثورة في الحديث «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» .

ثم من قال : إن الإنفاق في سبيل الله ليس ذكر الله ! إنه ذكر عملى له مكانته .

وهو أشرف من ذكر اللسان ولو واطأه صحو القلب .

وذلك أن ألف الناس يغريها حب المال فترتاد له الصعاب ، وتهجر في سبيله الأحباب .

وربما نسيت حق الله ، وما وضع من حدود ، وما شرع من معالم ، بل لعلها في سبيل الاستكثار من المال تهدم كثيراً من خلال الشرف وخصال الخير .

فإن وجد من أرباب المال من يذكر ربه عندما يجمعه ، ومن يذكر ربه عندما يتخلّى عنه ويصرفه إلى وجوه البر ، فهل يكون ذلك في طليعة الذاكرين ؟

إن القرآن الكريم جعل الإنفاق هو الذكر ، أو أثره المطلوب في قوله جل شأنه :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُنْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ وَأَنْفَقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولُ رَبِّ لَوْلَا أَخْرَتْنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

(المنافقون : ٩ ، ١٠)

إن المعنى الوحيد الصحيح للحديث المذكور أن الذكر المجرد أفضل من الجهد المشوب بحب الغنيمة وطلب الشهرة . وكذلك أفضل من الإنفاق المصحوب بالمن والرياء .

أى إن الحديث يستهدف تزكية النفس بذكر الله وطلب ما عنده ، ويرى النية الطاهرة أرجح من العمل الكدر . وهذا معنى حق ، فإن الآفات التي تسقط على الأعمال الصالحة تذهب قيمتها عند الله ، وتحقق ثمرتها في المجتمع .

حقيقة الذكر المطلوب

ولكن عددا كبيرا من المسلمين - في قرون مضت - حسب الذكر أثر عند الله ، وأدنى إلى إرضائه من أي عمل آخر ، أو ربما حسب أن درجة الإحسان لا تنازل إلا بطول الذكر ، سواء في الصوامع المعزولة ، أو المجالس الحافلة ، فكان الاستكثار من الأوراد ، وأنواع التلاوات ، وانتشرت السبحة في الأيدي تعد الأصابع على حباتها ما يمكن عده من أسماء الله الحسنى !! نحن نستعيذ بالله من تهويين عبادة كريمة ، وندعوه جل شأنه كما علمنا على لسان نبيه فنقول : اللهم أعننا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك .

ونحب أن تنبه المعجبين بمسالك القوم - وقد مضت أيامهم - أن مقام الإحسان ينال بسلوك أرشد من ذلك وأدنى إلى الصراط المستقيم .

إن ابن عطاء الله السكندرى - وهو من أكابر الصوفية الأولين - يغرى بالذكر ، ويطعم رجاله في مقام الإحسان فيقول : «لا تترك الذكر لعدم حضور قلبك مع الله فيه ، فإن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره .

فعمى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة .

ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور .

ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع رغبة سوى المذكور ، «وما ذلك على الله بعزيز» .

وهدف ابن عطاء الله واضح أن الإنسان قد يسام تكرار ورد ما لانشغال ذهنه في أثناء تلاوته .

ويرى ابن عطاء الله أنه لا ينبغي للمرء أن يترك الذكر ولو كان قلبه مشغولا فإن إصراره على الذكر سوف يترقى به إلى أعلى المراتب .

إنه قبيح بالإنسان أن ينسى ربه أو يسام ذكره ، وهو ملحوظ بعناية الله في كل حين .

وقد تطغى صور الوجود الأدنى على الفؤاد ، فيكون ذكر المرء لله حرقة لسان لا

يصحبها جنان ، وربما شعر بأن هذا الذكر الشفهي قليل الجدوى فيتركه ، والأولى به أن يصر عليه ، فإن هذا الإصرار حميد العقبى .

ولو فرضنا أنه انتهى إليه فهو خير من السكوت ، إنه انشغال عضو بطاعة الله ، وهذه المشغلة - على تفاهتها - حاجز عن معصيته !

فكيف لو ترقى به هذا الإدمان لذكر الله ففض مغاليق الغفلة عن قلبه وجعله يقطنان المشاعر فهو يذكر الله بلسانه وبقلبه جمياً؟

وابن عطاء الله يبغى تحصين المسلم ضد حالة الارتکاس لا تليق به فقد يزدرى اللسان لأنّه وسيلة فاشلة .. في تحريك القلب ، فتكون النتيجة أن يهمد فمه وقلبه معاً وتجزفه تيارات الحياة بعيداً فقلما يخطر على باله ذكر ربه .

والقمة التي يحدونا إليها هذا الصوفى الذكى هي حالة الاستغراق! وما حالة الاستغراق؟

إن أحوال الاستغراق في شيء ما تزحم حياة الناس العادية .

قد تنادى بأعلى صوت رجلاً يسير قريباً منك في الطريق فلا يلتفت إليك لأنّه غارق في فكر سيطر عليه ، فهو ينطلق في الطريق ضعيف الإحساس بما حوله .. .

وقد جربت في نفسي هذه الحالة أجلس إلى جوار المنبر في الجامع الأزهر يوم الجمعة ، ولما أعد - بعد - الخطبة التي حضرت الألوف لاستماعها .

فأعقب قوای الذهنية ، وأحضر مشاعرى كلها لتحديد الموضوع ، وجمع نصوصه وشواهد ، وأتابع في نفسي ربط العناصر ، وتسليل المعانى ، وضبط بعض الجمل الدقيقة حتى لا يند زمام التعبير في نقطة حساسة .

ثم أصبحوا من هذه السياحة العقلية وقارئ السورة في المسجد يصرخ بالأيات فلا أدري من أين بدأ؟ ولا أين وصل؟

وكأنّى ما سمعت منه حرفاً مع أن مكبرات الصوت تملأ به جو المكان! إن حالات الاستغراق هذه شيء معتاد في حياة الناس .

ومن أهل الصلاح من تصفو سرائرهم ، وتزكي بواطنهم ، وتوطد مع الله علاقتهم ، ويمس حبه شغاف قلوبهم ، وربما تضطرم مشاعر الذكرى في أنفسهم إثر طائف يمر بها من الملأ الأعلى ، كما تتقد الجذوة نفخت فيها الرياح ، فتمر بهؤلاء

لحظات ليست من حياة الناس ، يذهلون فيها عن أنفسهم ويبقون مع ربهم في استغراق يطول أو يقصر . . . !!!

أى عجب فى هذا؟ إن الإيمان يربو أحيانا كما تربو أمواج البحر ، ثم يعود رهوا ، ساكن الصفحة ، كأن لم يعره شيء

وهذه السويغات ، فى حياة المؤمنين أمر معتاد !
وأنا أكره تسميتها فناء ، كما أستنكر تسميتها جذبا .
وأحسب أن هذه الإطلاقات تنقصها الدقة والأدب .
ولنا أن نسأل : هل هذه اللحظات هدف يسعى إليه؟
والجواب : لا . . . إنها أحوال تعرض وليس غايات تقصد .

وذكر الله بالقلب ، أو باللسان لا ينبغي أن يتسلل به لهذه اللحظات ، وإنما ينبغي أن يتحول إلى الأعمال العظيمة التي رسّمها الشارع ، وناظ بها كيان الفرد والمجتمع .

إن جيشان عاطفة ما أمر قد يعترض حياة العاملين ، ولكنه لا يتجاوز هذه الحدود .
وقد كرهنا أن نسمى هذه الحالة فناء ؛ لأن هذا التعبير كان مزلاً لانسلاخ البعض عن ذاتهم .

ورأينا البعض يسمّيها وحدة الشهود لينفي بها خرافية وحدة الوجود !
ومع ذلك فإن تعبير ابن عطاء الله - على استقامته - مهد الطريق لهذه المخظورات
واسمع إلى ابن عجيبة يشرح عبارته التي ذكرناها آنفا . قال : «إِنْ دَمْتُ عَلَى ذَكْرِ
الْحَضُورِ رَفِعْكَ إِلَى ذَكْرِ مَعْجِيَّةِ عَمَّا سَوَى الْمَذْكُورِ، لَا يَغْمُرُ قَلْبَكَ مِنَ النُّورِ .
وَرَبِّا يَعْظِمُ قَرْبَ نُورِ الْمَذْكُورِ فَيَغْرِقُ - الْذَاكِرُ - فِي النُّورِ، حَتَّى يَغْيِبَ عَمَّا
سَوَى الْمَذْكُورِ، وَحَتَّى يَصِيرُ الْذَاكِرُ مَذْكُورًا، وَالْمُتَطَلِّبُ مَطْلُوبًا وَالْمُوَاصِلُ
مَوْصُلًا، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ . . . ». .

ثم يقول : «إن الذاكرين الله بالقلوب هم في حال ذكرهم لله بلسانهم أشد غفلة من التاركين لذكره» لماذا؟ لأن ذكره باللسان يقتضي وجود النفس وهو شرك ؛ والشرك أقبح من الغفلة» .

ونحن نرفض هذا الكلام جملة وتفصيلا ، بل نرى ابن عطاء الله بريئا من قصده فإن الذاكر غير المذكور قطعا .

وشعور المخلوق بأنه غير الخالق توحيد لا شرك .

والواقع أن فى عبارات الصوفية من هذا القبيل تشويشا يجعلنا نستبعدها من ميدان التعليم والتربية مهما التمس لها من الشرح وقصد المجاز لا الحقيقة .

إن الإحسان - ورد في الكتاب والسنة - شيء آخر غير هذا الاستغراق الذاتي وغير التأمل العميق الذي قد يغيب المرء فيه عن نفسه أحيانا ...

وال المسلم - إذا أطاع الله ورسوله - لم يحتبس داخل صومعة محدودة الأركان يفسح جنباتها بالخيال الجامع ، وإنما صومعة المسلم هذه الأرض ذات الطول والعرض ، يملاً جنباتها بالعمل المتقن والواجبات المطلوبة .

وليس الإحسان تجريد جزء من العبادات وإهمال أجزاء أخرى قد تكون أخطر وأجل ، وإنما الإحسان أداء فروض العين وفرض الكفاية ، وتناول شئون الدنيا وشئون الآخرة معا .

هو إشراب الحياة الإنسانية حقائق الأمر الإلهي ، وإضفاء صبغة السماء على أحوال الأرض .

هو ترقية كل عمل بذكر الله فيه ، لا الفرار من الأعمال بدعوى ذكر الله في العراء .

روى عن معاذ بن جبل عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن رجلا سأله فقال : «أى المجاهدين أعظم أجرا؟» قال : أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكرا . قال : فأى الصالحين أعظم أجرا؟» قال : أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكرا ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة! كل ذلك ورسول الله يقول : أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكرا .

فقال أبو بكر لعمر : يا أبا حفص ، ذهب الذاكرون بكل خير! فقال رسول الله : «أجل»^(١) .

هذا هو الذكر يقارن الأعمال ، ويتحول الاستغراق فيه إلى خلوص قلب ومهارة يد ، ونبالة غاية . . .

(١) مسند أحمد بن حنبل .

الإحسان مراقبة ومشاهدة ، والرقابة الإلهية لا تتناول عملا ، وتدع آخر ، بل
تناول الأعمال كلها .

من اللقمة تضعها في فم زوجتك كى تبني البيوت على الحب ، إلى الرصاصة
تطلقها على عدوك في ساحة الوغى كى يبنى العالم على العدل .

من الشوب تلبسه لتكتسى به وتتزين فيه ، إلى الكفن تختار على نحو معين
لتلف فيه الجثة وتوارى تحت الثرى ...

الإحسان يشمل الأحوال والأعمال جميعا قال تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَاءْ وَمَا تَتَلَوَ
مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ (يونس: ٦١) .

الذكر عبادة اجتماعية

كثيراً ما تختتم آيات القرآن الكريم بعدد من أسماء الله الحسنى ، يناسب ما يقارب معناها من أفعال العباد .

والسر فى ذلك إشعار الناس بأن رقابة الله لا تنفك عن تصرفاتهم مهما اختلف مجالها .

وإن إشراق المعرفة الإلهية لا ينحصر في صومعة نائية أو محراب خاشع ، بل يجب أن يصبح المؤمن في عشرات الأعمال التي ينغمى فيها كل يوم .

يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَقَابِ ﴾ (البقرة : ٢١١) إن الجملة الأخيرة جاء بها مغنية عن جواب الشرط ، وهو (يتعرض للعقوبة) والاستغناء عن هذه الكلمة بذكر اسم الله مقوينا بإحدى صفاتاته ، رجع بالمؤمنين وأعمالهم إلى ضرورة الإحساس بإشراف الله عليهم إشرافاً غير منقطع ، ولذلك يجب أن يحذروه .

ويقول تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأనفال : ٤٩) والجملة الأخيرة جاءت مغنية عن جواب الشرط وهو (يظفر بالحماية والمنعة) ومواجهة النفوس القلقة باسم الله مقوينا بأوصافه المثيرة للطمأنينة والثقة إشارة إلى أن المسلم في شتى أحواله ينبغي أن يركن إلى من هذا شأنه .

الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ... اعبده على هذا النحو وأنت تقيم حد السرقة شاعراً بأن الله يريد إشاعة الأمان في الناس وأخذ المجرمين بالنكال فذلك مقتضى حكمته ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطُعُوا أَيْدِيهِمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبُوكُمْ لَا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (المائدة : ٣٨) .

ورؤية الله في ساحة الحكمـة حين يقام هذا الحد هي رؤية الله في المسجد حين تقام له الصلاة ...

تأمل في الأسماء الحسنى التي ختمت بها هذه الآيات النازلة في بعض مشكلات الأسرة ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِسَائِهِمْ تَرْبُصُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٢٦، ٢٢٧).

إن الرجل قد يضيق بامرأته ، ويحمله السخط أن يحلف على اجتنابها ، وتجد القرآن يعالج هذه الأزمة علاجا يبدأ بالبرقة وينتهي بالحزن .

يقول للزوج إن عفوت عن زوجتك ، واغتفرت ما ساءك منها فإن الله غفور رحيم .

وفي التذكير بهذين الاسمين من أسماء الله الحسنى ما يشيع جو الحنو والتسامح في البيت المضطرب ...

ثم يقول ... وإن كانت الأخرى ، وتقرر الطلاق . فإن الله سميع عليم ، إنه غير بعيد عما يقع ، عارف بما يصنع الزوج والزوجة .

وفي التذكير بهذين الاسمين من أسماء الله الحسنى شيء من إقامة السلوك على الحذر والروية ...

والقرآن الكريم مشحون بمئات وألاف من هذه الآيات التي تغرس جذور الإحسان في القلوب ، وهي تعالج كل ما يعرض لها في الحياة من أعمال .

والخلاصة التي نريد توكيدها أن العبارة الواردة في الحديث الشريف وهي «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» ليست وصفا لشخص يصفه قدميه للصلوة ، أو يلهج لسانه بالذكر فحسب .

إنما هي وصف لإنسان يقيم أوامر الله كلها ، في شئون الحياة كافة .

ومجال الإحسان رحب الدائرة ، حدوده وظيفة الإنسان في الحياة من المهد إلى اللحد ...

أمتنا بين الإساءة والإحسان

إساءة المسلمين إلى دينهم وأنفسهم بالغة الشدة ، وقد تتابعت هذه الإساءات في الأعصار الأخيرة واتسع نطاقها ، وفشت بين الخاصة والعامة جهالات غربية بالدين ، وجهالات أغرب بالحياة العامة ، فإذا الأمة التي بقيت دهرًا طليعة مرمودة ترجع القهقرى ، وتلاحقها الهزائم ، ويهدون وجودها عليها وعلى الآخرين فهى كما قيل :

ويقضى الأمر حين تغيب تيم لا يستأمرون وهم شهود !!
إنها ما أحست العمل بحقائق دينها ولا أحست العمل بشئون دنياها ، فلم يكن بد من مواجهة هذه العقبى .

إن الذى يجهل قواعد اللغة لا يحسن البيان ، والذى يجهل أركان الصلاة لا يحسن العبادة ، وكذلك الذى يجهل شئون الحياة لا يحسن الإفادة منها ولا التبريز فيها .
والعلم ضربان : علم مصدره الوحي ، وهو محصور الدائرة ، واضح الحدود .
وعلم مصدره النشاط الإنسانى ومكابدة الحياة نفسها ، واستكشاف قواها وأسرارها ، وهو علم واسع الدائرة رحب الأفاق .
وفي النوع الأول من المعرفة ، حسب المرء أن يدرس ما جاء من السماء ليعمل به العمل الصحيح .

أما النوع الآخر ، فإن السماء تركتنا له وتركته لنا ، فلم يجيء وحى يعلمنا فنون الصناعات وألوان الحرف وإنما خلانا الله وسألنا نتكلف ذلك ثم نوجه ما نملك من أمور الحياة الوجهة الصالحة ، ونسخره لدعم الرسالة التى اصطفانا لها .

ومن المؤسف أن أقدام المسلمين زلت فى كلام الميدانين ، فوعيهم لكتاب الله وسنة رسوله ضعيف ، وفقهم لظواهر الحياة وبواطنها أضعف ، وتوجيه الحياة وخبراتها وملكاتها لخدمة دينهم أشد ضعفا .
وليس من العبادة انتظار نجدة من السماء لتغيير هذه الأحوال .

إننا - من الناحية العامة - بشر كسائر البشر . لنا ما للناس من أسماء وأبصار وأفئدة .

لماذا تتعطل حواسنا وأفكارنا ، وتنطق حواس الناس وأفكارهم في كل مجال؟
لماذا تمس أصابعهم الأشياء فتجود ، وتمسها أصابعنا فتضطرّب؟

لقد كان الناس عالة على آبائنا في النواحي الأدبية والمادية جمِيعاً فما الذي
عرانا حتى أصبحنا لا نحسن استخراج المعادن من أرضنا ، ولا بناء السدود
والجسور على أنهارنا ، ولا تشكيل الآلات وتركيبها في مصانعنا ، ولا تطوير أدوات
الحرب والسلم حاجتنا . . . ؟

الحق أن القدرة على الإحسان أعزتنا ، وأن أسباب هذه القدرة في أيدينا لو أردنا .

إن الله أحيا المسلمين على هذه الأرض كما أحيا غيرهم من الأمم ، وإذا كان قد اختص المسلمين بوحى سماوى جليل القدر ، بعيد الأثر ، فهو لم يختصهم بمعرفة أرضية ترجح كفتهم على سواهم .

وعليهم أن يعانون في ذلك ما يعاني غيرهم ، وأن يستفعوا بتجاربه .

وكل تفريط في هذا الميدان معناه أولاً انخفاض مستوى ادراك الفكري والمادي ، ومعناه آخرًا قصور الوسائل التي تنجح رسالتهم ، وتحقق غاياتهم .

وعندما ينضم إلى هذا العجز ، عوج في فهم الدين نفسه ، واسترخاء في إجابة عزائمه فهنا الطامة .

إن للإحسان جزاءين ، أحدهما أجل في الدار الآخرة ، ولا كلام لنا فيه الآن ،
والآخر عاجل تلقاه الأم في حاضر أمرها وتبلوه عيانا . قال جل شأنه : ﴿لِلَّذِينَ
أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةً وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهُهُمْ قَتْرٌ وَلَا ذَلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٢٦) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءٌ سَيِّئَةٌ بِمِثْلِهَا وَتَرْهِقُهُمْ ذَلَّةٌ مَا لَهُمْ
مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أَغْشَيْتُ وُجُوهَهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ
هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (يونس: ٢٧ ، ٢٦) .

وقال جل شأنه : ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ (الإسراء : ٧)
وقال : ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ (الرحمن : ٦٠) .

والإحسان - كما شرحتنا - لا يتجزأ ، كما أن الصدق مثلا لا يتجزأ . فليس صادقا من يتعمد الكذب في نصف أخباره ، ويتحرج الصدق في نصفها الآخر .
بل من الصعب تصور أن فضيلة الصدق تكونت لدى هذا الإنسان .
وليس محسنا من تراه في نصف أعماله ردئ التصرف غبي السلوك ، وفي نصفها الآخر مجيدا ، مستحب السيرة .
بل ، بعيد أن يوجد هذا الصنف المختلط ، فإن الفضائل لا تتجزأ .

والإحسان عمل ما من الأعمال المعتادة صورة واحدة يعرفها المؤمن والكافر على سواء ، إذ أساس الإحسان في هذه الأعمال إيقاعها وفق القوانين المقررة لها في دنيا الناس .

فالجراحة التي يجريها طبيب مسلم هي هي التي يجريها طبيب شيوعي أو وجودي ، أو يهودي . ويمكن الحكم عليها أولها من الناحية العلمية الخالصة . ووصفها بالحسن أو القبح لا مرجع له إلا هذه الأصول الفنية المتدارسة بين أجناس البشر ، وليس يقبل من أحد مهما كانت نحلته أن يقصر في هذه القواعد المتواضع عليها .
والفارق بين صدور هذه الجراحة من رجل مسلم ، وبين صدورها من شخص آخر ، أن المسلم لا تفوته في أي عمل نية الخير ، ولا تنفك عنه صلاته بالله ، وقد ووجهه فيما يأتي ويترك ... أي إن صورة العمل المشتركة لا تفاوت فيها بين المسلمين ومنخالفهم في العقائد والوجهات . أما الصورة النفسية الباطنة فهي تختلف بين هذا وذاك .

وال المسلم من الناحية الدينية لا يسمى محسنا إلا إذا استجمعت الكمال الحسى فيما أدى من عمل ، والصفاء النفسي - أعني قصد الله - فيه .

وليس يقبل منه بــة - مهما صلحت نيته - أن يسىء أو يقصر ، أو يترخص ، أو يتتجاوز ، اتكالا على هذه النية الكاملة .

فإذا شرك المسلمون غيرهم في أحوال الحياة وشئون الدنيا وفق هذه القواعد فيجب ألا تنسى شيئاً آخر انفرد به الجماعة الإسلامية وهو العبادات المخصوصة التي كتبت عليهم وطلبوها بأدائها .

إن الإحسان أن نقوم بها كافة على وجهها المشروع ، كما أثرت عن صاحب الرسالة ، متحرين في صلاتنا وزكاتنا وصيامنا وحجنا أن نتأسى به ، وأن نلتزم سنته . وقد شرح القرآن الكريم أن الإحسان بهذا الشمول طريق التمكين في الحياة ، والاستيلاء على أزمتها ، وملئها باليمين والبركة .

كان يوسف الصديق شاباً بادى العفة ، راسخ اليقين ، متين الخلق ، عظيم الثقة في الله ، اجتاز الأزمات التي مرت به من تشريد ، وسجن ، وتلويث سمعة وكابة عيش ، فلم يهن له عزم ، ولم تزل له قدم ، ولم يطش له هدف .

فماذا كانت عقبى هذا الإحسان؟

كانت العقبى أن الرجل المختطف المستضعف يلى أضخم المناصب ، وتصير الجماهير طوع بنائه .

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَئْتُنِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لِدِينِنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾
﴿قَالَ اجْعُلْنِي عَلَى خَرَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِظُ عَلَيْمٌ﴾ (٥٥) وَكَذَلِكَ مَكَانًا لِيُوسُفَ فِي
الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حِيثُ يَشَاءُ نَصِيبٌ بِرَحْمَتِنَا مِنْ نَشَاءٍ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾
(يوسف : ٥٤ - ٥٦)

ذلك كله في الدنيا أما بعد ذلك :

﴿وَلَا جُرْحُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (يوسف : ٥٧) .

وليوفس مع إخوته الذين أهانوه ، ولم يتقو الله فيه ، موقف آخر :

إن الإحسان بلغ به المدى ، وجعله في مصر مناط الآمال ومحط الرحال ، لكن الدنيا تقلبت بهؤلاء الإخوة ، وجزتهم بسوء أنفسهم سوءاً في معايشهم اضطرهم إلى النجعة يطلبون القوت من ولی الأمر في مصر ، ودار بينهم وبينه حوار عرفوا منه : أي رجال يخاطبون .

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجَنَّا بِضَاعَةً مُزْجَاهَ فَأَوْفُ لَنَا الْكِيلَ وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَحْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾٨٩﴾ قَالُوا أَتَنْكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصِيرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾يُوسُفُ : ٩٠ - ٨٨﴾ .

والجملة الأخيرة يجب أن تكون في السلوك الاجتماعي قانوناً علمياً كالقوانين المقررة في علوم الرياضة والأحياء . إن الإحسان لا يضيع غرسه ، ولن تخلى العناية الإلهية عن أصحابه ، مهما كبت بهم الحظوظ . وتعترت بهم في المراحل الأولى . وليس الإحسان جلودة ذهن طبيعته الغفلة ، أو يقطة نفس طبعتها الركود إنه خليقة مستقرة ، وملكة تكون من حب الإتقان وهوادة الكمال ، وإدمان الذكر لله ، وطول الشعور بصحبته .

وإذا كانت الإجاده العلمية تتطلب مزيداً من الخبرة والدراسة . لأن شئون الحياة دائمة التطور والتغير . فإن الجو النفسي يتطلب صحيحاً دائماً ، وتعوداً على الطاعات والفضائل ، وولعاً بما يرضي الله ويقرب غفرانه ، قال تعالى :

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعَيْوَنٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجِعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومٌ ﴾الذاريات : ١٥ - ١٩﴾ .

وطرق الإحسان كثيرة ، ولكن من يطيقها؟ إنها تتطلب العزمات الشداد ، والصبر الجميل ، والهمم البعيدة ، والجهاد الدعوب ، وصاحب هذه الأخصال أهل لأن يبسط الله عليه كنهه ، ويلهمه رشده ، وأن يكون أبداً معه ولذلك جاءت الآيات تؤكد عناية الله به وصحبته له .

﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾الأعراف : ٥٦﴾ .

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾النحل : ١٢٨﴾ .

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهَدِيَنَّهُمْ سَبِيلًا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾العنكبوت : ٦٩﴾ .

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَقَ بِهِ أُولُئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ

رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٢٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيهِمْ أَجْرَهُمْ
بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٥) (ال Zimmerman : ٣٣ - ٣٥).

والآية الأخيرة تفيد أن المحسن ليس معصوماً من الخطأ ، ربما كان له ماضٍ تاب منه ، وربما ساورته وساوس تجعله يلم بما ليس من طبعه ، ولكن الإشراق الذي يغمر حياته بالنور لا يعتكر لغيمة عابرة ، وفضل الله عليه أوسع وأجل .

ومن صور الإحسان التي استعرضناها آنفاً ندرك أن أمتنا متخلفة - أفراداً وجماعات - في ساح الحياة الدنيا والأخرى على سواء .

وأنها قد تزعم وتتمنى ، بيد أن سنن الله في كونه لا تغلبها المزاعم والأمانى .
ولا طريق لمجد الحياتين إلا أن تبادر كل عمل وهي تحسن أن الله عليها شهيد ،
 وأنها يجب أن تبلغ به مدها وفق ما شرع من وحي سماوى ، أو وفق ما وضع من
قوانين طبيعية .

ذاك معنى «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» .

دَعَائِمُ الْكَمَالِ النَّفْسِيٌّ

نسبة السـمـاوى

في ضجيج المعركة التي تنتظم البشر كافة حول مطالب الجسد نريد أن نرتدي قليلاً كيلا نضل الطريق ونجهل الغاية .

لقد علا الصياح وراء وقود المعدة والفروج علوا اخطلت فيه أنين الحرمان بسuar الجشع واتصلت نبرات هذا الصياح المهاج حتى كادت أقطار الأرض لا تعرف غيره . وفي بقاع شتى لا حديث إلا عن رفع المستوى الاقتصادي ، وضمان مقادير موفورة من الرغبات والشهوات للكبار والصغار .

ونحن نعلم حاجة الناس إلى ما يصون ويدعم جانبهم المادي .

ونعلم أن هناك فلسفات ومذاهب جارت عليه ونالت منه ، كما أن هناك مظالم وقتناً عرضت هذا الجانب وعرضت الحياة العامة معه لشر مستطير . . .

لكن العلاج العادل المستقيم لا يكون بالغلو في التقدير أو الانحراف في وزن الأمور . العلاج الصحيح ليس في الزعم بأن الحياة مادة صرف ، كي نجا به من حاف على أثر الظروف المادية في كيان الإنسان وقلبه ولبه . . .

إننا في كتبنا الأخرى نوهنا أشد التنويه بقيمة المال ، وقدرة الأحوال المادية على الحمل الكبير ، بيد أنها لا نريد أن ننسى أبداً أن الأوضاع الاقتصادية التي نريد السيطرة عليها وسائل لا أهداف ، وأن القصد من توجيهها هو خدمة غایيات أعظم .

إن رسالة الإنسان في هذه الحياة تتطلب مزيداً من الدرس والتمحيص . ووظيفته العتيدة في ذلك العالم الربح يجب أن تحدد وتبرز حتى يؤديها ببصر ووفاء ، وقوه ومضاء .

إن بعض الناس جهل الحكمة العليا من وجوده ، فعاش عاطلاً في زحام الحياة ، وكان ينبغي أن يعمل ويكافح .

أو عاش شارداً عن الجادة تائهاً عن الهدف ، وكان ينبغي أن يشق طريقه على هدى مستقيم .

والنظرة الأولى في خلق آدم وبنيه كما ذكرها القرآن الكريم توضح كل شيء في هذه الرسالة .

لقد بدأ هذا الخلق من تراب الأرض وحدها ، والبشر جمِيعاً في هذه المرحلة من وجودهم ليس لهم فضل يمتازون به ، أو يعلى مكانتهم على غيرهم من الكائنات . كم تساوى حفنة من التراب؟ لا شيء .

بل إن القرآن الكريم وصفهم في هذه المرحلة بما يدل على تفاهة الشأن قال جل شأنه : ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَا خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ (السجدة : ٨ ، ٧) .

أجل ، فتلك مرحلة في تاريخ الوجود الإنساني لا يستمد الإنسان منها أي كرامة ، وإنما يستمد هذه الكرامة من الطور الآخر الذي يقول الله فيه لملائكته : ﴿إِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر : ٢٩) .

في هذه النفخة من روح الله سرت في الكيان الإنساني الخصائص التي استحق بها أن يسمى ويُمجَد ، وأن تخضع له صنوف الخلق الأخرى .

نعم ، قبل نفخ الروح في آدم وذريته ، ما استحقوا سجودا ولا تكريما فإن الملائكة ومن دونهم لا يكلفون بالسجود لسلالة من التراب تافهة القيمة .

إن هذا الغلاف المادي المجرد لا يستحق شيئاً من ذلك . . .

ولكن بعد أن تألق في هذا الغلاف المادي قبس من نور الله الأُسْنَى ، وبعد أن صار الإنسان يحمل آثاراً من صفات الله جعلته حياً ومريداً وقدراً وعالماً ومتكلماً وسمانياً وبصيراً ، بعد ذلك ، استحق الإنسان أن يكون خليفة الله في أرضه ، وأن تتهيأ أرجاء الكون لاستقباله ، والانقياد لأمره .

إن الإنسان كائن عظيم حقاً ييد أن عظمته ترجع إلى نسبة السماوي الروحي ، لا إلى نسبة الأرضي المادي .

ومن الناس من يقدرون نسبة الإلهي هذا فيجعلون الحياة تزدان بالمعرفة والكرامة والفضيلة ، وتسخير الكون للإنسان .

ومنهم من تغلبهم نزعات الحماً المسنون فيجعلون الحياة تسود بالشهوات والمظالم والأناية وتسخير الإنسان لأتفه شيء في الكون .

الماديات تشتد الناس إلى أسفل

والنزاع الأبدى بين الناس فى هذه الحياة ، أساسه : أت تكون الهيمنة للحيوان الرابغ فى دم الإنسان يتحرك بنزعات القسوة والأثرة وحدها ، أم تكون الهيمنة للقلب الإنساني المتطلع إلى الكمال والسلام ، والحب والإيثار؟ ذاك ما يجب أن يعرف بجلاء ، وأن ترتفع حناجر المصلحين به .

وقد حملنا نحن المسلمين حضارة أعلت قدر الإنسان ، ولفتت نظره إلى أن ملوك السموات والأرض مهدله ﴿أَلَمْ ترُوا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَةً ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (لقمان: ٢٠) .

إن هذا التسخير لآفاق السماء وفجاج الأرض وجعلها فى خدمة الإنسان يتضمن إشارة بينة إلى أن الإنسان خلق ليكون سيدا لا ليكون مهانا .

وأن سجود الملائكة له فى السموات معناه أن يحيا على ظهر هذه الأرض سيدا موفور الحرمة مدعمون المكانة ، إذ وظيفته أن يخلف الله فى أرضه .

ولكن لا يجوز عند انشغال الإنسان بأعباء العيش الأرضية أن ينسى حقوق ربه الذى أستدتها إليه ، والذى قواه عليها . قال تعالى :

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبْرًا وَأَنْكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجِعُونَ﴾ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ (المؤمنون: ١١٦، ١١٥) .

وقد صالح الإسلام فى تعاليمه بين مطالب الجسد ومطالب الروح ، وبين واجبات الدنيا وواجبات الآخرة ، فكأن الإنسان - بعد هذا الصلح الذى عقده الإسلام - كيان واحد يستقبل به عالما ليست فيه فواصل بين الموت والحياة .

وتوضيحا لهذا المنهج الوسط قيل لكل إنسان : ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ

الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين ﴿القصص : ٧٧﴾ .

ليس فى الإسلام إذن انفصال بين العمل للدنيا والعمل للأخرى فإن العمل للدنيا بطبيعته يتحول إلى عبادة ما دام مقوينا بشرف القصد وسمو الغاية .

وليس فى الإسلام تغليب للجسد على الروح ، ولا للروح على الجسد ، إنما فيه تنظيم دقيق يجعل معنويات الإنسان هى التى تتولى قياده وتمسك بزمامه ، فلا هو براهب يقتل نداء الطبيعة ، ومبيت هواتف الفطرة ، ولا هو مادى يتتجاهل سناء الروح وأشواقها إلى الرفعة والخلود .

إن الإسلام يلح على كل إنسان فوق ظهر الأرض ، ألا ينسى نسبة السماءى ، وألا يتتجاهل أصله المنبع من روح الله .

وللجد حوق مقدرة ، وقد قال الله فى وصف أنبيائه : ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ (الأنباء : ٨)

لكن توفير هذه الحقوق ليس إلا وسيلة لصيانة الفؤاد والفكر ، وحماية القلب والعقل ، ما أشبه هذا الجسم بزجاجة المصباح الكهربائى ، إنها هى التى تصقل الضوء ، وتمد الشعاع ، فلو انكسرت ذهب النور واحتبس التيار .

ومع ذلك فالمحافظة على هذه الزجاجة وتلميعها وإزالة الغبار من فوقها شيء غير مقصود لذاته ، بل مقصود لينطلق الضوء من خلالها صافيا نقيا .

وقد أمر الإسلام بتطهير البدن وتزكية الروح فقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ (البقرة : ٢٢٢) ، وطهارة الروح أساسها حسن الصلة بالله .

وطهارة البدن بإزالة القذى الذى لا يليق بمكانة إنسان كريم على الله ، له رسالة سماوية مجيدة .

إن عبادة الجسد ، وعبادة المادة ، والتمرد على الأساس الإلهى فى الحياة الإنسانية عوج لا يتمخض إلا عن الشر والبلاء .

وآفة الخضارة المادية أنها سخرت العقول للشهوات ، وأخرست نداء الروح

وأطلقت نداء الطين ، وجدت أن الإنسان نفحة من روح الله ، ورأت أنه - كلا
وجزءا - نشأ من الأرض فلا يجوز أن يرفع رأسه إلى أعلى يذكر الله ولئن عصته ،
وسر عظمته . ونحن نؤكد أن شرف الإنسانية أولاً وأخراً في صلتها بالله ،
واستمدادها منه ، وتقييدها بشرائعه ووصاياه ، والحرية الحقيقية ليست في حق
الإنسان أن يت遁س إذا شاء ويرتفع إذا شاء بل الحرية أن يخضع لقيود الكمال وأن
يتصرف داخل نطاقها وحده ، ﴿وَمَا كَانَ مُؤْمِنٌ وَلَا مُؤْمِنَةٌ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا
أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا
مُبِينًا﴾ (الأحزاب : ٣٦) .

وقال عليه الصلاة والسلام : «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»^(١) .

ما هي الحرية التي هفت إليها الشعوب ، وتنادي بها كبار القلوب؟

إنها حق البشر في تأمين الوسائل التي يحيون بها حياة زكية نقية ، وليس حق
أمرئ ما في أن ينسليخ عن طبيعته ، أو يتمرد على فطرته .

إن الحرية ليست حق الإنسان أن يتحول حيواناً إذا شاء ، أو يجحد نسبة
الروح إلى رب العالمين ، أو يقترب من الأعمال ما يوهى صلته بالسماء ويقوى
صلته بالتراب ، فإن الحرية بهذا المعنى لا تعدو قلب الحقائق ، وإبعاد الأمور عن
مجراها العتيد . بل الواقع أنك لن تجد عبد ولا أخناع من رجل يدعى أنه حر ،
فإذا فتشت في نفسه وجدته ذليلاً لشهواته كلها ، ربما كان عبد بطنه أو فرجه ،
وربما كان عبداً لمظاهر يرائي بها الناس ، أو لمراسم يظنها مناط وجاهة ، فإذا فقد
بعض هذه الرغائب رأيته أتفه شيء ولو كان يلى أكبر المناصب ، بل لو كان ملكاً
تدرين له الرقاب .

الحرية المطلقة لا تنبغ إلا من العبودية الصحيحة لله وحده .

فإن القلب المرتبط بالله يعلو بصاحبه على كل شيء فيما تدلله رهبة ولا
تدنيه رغبة .

وهو بعالم الشريعة التي يتزمها مصون من الدنيا ، محصنون من المزالق ...

(١) مسلم .

ولذلك فنحن نكذب كل دعوة للحرية تزين للناس اعتداء حدود الله أو تعطيل أحكامه أو تهويء فرائضه ، أو الهبوط بالإنسان عن المكانة السماوية التي رشح لها بأصل الخلقة . كم يكون الإنسان نازل المرتبة تافه القيمة إذا كانت وظيفته في الحياة لا تتجاوز بضع عشرات من السنين يقضيها على ظهر الأرض ثم ...

ثم يقضى دون عودة ، وينتهي بذلك أمره كما تنتهي أجال الذئاب في الغاب أو الشياه في الحقول أو الخيول في «الاصطبعل» .

ألهذا خلق الإنسان؟ أو لهذا استخلفه الله في العالم؟

قد رشحوك لأمر، لوفطنت له فارباً بنفسك أن ترعى مع الهمم
إن الله الذي امتن على الإنسان بهذه المرتبة الرفيعة لم يدعه في هذه الحياة
و شأنه ﴿أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًّا﴾ (القيامة : ٣٦) .

كلا إن الله كما شرفه بالكثير من النعم كلفه بالخطير من الحقوق .

وهي حقوق تدور في جملتها على رعاية مصالحه ، وضمان الخير له في عاجل أمره وأجله .

والإسلام كلمة الله الأخيرة في هذا المجال ، وهو دين يحترم طبائع الأشياء لأنه دين الفطرة .

ولذلك يستحيل أن يتضمن حكماً علمياً أو اجتماعياً ينافق الحقائق المقررة ،
﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلَنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيرًا﴾ (الإسراء : ١٠٥) .
وكذلك يستحيل أن يلحقه تعديل أو تبديل فإن اجتياز دائرة الحق إلا الدخول
لا معنى له في دائرة الباطل ، ولذلك يقول جل شأنه : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً
وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنعام : ١١٥) .

وخير للناس أن يستبينوا رشدتهم في صفحات الكتاب الذي استوعب أصول هذا الدين القيم ، واستوعب إلى جانب ذلك كل ما يضمن للعالم الخير والازدهار .
إنه الأثر السماوي الفذ ، الذي بقى مستعلياً على التحريف والتغيير ، يصل
الإنسان بنسبه السماوي العريق ، ويرتفع به عن مستوى التراب ، وأمال التراب !

لقد تألقت مواهب الإنسان العقلية في عصور مضت ، وازداد وهجها ازديادا عظيما في هذا العصر ، وخيل للإنسان أن مكاسبه من وراء هذا الارتقاء الفكري البحث لا تقدر ، بل خيل إليه أنه أصبح - بهذا الجانب العقلي المبتور - سيد الوجود حقا .. ولو أننا تأملنا في حصاد هذا الطور التقدمي من حياة الإنسان لراعنا منه أن كفة الخسائر طافحة ، وأن الإنسان خسر نفسه وبذل أنفس ما فيه كى يحصل على الحطام الفانى ، ولم يرجع من وراء هذا الكفاح الخسيس إلا بالتضحيات والبلايا : ﴿وَلَا يَرَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيهِمُ السَّاعَةُ بُغْتَةً أَوْ يَأْتِيهِمْ عَذَابٌ يُومٌ عَقِيمٌ﴾ (الحج : ٥٥) .

إن الإنسان يكون وفيها لنسبة السماوى ، يوم يكرس قلبه ولبه لله .

الإلحاد خيانة عظمى

الدين مدرسة لتعليم الكمالات ، وغرسها في النفوس ، وأخذ الناس بها حتى تنضج في أحوالهم وأعمالهم .

إنه يعرف الناس بربهم أولاً ، لكنه لا يصلهم بالله على ما بهم من أثره وشراده ، وبغي واعتداء ، بل يغسل عن قلوبهم هذه الأوضار ويشرع لهم من العقائد والعبادات ، والأخلاق والمسالك ما يدرّبهم على فعل الخير وحب المعرفة وتحسين الحسن وتقييع القبيح .

وما نزعم أن كل مُنتمٍ إلى الدين يحرز ما يراد له من أنصبة الكمال ، وإنما نؤكد أن الدين يستهدف الكمال النفسي لأتباعه قاطبة ، وأنه كالمستشفى يقبل كل بشر ، ويتولى علاجه بشتى الأدوية حتى يبرأ من علله ، وتم له الصحة الروحية المنشودة .

والناس يتفاوتون في حظوظهم من العافية يزودهم بها الدين بيد أن من رفض هذا العلاج الحتم ، وأبى إلا البقاء بأدواته طرد ، وسدت في وجهه أبواب الوصول إلى الله .

ذلك أن عبادة الله منزلة لا يرقى إليها المفسدون وال مجرمون ، وأحلاس الشهوات ،
وعشاق العلو في الأرض وال الكبر على الخلق .

وهذا الصنف من الأشرار لا يؤذن له أن يجاور الله في جنته ، فإن ما التصدق به من دنيا يسوقه سوقاً إلى النار ﴿مَا سَلَكُكُمْ فِي سَقَرَ﴾ (٤٢) قالوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصْلِينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمُسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نَكَدِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) (المدثر : ٤٢ - ٤٧).

أَمَّا الَّذِينَ تَكَلَّفُوا مِشَاقَ التَّهْذِيبِ وَالتَّنْزِيهِ ، وَنَقَوْا أَنفُسَهُمْ مِّنْ أَدْرَانِ الشَّرِّ وَنَوَاعِزِ
الْإِثْمِ فَإِنَّهُمْ يَأْخُذُونَ طَرِيقَهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ مَعْهُمَا وَيَقَالُ لَهُمْ : ﴿كُلُوا وَأَشْرِبُوا هَبِيْثَا بِمَا
أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَّةِ﴾ (الحاقة: ٢٤) .

الدين إذن صلة بالله رفعت أصحابها ، وزكت أنفسهم وصفت معادنهم وتلك هي حقيقة الكمال الإنساني .

ولسنا نتصور كمala إنسانيا مع انقطاع الصلة بالله ، وإضمار الكره لشرائعه . إن الجهل بالله ، والوحشة من طريقه جذام يحتاج النفوس ويدعها لا تساوى شيئا . إن كنود المنعم الأكبر وإنكار وجوده أو إنكار حقوقه هو الخيانة العظمى التي لا يقبل معها خير يقدم ، أو يكتثر معها بمحنة قائمة .

ونحن نحب أن نعرف هذه الحقائق بجلاء ، هناك من يظن الدين صلة بالله لا تورث النفوس أدبا ولا شرفا ، وهؤلاء كذبة على الإسلام يجب إبعادهم عن حظيرته .

وهناك من يظن الاكتفاء النفسي يتوصلا إليه دون الإيمان بالله ، وإقام للصلوة وإيتاء للزكاة ، وهؤلاء أدعية مغرورون لا يحوزون أن تكون لهم حرمة ، ولا أن تحفظ لهم مكانة فإن الدعامة الأولى لما تصبوا إليه الإنسانية من كرامة ومجد هي الاعتراف بالله والخضوع له والاستمداد منه والاحتكام إليه

لقد شاعت في أوساط كثيرة فكرة أن المرء يقاطع الدين ، أو يجامله بكلمات باهتة ، ثم يختطف لنفسه طريقا في الحياة لا تعرف المسجد ؛ ولا تقيم وزنا لمواريث السماء جملة وتفصيلا .

وهو مع إفقار حياته من الدين ؛ وفراغ قلبه من الله يزعم أنه استكممل أسباب الكرامة واستجمع خصال الخير . . .

أما مقاييس الحير والشر فقد انقلبت في وعيه رأسا على عقب ، وما تظن بأمرئ لا يستهدى بوحى ، ولا يستيقن بأخر؟

إن حكمه على الأمور ينبع من نفسه وحدها .

وما نفسه؟ كائن إن ضبطه العقل الحصيف حينا اجترته الشهوات والأهواء أحيانا كثيرة فحسنت له ما يريد ، وقبحت له ما يكره . . .

وقد رأينا الشيوعيين والوجوديين يرسلون أحکامهم على الأشخاص والأشياء فرأينا الأعاجيب .

بل سمعنا من إخوانهم الإباحيين أن هذه الأمة لن تنهض إلا إذا قلدت أوروبا في «قادوراتها» ونحن بعد ما بلونا القوم ما نظن أحدهم يترجح عن إتيان أمه دون حياء ، وتقديم زوجته للأخرين دون مبالاة .

والغريب بعد هذا الكفر والفسق أن يزعم هؤلاء أن لهم نصيبا من الكمال الخلقي والسلامة النفسية ، وأن يرجموا الدين وأهله بالإفك والبهتان .

ولنتجاوز هؤلاء وسيرهم الخاصة العامة ولنتساءل : هل قضية الإيمان بالله من التفاهة والهوان بحيث يستوي فيها النفي والإثبات والشرك والتوحيد؟

هل هذه القضية من خفة الوزن بحيث لا يفترق فيها مؤمن وكافر ومصدق ومرتاب؟ .

إننا لو عرفنا عن رجل ما أنه يتصور الأرض مربعا لا كرة ، أو يتصور مياه المحيطات عذبة لا ملحا فإننا نزري بعقله ، ونسخر من علمه .

فإذا كان الخطأ في فهم بعض الحقائق الدنيا له هذه القيمة ، فكيف لا نكتثر للخطأ الجسيم المتصل بالحقائق العليا؟

إننا إذا عرفنا عن رجل ما أنه جحد جميلاً أسدى إليه أكنا له الضيق والاحتقار ، فكيف من جحد نعماء الخلاق الرزاق وهو يتقلب فيها على أحيائه كلها من المهد إلى اللحد؟

والواقع أن القول - بكمال نفسي عند أي شخص ملحد أكذوبة كبيرة لا تعنى إلا واحدا من أمرين في نفس هذا القائل!

إما أن الله غير موجود بالفعل ، وبذلك لم يرتكب هذا الملحد شيئا يلام عليه .

وإما أنه موجود حقا ولكن الجهالة والجهود ليسا رذائل تسقط المكانة .

ونحن معشر المؤمنين نزدري هذه الأفكار والأحكام ، ونرى الإلحاد أنس الدنيا ، ونعد أهله شرار الخلق وجرائم الفساد . . .

وهناك صنف ناعم مائع يريدو كأنه محايده بإزاء هذه القضية الخطيرة ، إنه لا يجح لا إلى السلب ولا إلى الإيجاب .

بما قال لك - إذا سأله : هل الله حق - ولم هذا السؤال؟ وما جدوى الإجابة عليه؟ إن حياة الجماهير غير مرتبطة بهذه الإجابة .

وربما استتلّى يقول : إن هناك قوة وراء المادة لها أثراً كبيراً أو يقول : من الخير الاعتراف باللوهية قائمة فلو لم يكن هناك إله لوجب التصرّح بأن الله موجود !! هذا الصنف من الناس يشبه المنافقين بالنسبة إلى الكافرين ، وإن اختلف لون التكذيب حسب الطابع التي تسير أصحابها .

والملحدون والمحايدون سواء في أنهم يريدون أن يحيوا على ظهر هذه الأرض وفق ما يشرعون لأنفسهم ، دون التزام بأى توجيه سماوى .

ونحب أن نزيد الموضوع وضوحا ، فليس الإيمان إقرارا بقوة غامضة أشبه بالصفات التي لا تمسكها ذات معينة . كلا إن الإيمان اعتراف بالله المريد القادر المهيمن الذي أمر ونهى ، وأعطى الناس فرصة محددة لتنفيذ أمره ونهيه ، وهو رقيب عليهم ، وسائلهم يوما عن كل صغيرة وكبيرة كلفوا بها .

فليس بهؤمن هذا الذي يقول : إن في العالم أو وراءه قوة لا ندرى عنها شيئا ، لا صلة لها بنا أو لا صلة لنا بها في سلوكنا الخاص والعام .

ثم القول بأنه لوم يكن هناك إله لوجب أن نشيع الإيمان به - لصلحة الأمن العام طبعا - قول سخيف سمج . فإن إشاعة الكذب جريمة ، ولا معنى للإيمان بالوهم .

وهذا الكلام لا هدف له إلا أن الدين يمكن استغلاله في تسكين الدهماء بقطع النظر عن قيمته الحقيقة .

وهذا كفر لا يقل عن الجحود الصرّيج .

الإيمان اعتراف بالله الذي تكلّم فأبان عن نفسه وعن مراده من خلقه ، وبعث إلينا من يشرح لنا كيف نعيش وفق هذه التوصيات العليا ﴿كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنَّ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْتَعَكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمَّى وَيُؤْتَ كُلُّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلُّوا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابًا يَوْمًا كَبِيرٍ (٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (هود : ١ - ٤) .

من أجل هذا كله نحن نحكم حكماً بينا حاسماً بأن الكفران بالله والتمرد عليه ورفض توجيهاته خيانة عظمى ، وأن أبعد شيء عن الاحترام أناس من هذا

القبيل ، وأن الأساس الأول للتكامل النفسي اليقين في الله والاستكانة لحكمه والاتباع التام لهداه .

وأداء العبادات ركن ركين في بناء الكمال النفسي .

ومع أن الأثر الخلقي والاجتماعي لهذه العبادات بعيد المدى إلا أنه ثانوي في تشريعها ، والغاية الأولى من أدائها الوفاء بحق الله ، والانتقاد لأمره وإعلان التبعية المطلقة لذاته جل شأنه .

بل إن من صلي وصام دون أن تكون هذه المعاني مسطورة في نفسه فلا صلاة له ولا صيام ؛ ذلك أن النية المنظورة إليها في هذا المجال الاستسلام لأمر الله تحرى مرضاته والفرز من سخطه والشعور بأن المرء ما خلق إلا ليمدح ربه ويثنى عليه بما هو أهل ، وينفي عنه كل نقيبة ، وينزهه من كل عيب .

وهو بهذا التمجيد يحقق الغاية من محياه قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّا
وَالْإِنْسَانَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ ﴾ (الذاريات : ٥٦) ، ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ
تَرْضَىٰ ﴾ (طه : ١٣٠) .

وقد جاء في الحديث «ليس أحد أحب إليه أن يمدح من الله . من أجل ذلك مدح نفسه»^(١) .

ومن حق الله الذي خلق أن يعرف ويعبد .

ومن حق الله الذي رزق أن يذكر ويشكر .

ومن حق الله الذي يعلم السر وأخفى أن يراقب وأن يستحب من مخالفته .

ومن حق الله الذي يirth الأرض ومن عليها أن يستعد الخلائق للقائه .

وكل تفريط في هذه الحقوق رذيلة كبيرة ، فمن عاش مقطوع الصلة بالله ، فارغ القلب من شكره ، خالي البال من مراقبته ، عدم الاستعداد للقاء فهو مهما ارتقى من نواح أخرى حيوان غادر خبيث ، وكفره هذا خيانة عظمى تزهد سوتها بكل ما ينسب إليه من كمال .

(١) مسلم .

مقدمة والحضارة المادية عندها

رأيته لامع الشَّعر والنُّعل ، حسن ال�ندام ، يتألق في الحديث ، ويتلطف مع الآخرين
ويفرق البسمات والتحيات بأدب جم . . .

فقال لي صاحبى : ما رأيك فيه؟ إنه من أولئك الذين صنعتهم الحضارة الحديثة
على نحو معين .

قلت : ما تعنى؟

قال : أعني أنه لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر!

قلت : إذن فهو حيوان مستأنس!

قال : أبعد هذا الارتفاع تصفه بأنه حيوان مستأنس؟

قلت : إن الاستئناس هو الوصف الذي أصفته عليه الحضارة ، وسيبقى حيواناً ما
بقي كافراً بالله ، فإذا آمن فهو عندئذ إنسان .

إنه لطيف الشمائل ، حلو المنظر ، ولذلك قلت : إنه مستأنس بهذه القطط
والكلاب التي نلتفها ونسمح لها بالتطواف علينا ، ولا نلقاها بالرصاص ، كما نلقى
الذئاب والضباع . . .

واستتليت : أترى الخائن لوطنه عندما يُجر إلى حبل المشنقة؟
إنه قد يكون وسيم التفاصيـع ، وربما كانت له أم ييرها ، أو زوجة يحبها ،
أو رحم يصلها .

لكن شيئاً من هذا لا يذكر أبداً عند اقتياده إلى ساحة الموت .

إن الجرم الذي ارتكبه أفعع ، وأشنع من أن تذكر بجانبه حسنة!! ألم يحن وطنه؟
إن خيانة قطعة من الأرض تسمى الوطن ، جريمة أهون من خيانة رب الأرض
كلها . أهون من الكفر بالله رب العالمين .

إن الحضارة المادية التي صدعت اليقين في القلوب هونت من شأن الإيمان
وجعلت الناس ينحرون لأقوام حاربوا الله والمرسلين ، وربما أعجبوا بهم .

بيد أنت لا نفقد عقلنا ، ولا وزننا للأمور إذا اختلت موازين الناس وطاشت أبابهم .
إن إنكار الألوهية جريمة كبرى ، وإذا تلطخ بهذه الرذيلة أحد فهو في نظرنا
شخص نجس .

ونحن نعامل الأحياء والأموات على ضوء هذا الحكم الخامس .
نعم نحن في ميادين الدعوة إلى الله نعذر الجاهلين ، ونتلطف مع غير المسلمين ،
بل إننا مأمورون أن نبرأ أهل الذمة ، ونقسط إليهم لكن تقرير الحقائق شيء والنظر
في أحوال الجاهلين بها ، والصادقين عنها ، والخارجين عليها شيء آخر .
في ميدان التعليم والتربية لا خلط بين الإيمان والإلحاد ، ولا بين الشرك والتوحيد .
يجب إحقاق الحق ، وإبطال الباطل بصرامة .

يجب أن يقال : إن الصدق فضيلة ، وإن الكذب رذيلة دون مواربة ، ويجب أن
يحترم الصادقون ، ويزدرى الكاذبون .

وقد يحدث أن نلقى في ساحات الحياة أقواماً مرضى يحتاج علاجهم إلى أناة
وسياسة وحكمة ، حتى نسوق لهم الشفاء الذي حرموا منه .
بل قد تحتاج إلى أمد بعيد حتى نقنعهم بما في أبدانهم من مرض وما في
كيانهم من جرائم .

إدارة الأمر مع هؤلاء لا يعني بتاتاً أن تنقلب الحقائق ، وتتعوج المقاييس فالمؤمن
مؤمن والكافر كافر .

وعقبى هؤلاء الجنة وعقبى أولئك النار ، ولا كلام .

وترسيخاً لهذه المعانى في النفوس أمر الله أن نذكر الضالين بعاقبتهم التي لا محيس
عنها فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ
يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (آل عمران : ٢١) .

وقال : ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (النساء : ١٣٨) .

ولهذا التبشير أحياناً ومناسباته التي يساق فيها ، ولكن روى الطبراني عن
رسول الله ﷺ أنه قال : «حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار» .

وقد صحح المحدث الكبير الأستاذ محمد ناصر الدين الألباني هذا الحديث .
ويبدو أن فى عصرنا هذا ما يستدعي التذكير به ، إنك ترى رجالاً كباراً وصغاراً
يزورون أورباً مثلاً فيقصدون أول ما يقصدون إلى قبر الجندي المجهول .
ونحن لا نعرف من هذا الجندي ، ولا نخزن بصيره فربما كان من لم تبلغهم الدعوة
فمات جاهلاً .

ولكنه على كل حال يمثل قومه الذين دفن بينهم ، فإن كان فى شرق أوروبا فهناك
يقولون : لا إله ، وإن كان فى غربها فالآلهة ثلاثة !!!
وهؤلاء الجنود - فى أغلب الظن معادين لنا - نحن المستضعفين فى الشرق - لولا
أن شغل الله بعضهم ببعض .

ترى ما الذى يجعل رجالنا يقدسون هؤلاء ؟ أهو تقديس للجحود أو للتثليث
أو للاعتداء الذى لولا القدر لكنا ضحاياه ؟ .

لندع هذه الفروض ، ولننقل هنا كلام الشيخ ناصر فى شرح الحديث السابق قال :
«وفي هذا الحديثفائدة مهمة أغفلتها كل كتب الفقه ، ألا وهى مشروعة
تبشير الكافر بالنار إذا مر بقبره ، ولا يخفى ما فى هذا التشريع من إيقاظ المؤمن
وتذكيره بخطورة جرم هذا الكافر حيث ارتكب ذنبًا عظيمًا تهون ذنوب الدنيا كلها
تجاهه ولو اجتمعت ، وهو الكفر بالله عز وجل والإشراك به الذى أبان الله تعالى
عن شدة مقته إياه حين استثناه من المغفرة فقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ
وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (النساء : ١١٦) .

ولهذا قال - عليه السلام - : «أكبر الكبائر أن يجعل لله نداً وقد خلقك» متفق عليه .

إن الجهل بهذه الفائدة أودى ببعض المسلمين إلى الوقوع في خلاف ما أراد
الشارع الحكيم منهم ، فإننا نعلم أن كثيراً من المسلمين يأتون بلاد الكفر لقضاء
بعض المصالح الخاصة أو العامة ، فلا يكتفون بذلك حتى يقصدوا زيارة بعض قبور
من يسمونهم بعظماء الرجال من الكفار ويضعون على قبورهم الأزهار والأكاليل
ويقفون أمامها خاشعين محزونين ، مما يشعر برضاهם عنهم وعدم مقتتهم إياهم ، مع
أن الأسوة الحسنة بالأئباء عليهم السلام تقضي بخلاف ذلك كما ثبت في هذا

ال الحديث الصحيح ، واسمع قول الله عز وجل : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعِدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبْدَأَ ﴾ (المتحنة : ٤) .

هذا موقفهم منهم وهم أحياء ، فكيف وهم أموات؟

عن ابن عمر أنه رض قال لما مر بالحجر : « لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين ، إلا أن تكونوا باكين . فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصييكم ما أصابهم » ^(١) .

(١) البخارى .

جهاد النفس

السمة الملحوظة لأهل زماننا أنهم راضون عن أنفسهم مسارعون في أهوائها ،
وهم يرون أن رغباتهم المادية والمعنوية ينبغي أن تجذب ، وأن تزال من أمامها العوائق .
وعلى ضوء هذا الرأي يرسلون أحکامهم على الأشخاص والأشياء ، وت تكون
مذاهبهم الاجتماعية والسياسية .

وقد أسهمت بحوث علم النفس في سوق الجماهير إلى هذا الاتجاه خشية ما
يسمونه « بالعقد » .

فشايع تدليل الطفولة في ميدان التربية ، وشاع بعد ذلك ترك الغرائز المختلفة
تتلمس طريقها في الحياة دون حرج أو دون رهبة .

ولانت الشرائع أمام هذا السلوك المقتاحم الماضي في طريقه لا يلوى على
شيء .. !

وتغيرت مفاهيم الأدب وضوابط الخلق في أرجاء شتى كي تتجاوب مع لون هذه
الحياة الجديدة .

ولسنا بصدده البحث عن أسباب هذا الاضطراب العام ، وكل ما نبغى هنا أن
نحدد حدود الحق التي درست ونقف الناس عندها .

نريد تحسين الحسن وتقييح القبيح وفق منطق الدين وهدى الوحي ، ثم نسوس
النفوس لتألف ما هو حسن وتذر ما هو قبيح ، وتعلم أن اكتمالها ومرضاة الله عنها
في التزام هذا وحده .

في مقدمة ما يكفل للنفوس صلاحها أداء العبادات التي افترض الله عليها
مهما شقت .

فالصلوة مثلاً عمل رتيب موصول متجدد ما بقى الليل والنهار ، وهو عمل
ينبغي له قهر كل عنز ، وترك كل شغل .

وهذا يشق على أحلاس اللهو وعشاق الحياة ، فإن الصلاة بين الحين والحين تزعهم انتزاعاً مما يأنسون إليه من متاع ومرح ؛ أو مما يغرون فيه من كدح واحتراف . ولذلك قال الله في وصفها : ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (٤٥) الذين يظنوُنَّ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦) (البقرة : ٤٥ ، ٤٦)

ومجاهدة النفس لأداء هذه الصلوات الموقوتة أساس متين للكمال المنشود وكذلك القيام بجميع الطاعات التي أمر الإسلام بها ، فإن هذه الطاعات مدارج الكمال المنشود ، ومراحل الطريق إلى سمو الروح ، ورضوان الله .

حاجة النفس الإنسانية إلى التهذيب والتزكية مثل أو أشد من حاجة العقل إلى الصقل والتنقيف .

ونحن في هذا العصر ننظم مراحل التعليم فنقدر سنى الدراسة من عشرة إلى عشرين سنة كى نحصل على عقل مستنير مزود بقدر محترم من المعارف التي تجعله يحسن الإدراك والحكم .

افتظن النفس تفتقر إلى أقل من هذا الأمد كى تستقيم طباعها وتعتدل ميولها ، وتنضبط شهواتها وت تكون لديها القدرة على التسامى ومحبة الفضيلة والشرف ؟ . إن تغلب العفة على الشره يحتاج إلى جهاد طويل .

فإذا كان المراد أن تبلغ النفس درجة تحب فيها الخير وتستلذه ، وتكره فيها الشر وتزدريه فالأمر بحاجة إلى مران أطول ، مران يتلقى فيه كفاح الإنسان نحو الكمال ، والتوفيق الإلهي لبلوغ الشأو المقصود .

وبذلك يكون الإنسان من عندهم الآية الكريمة : ﴿وَلَكُنَّ اللَّهَ حَبِّ الْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرُ وَالْفُسُوقُ وَالْعُصْيَانُ أَوْلَئِكَ هُمُ الرَّاسِدُونَ﴾ (٧) فضلاً من الله ونعمته والله علیم حکیم (الحجرات : ٨) .

ونحن نلحظ في كثير من الأحيان أن بعض الناس تفسد نفسه فسادا لا تستطيع معه أن تستبين الحق ، بله أن تتبعه ، وربما استمرأت العيش في الأباطيل والجهالات كما يستمرئ جامعو القمامات العيش بين الفضلات والأقدار ما تزكمهم روائحها ولا تؤديهم مقابحها .. !!

وهذا الاتكاس قاتل للضمائر والأخلاق ، موغل بأصحابه فى ليل ليس له فجر .

وكم يدعوا المرء - وهو يرقب هؤلاء الشاردين فى بيداء الحياة - : اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه . . .

والشهوات التى تحتاج إلى رقابة وضبط زمام كثيرة ، وهى متفاوتة الحدة فى أحد الناس ، ولكن أصولها ناشبة فى حياتهم على العموم .

هناك حب النفس ، وحب النساء ، وحب المال ، وحب الظهور ، هذه مثلا غرائز ما يخلو البشر من مباديها .

وقد تجد البعض فى حبه لنفسه لا يبصر غيرها ، ولا يتحرك إلا بهوا جس الأثرة وحدها .

وقد تجد آخر مفتونا بالثراء ، يدأب ليه ونهاره فى جمع المال ، يعشقه لذاته دون رغبة فى بذلك مهما طلبت الحقوق .

وقد تجد امرءاً على حاجته إلى المال يبذل كل ذكر اسمه ويدفع صيته ، أو هو فى سبيل سمعته يتسلق الوعر ويتوسد الجمر .

ومن الناس من يهيم وراء الغيد كأنه ظمان لا يجد الرى أبدا .

وعلى مبادئ هذه الغرائز تعتمد الحياة الإنسانية فى بقائها ونشاطها ، ومن طيش هذه الغرائز تفسد الأرض ، وينتشر الهرج والمرج ، وتصاب الأعراض ، وتسفك الدماء .

ألا ترى القليل من الماء يتناوله الإنسان فيذهب الظماء وتبتل العروق ، فإذا صار لجة ووقع الإنسان في مدها كتمت أنفاسه ، وزحمت أمعاءه ، وأزهقت روحه؟ . وعلى طول الخط الطويل الممتد من المهد إلى اللحد يواجه الإنسان أمورا شتى تحتاج إلى فؤاد صالح وبصيرة نيرة ، فإن اشتباك النفس بهموم الرزق ، وفتون الناس ، وتلقيها ألوان الوساوس ، وتأرجحها بين جواذب اليمين واليسار ، وفقرها إلى استجماع قوى كثيرة كى تتحقق الخير ، وكى تصد الشر ، ذلك كله يستدعي جهادا متصل الحلقات .

ولن ينجح الإنسان في هذا الجهد إلا إذا مرن على عصيان هواه ومضى قدما على الصراط المستقيم جلداً مثابراً لا يقعده إعياء ولا يرده استرخاء ... وقد حذر الله خيرة خلقه من الهوى ، وبين أن اتباعه حجاب عن الله ، ومزلقة عن الحق .

انظر ما قال لداود عليه السلام : ﴿يَا دَاؤُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَبَعْ الْهَوَى فَيُضْلِلَكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضْلُلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (ص: ٢٦) .

ويقول الله لنبيه محمد ﷺ : ﴿وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (البقرة: ١٢٠) .

ويقول : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأُمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَبَعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الجاثية: ١٨) .

ويقول : ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَبَعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ (المائدة: ٤٨)

ويصف الكافرين بأن أهواءهم هي التي سوت لهم الزور وزينت لهم الجهل : ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مِنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (الروم: ٢٩) .

بل يكشف أن كثيراً من الناس يرین على قلوبهم الهوى ، ويکمن وراء أقوالهم وأعمالهم وأحكامهم ، وينسج على حواسهم غشاوة محكمة فلا يرون ولا يسمعون إلا ما ينبع من طواياهم ، أى أنهم لا يرون الحياة الخارجية على حقيقتها ، بل يرونها من خلال تفكيرهم الخاص ، كما ترى الجو أزرق من خلال زجاجة زرقاء .

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَإِنَّ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ (٢) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الفرقان: ٤٣، ٤٤) .

إن البهيمية مذهب معروف عند كثير من الخلق ، وهو أقصر طريق إلى خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

إنه لا يكلف أصحابه إلا حب الراحة ، وطلب اللذة ، والاحتفاء بالنزوات العابرة والاحتياج مع الشهوات الفائرة ، وإبداء الرأي دون عقل ، وإرسال الحكم دون عدل ، وفضيل عاجل رخيص على آجل غال .

وقد حدد القرآن مصير هذا السلوك بحلاء ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ﴾ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فِيَنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَىَ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فِيَنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (النازurat: ٣٧ - ٤١) .

وتقوم جهاد ما لا ينظر فيه إلى مقدار ما يبذل من تعب ، وإنما ينظر فيه قبل كل شيء إلى نية المقارنة والغاية المقصودة .

فإن اللص يسهر الليل ليختلس النائمين ، والشرطى يسهر الليل يحرس الأمن لقاء راتب معهود ، والمتهجد يهجر فراشه ويدع لذذ الرقاد لا لشيء إلا ليعبد ربـه فى هدوء وصفاء ، ويتدبر آياته فى خشوع ورجاء ، مرتقبا فى الآخرة ثمار ما يغرس فى الدنيا : ﴿تَتَجَافَى جَنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبِّهِمْ خَوْفًا وَطَمْعًا وَمَمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (١٦) فلا تعلم نفس مـا أخفـي لهم من قـرـة أعـيـنـ جـراءـ بما كـانـوا يـعـمـلـونـ (السجدة: ١٦، ١٧) .

إن سهر هؤلاء الثلاثة واحد والفرق بينهم شاسع .

فأما الأول فمجرم يستحق العقوبة بما بيـتـ من إثم .

وأما الثاني فأجير يؤدى واجبه بشـمـنـ لـوـ تـأـخـرـ عنـهـ قـلـيلـاـ لـسـخـطـ وـتـرـكـ ماـ كـلـفـ بهـ .

وأما الأخير فرجل مؤمن بالغـيبـ والـشـهـادـةـ . يـعـرـفـ ماـ يـعـمـلـ ، وـلـمـ يـعـمـلـ؟ـ .

ومن هنا فنحن لا نكتـرـثـ لـكـلـ جـهـادـ نـفـسـىـ ، وـلـكـلـ عـنـاءـ يـتـجـشـمـهـ البـشـرـ ، ما لم يكن جـهـادـاـ رـشـيدـاـ مـحـكـومـاـ بـإـطـارـ منـ هـدـىـ السـمـاءـ وـصـحةـ الأـدـاءـ .

إنك تسمع عن فقراء الهند ، وعن ساستهم ، قصص الصيام الطويل المضنى .

وهذا من غير شك إرهاق للبدن تسانده عزيمة شديدة ، وإرادة غالبة .

ومع تقديرنا الجـردـ لـقـوـةـ العـزـمـ وـقـاسـكـ الإـرـادـةـ لاـ نـرـىـ فـىـ هـذـاـ المـسـلـكـ ماـ يـسـتـحـقـ التنـويـهـ وـالـحمدـ .

ولو أن أحدهم دفن نفسه في الرغام شهورا - كما يرون - ما أبهنا كثيرا ولا قليلا لهذه الحكايات .

وهي عندنا تساوى استعراض العضلات الذي يقوم به فتيان الرياضة البدنية غاية ما هنالك من فرق أن هذا بالزائد . وذاك بالنقص .

هذا استعراض شبع ، وذاك استعراض جوع ، وفي كلا الفريقين استعداد طبيعي لما يرع فيه .

وهذا وذاك ليسا الجهد النفسي الذي أقره الإسلام .

ومن الرهبان من يحيا أمدا طويلا وهو محروم من طيبات الحياة ، ومن يجاهد نفسه جهادا شاقا وهو يحملها على ما تكره .

ولكن ضلاله عن الحق ، وجهله بالله الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، يجعل كل متابعيه تذهب سدى .

ولن يزيد فيما يعاني ، عن فقراء الهند الذين شرحنا حالتهم آنفا .

ولكي يكون الجهد النفسي صادقا لابد أن يجئ تنفيذا لخطة رسمتها الشريعة ، وبينت معاملتها بوضوح . ومن هنا فالجهاد المقبول لا موضع له إلا إذا كان انتهاء عن حرام أو انتهاضا إلى واجب .

الجهاد المقبول هو الذي يسبك النفس في بوتقته لتصفو من درنها ثم تصاغ وفق القالب الذي أراده الله لها .

الجهاد المقبول هو الذي يستهدف وجه الله في كل حركة ويتحرى حكمه في كل وجه . وكل جهاد ننهى صلته بالله فهو مردود على أصحابه ...

إشباع الشهوات

لقد كان من أثر انتشار المذاهب المادية في عصرنا الحاضر أن تغيرت القيم الخلقية تغييرًا كبيراً وأصبحت الفضائل النفسية عند كثير من الناس عبثاً لا ضرورة له ، بل عبثاً ينبغي الخلاص منه ، وترك النفوس تسترسل مع هواها دون معاناة لكتبه ... واستوغر الشباب ارتقاء المعالى وتسمم الكمال ، وليتهم - لما أخلدت بهم أهواؤهم إلى الأرض - اعترفوا بالقصور ، وتواروا بخزيهم .

لا ، إنهم شرعوا يهونون من شأن الخلال الكريمة التي عجزوا عن تحصيلها ، وراحوا يصفونها بأنها قيود على الطبيعة البشرية تورث الضر والاكتئاب ... !! ومن هنا كانت السمة البارزة في عصرنا المتسارعة في إشباع الهوى ، واسترضاء الغرائز الدنيا حتى تروى .

ورى هذه الغرائز عن طريق الحرام - لا يزيدوها إلا ضراوة ، فهى تطلب المزيد دون أن تدرك الشبع .

وال المجتمع البشري الذى تدور حركاته على هذا المحور مجتمع طافح بالإثم سىء العقلى ، تطيش به نوازع الشره والأثرة ، وتتولد فيه مشاعر الحسد والبغضاء ، وقلما ينجو من إثارة الفساد وسفك الدماء .

و تلك آفة الحضارة بعدما زهدت في الدين ، و تبرمت بتعاليمه : ﴿فَهُلْ عَسِيْتُمْ إِنْ تَوَلَّتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنْهُمُ اللَّهُ فَأَصْمَمُهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ (محمد: ٢٢) .

والحق أن اتباع الهوى إن كان يطمس على حواس الأفراد ، فهو على المجتمعات الضالة - يضرب ليلا طويلاً الظلام ، بارد الأنفاس ، بعيد الفجر ... ونريد أن نسأع إلى نفي شبهة تروج عند الجاهلين بالإسلام ، هي أنه يحرم الناس أموراً كثيرة ، ما تطيب الحياة إلا بها ، ويعترض رغبات شتى ما يستريح الخلق إلا بإشباعها ...

وهذا خطأ فإن الإسلام ما حرم طيباً ولا حظر خيراً، وكل ما تعتمد به الطبيعة البشرية وتستقيم فهو مباح لها.

إن الله ما حرم على الناس إلا ما علم أنه يزيغ بهم عن الصراط، ويتسارع بهم إلى الشر.

والإسلام لم ينكر قط الطبيعة المادية للإنسان، ولا حقوق الفترة التي يقضيها على ظهر هذه الأرض.

غاية ما صنع أنه ذكر الإنسان بأنه مادة وروح، وأن صلته بالسماء أعرق من صلته بالأرض، ولذلك ينبغي أن يرعاها، وأن يلتزم مطالبها ... !!

وفي أثناء وفاته بحقوق هذه الصلة العليا سوف تนาزعه نفسه أن يتذكر لها، وأن يتمرد عليها، وهنا يجب أن يكبح جماحها، وأن يكرهها على قبول ما يضايقها. ومجاهدة النفس في هذا المصمار خلق لا ينفك عن مؤمن، ولا يسوغ استثناؤ أمره أو الترخص فيه.

ولما ترتفع منازل المؤمنين ويتألق جبين أهل التقوى، بمقدار انتصارهم على شهواتهم وأمتلاكهم لزمام رغباتهم

إن العراق الباطنى لا ضجيج له، ولا سلاح فيه، ولكن هذا العراق أخطر فى نتائجه من المعارك التى تنتشر فيها الأشلاء، وتبدل فيها الدماء.

ذلك ، لأن جهاد النفس هو الطريق الحقيقى لبلوغ القمم التى تجعل الإنسان يحتضن المثل العليا ، ويبذل دونها النفس والنفيس ، وقد جاء فى الأثر أن الرسول ﷺ قال عقب العودة من إحدى غزواته : «رجعنا من jihad الأصغر إلى jihad الأكبر»^(١) .

قال عمر بن الخطاب : «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، فإنه أهون عليكم فى الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم قبل يوم القيمة ، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعَرَّضُونَ لَا تَخْفِي مِنْكُمْ خَافِيَةً﴾

. (الحادة : ١٨) .

وعن الحسن قال : «إن المؤمن قوام على نفسه ، يحاسب نفسه لله عز وجل ، وإنما خف الحساب يوم القيمة على قوم حاسبوا أنفسهم فى الدنيا ، وإنما شق الحساب يوم القيمة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة .

(١) لم أجده حديثاً صحيحاً فوضعته بأنه أثر ... وحسب.

إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَفْجُؤُهُ الشَّيْءَ يَعْجِبُهُ فَيَقُولُ : وَاللَّهِ إِنِّي لَا شَهِيدٌ لَكَ مَنْ حَاجَتِي ، وَلَكُنْ وَاللَّهِ مَا مِنْ صَلَةٍ إِلَيْكَ ، هِيَهَاتُ هِيَهَا ، حِيلٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ .
وَيَفْرَطُ مِنْهُ الشَّيْءَ فَيُرْجِعُ إِلَى نَفْسِهِ فَيَقُولُ : مَا أَرَدْتُ إِلَى هَذَا ، مَالِي وَلَهُذَا ،
وَاللَّهُ لَا أَعُودُ إِلَى هَذَا أَبْدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَوْمٌ أُوتُّقُهُمُ الْقُرْآنَ وَحَالٌ بَيْنِهِمْ وَبَيْنَ هَلْكَتِهِمْ .

إِنَّ الْمُؤْمِنَ أَسِيرٌ فِي الدُّنْيَا يَسْعِي فِي فَكَاكِ رَقْبَتِهِ ، لَا يَأْمُنُ شَيْئًا حَتَّى يَلْقَى
اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ، يَعْلَمُ أَنَّهُ مَأْخُوذٌ عَلَيْهِ فِي سَمْعِهِ وَبَصْرِهِ ، وَلِسَانِهِ وَجُوارِحِهِ .
وَعَنِ الْحَسْنِ ، فِي وَصِيَّةِ لَقْمَانَ لَابْنِهِ : « يَا بْنَى إِنَّ الإِيمَانَ قَائِدٌ ، وَالْعَمَلُ سَاقِيٌّ ،
وَالنَّفْسُ حَرُونٌ ، فَإِنْ فَتَرَ سَاقِهَا ضَلَّتْ عَنِ الطَّرِيقِ ، وَإِنْ فَتَرَ قَائِدَهَا حَرَنَتْ ، فَإِذَا
اجْتَمَعَا اسْتَقَامَتْ .

إِنَّ النَّفْسَ إِذَا أُطْمِعَتْ طَمَعَتْ ، وَإِذَا فَوَضُّتْ إِلَيْهَا أَسَاءَتْ ، وَإِذَا حَمَلَتْهَا
عَلَى أَمْرِ اللَّهِ صَلَحَتْ ، وَإِذَا تَرَكَتْ الْأَمْرَ إِلَيْهَا فَسَدَتْ .
وَاحْذَرْ نَفْسَكَ وَاتَّهِمْهَا عَلَى دِينِكَ ، وَأَنْزِلْهَا مَنْزِلَةً مِنْ لَا حَاجَةَ لَهُ فِيهَا ،
وَلَابِدُ لَهُ مِنْهَا .

وَإِنَّ الْحَكِيمَ يَذَلُّ نَفْسَهُ بِالْمَكَارِهِ ، حَتَّى تُعْرَفَ بِالْحَقِّ ، وَإِنَّ الْأَحْمَقَ يَخِيرُ نَفْسَهُ
فِي الْأَخْلَاقِ ، فَمَا أَحْبَبَ مِنْهَا أَحْبَ ، وَمَا كَرِهَ مِنْهَا كَرِهً .

وَحَدَثَنَا أَبُو عَبِيدِ النَّاجِيُّ أَنَّهُ سَمِعَ الْخَيْرَ يَقُولُ : حَادَثُوا هَذِهِ الْقُلُوبُ إِنَّهَا
سَرِيعَةُ الدُّثُورِ ، وَأَقْرَعُوا هَذِهِ الْأَنْفُسَ فَإِنَّهَا طَلْعَةٌ ، وَإِنَّهَا تَنَازِعٌ إِلَى شَرِّ غَايَةٍ .
إِنَّكُمْ إِنْ تَقَارِبُوهَا لَمْ تَبْقِ لَكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ، فَتَصْبِرُوهَا وَتَشَدِّدُوا ، فَإِنَّمَا
هِيَ لِيَالٍ تَعْدُ ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ رَكْبٌ وَقُوفٌ ، وَيُوْشِكُ أَنْ يَدْعُى أَحَدُكُمْ فِي جِيبٍ وَلَا
يُلْتَفِتُ ، فَانْقَلِبُوهَا بِصَالِحٍ مَا بِحُضُرَتِكُمْ :

إِنَّ هَذَا الْحَقَّ أَجْهَدَ النَّاسَ وَحَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ شَهْوَاتِهِمْ وَإِنَّمَا صَبَرَ عَلَى هَذَا
الْحَقَّ مَنْ عَرَفَ فَضْلَهُ ، وَرَجَا عَاقِبَتِهِ . . .



من تجارب المريين

فى تراثنا الثقافى القديم دراسات جيدة للنفس الإنسانية ، وكيف تخلص من أدوائها ، وكيف تقضى فى طريقها إلى الله منقاً مشرقة .

وعيب هذه الدراسات أنها كعروق الذهب فى باطن الصخور ، لا تحصل عليها إلا بعد عناء ، وتدبر ، واعمال حيلة !

وقد تراكم عليها فى عصور الضعف العلمى والسياسي ما جعل أمرها يزداد تعقيداً ، حتى ليغشى البعض أن النتائج التى يعود بها الباحث أقل قيمة من مخاطر الطلب ، بل إن هذه النتائج نفسها قد تفهم على غير طبيعتها ، ومن ثم فالزهد فيها أولى . ونحن لا نريد إطراح ثقافتنا التقليدية ، أو جزء منها للمتابعة والظنون المتوقعة .

ومن أجل ذلك رأينا أن ننظر فى كتب التصوف ، وأن ننتقى من كلمات القوم ما نظنه مصدر نفع كريم .

وفى هذا الفصل نضع بين يدى القارئ كلمات ابن عطاء الله السكندرى مجرد من الشروح التى أحاطت بها ، إذ أن هذه الشروح للاسف فيها باطل كثير .

وسأتولى شرحها بإنجاز ، فى حدود ما توحى به الكلمات ، وعلى ضوء المعروف من تعاليم الإسلام . راجياً أن تكون هذه الكلمات الحكيمية إيناساً لمن يأخذون أنفسهم بضروب التربية ، ووصفاً لعالم الطريق من أناس خبراء بها مهرة فيها .

التعجب الصائمه

«اجتهادك فيما ضمن لك ، وتقسيرك فيما طلب منك ، دليل على انطمام البصير» .
لكل حقوق وعليك واجبات ، وكثير من الناس يطلب باللحاح ما له من حقوق ،
بل يطلب باللحاح ما يرى أنه حق له . أما الواجبات التي عليه يقينا فهو يماري فيها
حينما ، ويؤديها بكميل واسترخاء ويحس حينما آخر ، وربما جحدها . . .
وهذا الطراز من الناس – وما أكثره بيننا – أدنى إلى الدواب التي لا تحس إلا ما
تحتاج إليه ، فأما ما تكلف به فهي لا تعرفه إلا من لذع السياط . . .
إذا تجاوزت ما يتعامل به الناس من حقوق وواجبات إلى العلاقة بين الناس
ورب الناس وجدت الأمر أنكى .

الناس وراء لقمة الخبز يكاد يصيبهم مس ، مع أن الله لو وكل رزق الخلائق إلى قواها لبادت .
إنه ضمن الأرزاق لعباده ، وأجرى مصادرها بين أيديهم رخاء .
ومع هذا فهم مكرهون في طلب العيش الذي كفل لهم ، أما إحسان الصلة بالله
وتوجيه الفكرة إليه ، والتعاون مع الآخرين على إقامة دينه والتزام حدوده فهو ما
يقصرون فيه ، أو ينصرفون عنه .
إن الله أراحهم من هموم الرزق ، وكلفهم بشئون العبادة ، فتكلفوا هم هموم الرزق
واستراحوا من شئون العبادة .

الله يقول : ﴿وَأَمْرُ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلنَّقْوَى﴾ (طه : ١٣٢) .

وهؤلاء يصيرون ، وأهلوهم معهم الخبز ، الخبز . . . !! ، ناسين الله وناسين وعده
 بالإغاثة والتيسير ، لا شغل لهم إلا طلب الدنيا .

وهذه الدنيا نفسها لا تجيء إلا من لدن الله الذي تركوه . . . !!
ما تقول في أمر يتقاعس عندما يحتاج الأمر إلى همة ونشاط ، وبهتم وينشط
عندما يكون الأمر قريباً من أصابعه؟ .
إن هذا المسلك مع الله دليل انطمام في البصيرة .

استجفال الشهرة

«ادفن وجودك فى أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه» .

هذه الكلمة أفضل توجيه لمن يريدون الظهور على عجل ، ومن يتوهمن أن نصيباً قليلاً من المعرفة والخبرة كاف في الترشيح لقيادة الجماهير ، والصدارة بين الناس ، وهؤلاء في الحياة لا حصر لهم .

إن منصب الإمامة في آفاق الدنيا أو في آفاق الدين يتطلب صبر السنين ، وتغصين الجبين .

فليصنع المرء نفسه أولاً في عزلة وفي صمت وفي تؤدة ، كالشجرة التي يختفي أصلها في ظلمة التراب أمداً تتكون فيه التكون الصحيح ، ثم تبدأ تشق طريقها إلى الهواء والضوء .

ما ضر الشباب أن يتواروا قليلاً أو كثيراً فلا يطلعوا على الناس إلا بعد أن تكتمل ملائكتهم؟ .

إنك ترى الواحد يكتب عدة مقالات فيحسب نفسه من قادة الفكر ، أو يحسن بضعة أعمال فيزعم نفسه من ساسة العالم ، ولو أثر «ال الخمول » فترة ينضج فيها لكان خيراً له .

ثم من الإيمان - إذا استويت - أن تقوم بما عليك لله - لا للظهور ، فإن الذي يطلب وجوه الناس يسقط من عين الله .

فاحذر على نفسك أمنرين : أن تنزع إلى البروز قبل استكمال المؤهلات المطلوبة ، وأن تستكمل هذه المؤهلات لتلتفت بها أنظار الناس إليك .

تسليمة لله

«ما ترك من الجهل شيئاً من أراد أن يحدث في الوقت غير ما أظهره الله فيه» .
لا تحسين القدر يجري وفق هواك : إن وراء الواقع الذي نهش له أو نضيق به حكمـاً علينا تجعلـ الحـوادـث تـسـيرـ ، وهـى لا صـلـة لـهـا بـرـضاـنـاـ أو سـخـطـناـ . . .
فـمـن أـرـاد تـغـيـير قـدـرـ غالـبـ ، وأـحـب تـقـدـيم شـىـء أـخـرـه اللـهـ ، أو تـأـخـير شـىـء قـدـمـهـ اللـهـ ، فـهـو يـنـطـح الصـخـرـ ، ولـن يـسـتـفـيدـ مـنـ ذـلـكـ إـلـا تـصـدـيـعـ رـأـسـهـ .
وـالـعـاقـلـ يـرـسـمـ خـطـتـهـ عـلـىـ آـنـ مـاـ حدـثـ حـقـيـقـةـ لـاـ مـنـاصـ مـنـ الـاعـتـرـافـ بـهـاـ ثـمـ يـبـنـىـ سـلـوكـهـ بـعـدـ ذـلـكـ وـفـقـ مـاـ يـشـيرـ بـهـ الـحـزـمـ ، وـيـوحـىـ بـهـ السـدـادـ . . .
وـخـيـرـ لـلـمـرـءـ آـنـ يـتـهـمـ هـوـاهـ مـنـ آـنـ يـسـخـطـ عـلـىـ الزـمـنـ .
وـأـسـتـطـيـعـ - عـلـىـ ضـوـءـ تـجـارـبـيـ - آـنـ أـؤـكـدـ لـغـيـرـيـ هـذـهـ الـخـلاـصـةـ ، وهـىـ آـنـ أـكـثـرـ مـاـ نـفـعـنـىـ كـانـ نـمـاـ ضـقـتـ بـهـ بـادـىـ الرـأـىـ ، وـآـنـ الـآـلـامـ الـمـزـعـجـةـ وـالـشـدـائـدـ الـبـاهـظـةـ هـىـ التـىـ فـتـقـتـ الـعـقـلـ وـنـمـتـ الـمـوـاـهـبـ وـأـمـاطـتـ النـقـابـ عـمـاـ نـجـهـلـ مـنـ شـئـونـ وـشـجـونـ وـصـدـقـ اللـهـ الـعـظـيمـ ﴿وَعَسَىَ أَنْ تَكْرُهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىَ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢١٦) .

من خداع الشيطان

«إحالتك لتلك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس». التسويف خدعة النفس العاجزة والهمة القاعدة. ومن عجز عن امتلاك يومه فهو عن امتلاك غده أعجز.

والتسويف يجئ غالباً من امتداد الأفكار البالية التي يحب الفكاك منها على عجل، ومن طغيان الشهوات التي لا يجوز لسلم أن يستسلم لها، ويترافق معها. إن إرجاء المعركة مع الهوى الغالب، اعتراف بالعجز عن مقاومته.

ومن الرجولة أن يبدأ المرء - اليوم قبل الغد، والصبح قبل الأصيل - هجومه على المثبتات والعواائق، وأن يكتسحها من طريقه اكتساحاً، دون إبطاء أو تهيب، وكل تسويف لا نتيجة له إلا إطالة عمر الشر وقصير عمر الخير في حياة الإنسان، فانظر المصير مع قول الله : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوْدُ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمْدَأْ بَعِيدًا وَيَحْذِرُكُمُ اللَّهُ نَفْسُهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعَبَادِ﴾ (آل عمران : ٣٠)

﴿يُنَبِّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخْرَى﴾ (القيامة : ١٣).

وفي الحديث : «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ»^(١).

(١) البخاري .

ثق في ربك

«ما توقف مطلب أنت طالبـه بربك ، ولا تيسـر مطلبـ أنت طالـه
بنفسـك ...» .

عندما خاض المسلمين معركة بدر كانوا يحسون أن القتال فرض عليهم دون أن يأخذواـه أهـبته الواجبـة ، فـكان اعتمـادهم عـلـى الله شـديـدا ، والـتمـاسـهم عـونـه بالـغا .

وتضاءـلـ شـعورـهم بـأنـفسـهم حـتـى استـخفـى ، وـتضـاعـفـ ذـكرـهم لـلهـ حـتـى لـكـأنـ اللهـ
هوـ الذـى يـدـيرـ المـعرـكـة ، وـكـأنـ خـيـلـهـ وـرـجـلـهـ أـدـوـاتـ المـشـيـةـ الـعـلـيـا .

منـ أـجـلـ ذـلـكـ جاءـتـ نـتـيـجـةـ المـعـرـكـةـ نـصـرـاـ باـهـرـاـ لـلـذـينـ خـاصـسـهـاـ باـسـمـ اللهـ ،
وـجـاءـ فـيـ وـصـفـ أـدـوارـهـ ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ
الَّهُ رَمَى﴾ (الأـنـفـالـ : ١٧)

والـحـقـ أـنـ المـرـءـ يـكـونـ قـوـةـ غالـبـةـ عـنـدـمـاـ يـعـمـلـ ، وـهـوـ يـسـتـمدـ منـ اللهـ العـزـمـ وـالـجـهـدـ
وـالـتـوـفـيقـ وـالـنـجـاحـ .

وـقـدـ كـانـ رـسـولـ اللهـ يـلـقـىـ الأـعـدـاءـ بـهـذـاـ الرـوـحـ الـمـسـتـظـهـرـ بـبـأـسـ اللهـ وـحـدهـ ، فـكـانـ
يـقـولـ : «الـلـهـمـ بـكـ أـصـوـلـ وـبـكـ أـجـوـلـ وـبـكـ أـقـاتـلـ . اللـهـمـ إـنـاـ نـجـعـلـكـ فـيـ نـحـورـهـمـ
وـنـعـوذـ بـكـ مـنـ شـرـوـرـهـمـ»^(١) .

أـمـاـ إـذـاـ شـمـخـ إـلـإـنـسـانـ بـحـولـهـ وـطـولـهـ ، وـأـنـسـ بـماـ أـعـدـ ، وـذـهـلـ عـنـ اللهـ الذـىـ تصـيـرـ
إـلـيـهـ الـأـمـورـ ، المـهـيـمـ عـلـىـ زـمـامـ الـحـيـاةـ ، فـإـنـ النـتـائـجـ تـفـجـؤـهـ بـماـ لـاـ يـتـوقـعـ .

استـرـاحـ الـسـلـمـونـ لـكـثـرـتـهـمـ فـيـ مـعـرـكـةـ حـنـينـ وـقـالـوـ : لـنـ نـغـلـبـ الـيـوـمـ عـنـ قـلـةـ وـنـظـرـ
بعـضـهـمـ إـلـىـ بـعـضـ فـلـمـ يـرـواـ إـلـاـ كـتـائـبـ مـعـبـأـةـ لـاـ يـثـبـتـ لـسـطـوـتـهـاـ أـحـدـ .

فـتـبـخـرـ اـعـتـمـادـهـمـ عـلـىـ السـمـاءـ ، وـلـمـ يـرـتـقـبـواـ النـصـرـ إـلـاـ مـنـ عـنـدـ أـنـفـسـهـمـ .

(١) أبو داود .

شنان بين هذا الشعور الذاهل الكليل وبين الشعور الذي غمر سرائرهم في معركة بدر . فماذا كانت النتيجة ؟ .

يقول الله في كتابه : ﴿... وَيَوْمَ حُنِينٍ إِذْ أَعْجَبْتُكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَّ ثُمَّ وَلَيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ (التوبه : ٢٥) .

هذه عقبى الاغترار بالنفس والذهول عن الله .

وهي العقبى التي ذاق المسلمون مرارتها عند جبل أحد : ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلِهَا قُلْتُمْ أَنِّي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ﴾ (آل عمران : ١٦٥) .

إن التعويل على النفس مهما أحكمت الأمور واستكملت الأسباب لا يفتح أبواب الخير فما أكثر التغرات في جهد الإنسان ورأيه إذا أراد القدر خذلانه .

والواجب أن يستعين بالله في كل شيء . فإن عونه إذا تخلف لم يغرن عنه شيء .

بل سيكون الأمر على حد قول القائل :

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنَ مِنَ اللَّهِ لِفَسْتِي فَأَوْلَ مَا يَجِدْنَى عَلَيْهِ اجْتَهَادٌ...

ومعنى طلبك الشيء بالله أن تضم «سببه القوى» إلى ما بيديك من أسباب ، لا أن تكسل أو تفرط ، فإن الكسل والتفرط ليسا طلبا من الله ، بل هما عصيان لله وخروج على سننه الكونية المقررة .

اليأس من الناس

«ما بسقت أغصان ذل إلا على بذور طمع» .

الإنسان يكون في أشرف أحواله عندما يتبتل إلى الله ، فلا يرجو إلا جدah ولا يؤمل فيما سواه .

هذه الحالة تقوم على إدراك عقلى سديد لطبائع الأمور .

فماذا يرجو الفقير من فقير مثله ، وماذا يبغى العاجز من عاجز مثله .

إن المسلك الرشيد الوحيد ألا يقف المرء سائلا إلا بباب الله القوى الغنى ، أما أن يتولد في نفسه رجاء عند ذي جاه من الخلق ، فهذا هو الحمق ، وما أحسن قول الشاعر :

ولى بالله إيمان وثيق ف عن لكم بایمان وثيق
قويت به ف ما أعني شارعه ولا أشكوع شارعه فى طريق
ولا أرجو المبرة من عدو ولا أخشى المضرة من صديق

وما طمعك في بشر لو اعتدت عليه ذبابة لم يستطع الانتصار منها؟ .

إن جرثومة مرض ما - وهي أقل وأضال من الذبابة - تسلب الجبار من الخلق صحته ، فيحار كيف يستردتها منها؟ .

وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مُثُلٌ فَاسْتَمْعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلِبُوهُمُ الذَّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾ (الحج : ٧٣) .

والغريب أن الطمع في العبيد خالط ألف القلوب فأفسدها .

هذا عالم يتكلم بصوت خفيض وطرف كسير مع الحكام الجائرين .

ولوشاء لرفع صوته كالرعد ، ولكنه يهمس حينا ويحرس أحيانا لأن بذور الطمع نمت في نفسه فأذلتة . . .

إن تطلعه إلى ما يملك فلان من مال ، وإلى ما يهب فلان من جاه جعله يلين
وينكسر وينكمش .

ولو أنه يئس من عطاء الخلق ، وأنس بعطاء الخالق ، لكان أعز نفسا وأعلى رأسا .

وكم من أناس أزري بهم طمع في هذا وأمل في ذاك .

وكم من حقوق طمست ، ومصالح عطلت؟ وأوضاع اعوجت بسبب أطماع
نفسية محقورة .

واليأس من الناس يحتاج إلى تدريب النفس على العفة والأفة ، وعلى اكتفاء
ذاتي يصدها عن التطلع إلى ما بأيدي الآخرين ، والاستغناء بالقليل الموجود عن
الكثير المشتهى .

قال محمد بن بشير :

وأجْتَزَى مِنْ كَثِيرِ الزَّادِ بِالْعُلَقِ
مَغْقُودَةً لِلنَّاسِ فِي عُنْقِي
وَكَانَ مَالِي لَا يَقْوِي عَلَى خَلْقِ
عَارٍ وَيُشَرِّعُنِي فِي الْمَنْهَلِ الرَّتِقِ

لَأَنَّ أَرْجَحِي عَنْدَ الْعُرْرَى بِالْخَلْقِ
خَيْرٌ وَأَكْرَمٌ لِي مِنْ أَنْ أَرَى مِنْهَا
إِنِّي وَإِنْ قَصَرْتُ عَنْ هَمْتِي جِدَّتِي
لَتَّارِكُ كُلَّ أَمْرٍ كَانَ يَلْزَمُنِي

نقص القادرین على التمام

«ربما كنت مسيئا فأراك الإحسان منك صحيتك لمن هو أسوأ حالاً منك». الأعور أحسن حالاً من العميان ، ولكن العور ليسى كمالاً في الأجسام أو صحة في الحواس .

ومن الناس من يقارن جهده المحدود بأعمال أهل البلادة ، أو علمه القليل بأفكار أهل الجهلة فيظن نفسه على شيء طائل ، وهو في الحقيقة فقير إلى ما يكمل مواهبه ولكنه مخدوع .

إن النظر إلى أدنى حجاب قاطع ، أو هو عائق عن الرفعة المنشودة . وإذا أحببت أن تقارن نفسك بغيرك فلا تنظر إلى الدهماء ثم تقول : أنا أفضل حالا ، بل انظر إلى العلية ثم قل : لماذا أقصر عنهم؟ يجب أن أمضي في الطريق ، ومن سار على الدرب وصل ...

كثير من الأذكياء وفهم في منتصف الطريق أو في مبادئه أنهم صحبوا نفرا من القاصرين والعجزة ، فغرهم ذلك بأنفسهم وستر عنهم ما كمن فيهم من نقص أو أخفى عنهم ما يطيقونه من درجات الكمال لو نشطوا .

وهذه الصحبة وبال على الإنسان ، لأنها قيدت الهمة وشلت الطموح . ولذلك ينصح ابن عطاء الله قبل ذلك فيقول : «لا تصاحب من لا ينهض حاله ولا يدلك على الله مقاله . . .» .

أحدِرُكَ نفْسَكَ

«أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس ، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا عنها ، لأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه فأى علم لعالم يرضى عن نفسه؟ وأى جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه»؟

لا يبحث عن الشفاء إلا من أحس المرض ، أما من أصيب بعلة فلم يشعر بها ولم يستشف منها ، فإن جراحتها تستشرى في أوصاله حتى تأثرت عليه . وكذلك النفس الإنسانية لا يطلب لها العافية إلا من أدرك ما بها من أدوات والشعور بالنقص أول مراحل الكمال .

وقد قال الله تعالى على لسان أحد أنبيائه المطهرين : ﴿ وَمَا أَبْرَئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَا مَارَأَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَأَمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (يوسف : ٥٣) .

فإذا وجدت امراً راضياً عن نفسه فا فقد فيه الأمل ، لأنه ينطوي على ركام من العيوب والنقائص وهو لا يلتمس الخلاص منها بل إنه فقد الشعور بوضاعتها . وهيئات مثل هذا اكتمال أو نجاة .

والعلم النظري لا يرفع قدر أصحابه ، فأى قيمة لشخص يختزن في رأسه قدرًا من المعلومات ولكن نفسه طافحة بأثام لم تعالج وخشونة لم تهذب ، ثم هو مع ما يختزن من معرفة - لا يدرى أنه عليل .

مثل هؤلاء يكون علمهم آفة ، لأنه يقوى جهالاتهم ولا يزيلها ، ويغرهما بما أوتوا بدلاً من أن يزيل من أنفسهم ما يسوءها .

وأفضل من هؤلاء رجل قليل المعرفة عميق الإخلاص كثير التفتيش عن عيوبه مجتهد في تزكية نفسه وترقية أحواله ، وإن هذا أرجى عاقبة وأرقى عاجلة من العلماء الكبار إذا رضوا عن أنفسهم ، وغفلوا عن إصلاحها . . .

الاستكانة لله

«ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول ، وربما قضى عليك الذنب فكان سبب الوصول . معصية أورثت ذلا وانكسارا خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا» .

قديماً وحديثاً ضاق العلماء الراسخون بنفر من أهل العبادة يحسنون الشكل ولا يحسنون الموضوع ، يكثرون التصويب ولا يصيرون الهدف ، يقيمون الظواهر بدقة ولا يدركون من الحقائق شيئاً . . .

هؤلاء الناس كانوا قد يناديوا حجّة على الدين لا سناداً له وعواقب تصد عن العبادات لا شواهد تدعولها وتغري بها .

يصلون ، أفتدركى كيف خرجت صلاتهم منهم؟ .

«خرجت - كما يقول الرسول ﷺ في وصف صاحبها - وهى سوداء مظلمة ، تقول ضيعك الله كما ضيعتني ، حتى إذا كانت حيث شاء الله ، لفت كما يلف الثوب الخلق ، ثم ضرب بها وجهه»^(١) .

ويصومون ، أفتدركى ما قيمة صيامهم؟ .

هى كما قال الرسول ﷺ : «رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع ، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر»^(٢) .

إن العبادة جسم وروح ، والقبول الإلهي يكون لمن قدمها حية لا ميتة .

ولذلك روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : «لا يقبل الله من عبد عملاً حتى يشهد قلبه مع بدنـه»^(٣) .

وعن ابن عباس مرفوعاً : «مثل الصلاة المكتوبة كمثل الميزان . من أوفى استوفى»^(٤) .

(٢) ابن ماجه .

(١) الطبراني .

(٤) البيهقي .

(٣) مسنـد الفردوسـى .

وإحسان الشكل قليل الغناء على صاحبه وعلى الناس .

أعرف بعض الفلاحين تصيبه الجنابة فيذهب إلى إحدى الترع فيغمر جسمه في الماء ثم يخرج منه وقد طهر ! .

فإذا ما اقترب منك شممت منه رائحة منفرة لما تراكم على جسمه من درن وعرق .

ما جدوى هذا الغسل الذى لم يذهب وسخا ، ولم يضف على صاحبه وضاءة ، ولم يهد له بين الناس قبولا؟ .

كذلك الطاعات التى يؤديها بعض الناس بهذا الأسلوب ، ربما استكملت المراسيم الشكلية ، ولكنها فقدت حقيقتها وثمرتها ، ومن ثم لا تحظى بشئ طائل عند الله .

والأساس فى الطاعة أنها تجعل الإنسان يتحقق بأوصاف عبوديته بين يدي ربه ، ومع صنوف الخلق .

والعبودية تناهى الصلف والغطرسة والجفوة ، لأنها تواضع ولين جانب وسهولة خلق .

وقد تجد ناسا من المؤسومين بالعبادة يتذرون بما يؤدون من طاعات للاستعلاء على الخلق ، والغض من الآخرين ، على حين تجد ناسا ليسوا على غرارهم أسلس قيادا ، وألين عريكة .

وربما ارتكب أحدهم الذنب فيفزع لارتكابه ، وينكسر فؤاده مع الله لما فرط في جنبه .

ولعل استشعاره الخزي على فعلته ، وإن كانه الألم فى أوبته يجعله أدنى إلى الحق وأقرب إلى مثبتة الله - بهذا الذنب - من أولئك الذين لم يستفيدوا من طاعتهم إلا الجحافة والقسوة .

وغرير أن يقع فى السلوك الإنسانى هذا التفاوت ولكنه موقف الناس مما أمروا به ونهوا عنه !! .

إن الله شرع العبادات ليتواضع العباد بها لا ليستكروا ، وليسقبلوا بها رحمة ،

ثم يلقو بها سائر الخلق وفي قلوبهم رقة ، وفي نفوسهم وداعه ، وفي سيرتهم طيبة .
إذا وجدت من العابدين من ينقطع دون هذه الغاية ، فهو لم يعبد حقا ، ولم يدرك
قبولا .

وقد كره الله العاصي وحرمها على الناس ، وسخر جهنم لقتفيها .
ومع ذلك فإن بعض الناس تكون العصية وخزاً لضميره النائم وحزنا ينCDF في
قلبه فإذا هو دامع العين متهيب لبطش الله به .
إن تهيب هذا العاصي أفضل من كبراء ذلك العابد .

وعلى ضوء هذا الكلام تفهم ما حديثه رسول الله ﷺ : « قال رجل : والله
لا يغفر الله لفلان ! فقال الله عز وجل : من ذا الذي يتأنى على ألا أغفر لفلان ؟
إني قد غفرت له وأحببت عملك » ^(١)

ولا يذهب أحد إلى أن هذا تهوي من شأن العبادة ، كلا إنه حماية للعبادة
الحقيقة ، وزراعة على العبادة المزيفة ، وتعليم للعباد ألا يغتروا بأنفسهم وبما قدموه .
وتحريض لهم أن يتعلقوا بذات الله ، وأن يكونوا كما وصف الصالحين من عباده :
﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجْهَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (المؤمنون : ٦٠)
كما أن الذنوب لا يمكن أن تكون موضع رضا ، بل هي سبب حقيقي لخزي
الدنيا وعذاب الآخرة .

ولكن الذنوب التي تؤرق أصحابها ، وتقض مضاجعهم ، وتسرع بهم إلى
المتاب ، لا تعد ذنوبا بعد ما غسلها التندم ، وتحولت إلى حاد يحث الركاب
إلى رب الأرباب .

(١) مسلم

المجسون في سجن المادة

«لا ترحل من كون إلى كون فتكون كحمار الرحى يسير والمكان الذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل منه ، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكوّن ﴿وَأَنَّ إِلَيْ رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ (النجم : ٤٢) ، وانظر إلى قوله ﷺ : فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهو هجرة إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهو هجرة إلى ما هاجر إليه»^(١) . فافهم قوله عليه الصلاة والسلام ، وتأمل في هذا الأمر إن كنت ذا فهم».

قال الله تعالى : ﴿وَالسَّمَاوَاتِ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشَنَاهَا فَعِمَّ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمَنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفَرِّوْا إِلَيْ اللَّهِ إِنَّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (الذاريات : ٤٧ - ٥٠)

هذه آيات خمس ، الثلاثة الأولى منها وصفت الأكوان علّوها وسُفلها وما انبث فيها من حياة وأحياء .

والاثنتان الآخريان انتقلتا من الأكوان إلى الملائكة فتحدثت عن وجوده ثم توحيده . ولفت الناس هنا إلى الله ، جاء بصيغة عجيبة «فَفَرِّوْا إِلَيْ اللَّهِ ...» . وهذا الفرار إنما يكون مما يحذر ويعاب .

والحق أن الانحصار في الكون والاحتباس بين مظاهره فواحش عقلية ونفسية لا يرضها أرب .

إن من له أدنى مسكة يعرف - من العالمين - من رب العالمين ، ويعرف - من الأكوان - صاحب هذه الأكوان !! .

إن هذا الملائكة الضخم الفخم من وداع ذراته إلى روائع مجراته شاهد غير مكذوب على أن له حالقا أكبر وأجل . . .

(١) البخاري .

إنها لجهالة أن يغمس هذا الإله العظيم حقه ، وإنها لنذالة أن يوجد بشر ينكره ويسفة عليه .

ولكن . ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ (النحل : ٤) والعاقل ينظر في الكون فيتعلم منه تسبيح الله وتحميه ، ويستنتاج من قوانين الحياة وأحوال الأحياء ما يستحقه المولى الأعلى من أسماء حسن ، وصفات عظمى . . . والناس صنفان ، صنف يعرف المادة وحدها ويجهل ما وراءها ، ولا تتحدث الآن عن هؤلاء . . .

وصنف مؤمن بالله مصدق بلقاءه ، ولكن هائم في بياد الحياة ، ذاهل وراء مطالب العيش ، مستغرق المشاعر بين شتى المظاهر ، فهو لا يكاد يتصل بسر الوجود ، أو يتمحض لرب العالمين .

ومع هذا الصنف المؤمن نقف لنرسل الحديث . . .

هناك قوم لا تخلص لله معاملاتهم ، بل هي مشوبة بحظوظ النفس ورغبات العاجلة ، وهؤلاء لن يتتجاوزوا أماكنهم ما بقيت نياتهم مدخلة ، حتى إذا شرعت أفتادتهم تصفو بدعوا المسير إلى الأمام .

وهناك قوم يعاملون الله وهم مشغولون بأجره عن وجهه أو بطلابهم منه عن الذي ينبغي لهم ، وهؤلاء ينتقلون عن أنفسهم من طريق ليعودوا إليها عن طريق آخر . إنهم مقيدون بسلسل متينة مع أنانيتهم فهم يسيرون ولكن حولها ، لو حست معرفتهم لله ما حجبتهم عنه رغبات مادية ولا معنوية ، بل لطغى عليهم الشعور به ، وبما يجب له ، وتحطوا كل شيء دونه ، فلم يهدعوا إلا في ساحته ، ولم يطمئنوا إلا لما يرضيه هو جل شأنه ، على حد قول أبي فراس :

فليتك تحلو والحياة مريرة
وليتك ترضي والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك ع Amar
وبيني وبينك خراب
وكذلك الذي فوق التراب تراب
إذا صاح منك الود فالكل هين

وابن عطاء الله يرى أن العامة يتددون بين مأربهم ، كحركة بندول الساعة لا تتجاوز موضعها على طول السعي ، أو هم على حد تعبيره كحمار الرحي ينتقل من كون إلى كون ، والمكان الذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل منه .

والواجب على المؤمن أن يقصد وجه الله قصدا ، وأن يتفضّل تفصيًّا عن ألوه الأربطة التي تشده إلى الدنيا ، وتخليد إلى الأرض !! .

ومن خداع الحياة أن المرء قد يعمل لنفسه وهو يحسب أنه يعمل لله ، ولو وضع بوعشه الكامنة تحت مجهر مكابر لاستبان أن كثيرا من دواعي غضبه وسروره ، وتعبه وراحته ، يصلها بوجه الله خيط واه ، على حين تصلها بحظوظ النفس حبال شداد .

وهنا الخطر المخوف ، إن الهجرة إذا كانت لله فقد مضت وقبلت ، وإنما الأمر كما قال الرسول ﷺ : « ومن هاجر إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

والشعور بوجود الله ليس أمرا يتتكلف له الإنسان شيئا ، إنه شعور بالواقع . قد يكون لك حبيب مسافر مثلا فأنت إذا اشتقت إليه تخيل صورته ، وتحاول الأنس بالوهم عن الحقيقة .

ولكن الشعور بالله ليس تقريريا لبعيد ولا تجسيدا لواهم ، إنه شعور بالواقع الذي يعد تجاهله باطلا ، كشعورك مثلا - وأنت في البيت - بأنك في البيت ، أو شعورك - وأنت في القطار - بأنك في القطار

إنه الواقع الذي لا معدى عن الاعتراف به ، وبناء كل تصرف على أساسه . إن الألوهية لا تفارق العباد لحظة من ليل أو نهار ، ومن ثم فإن الغفلة عن الله غفلة عن الحق المبين .

وإذا كان الأعمى يعجز عن رؤية الأشياء فإن الأشياء لم تزل من مكانها لأن عينا كليلة لم تتبيّنها .

وإذا كان الناس مذهولين عن الحق المصاحب لهم الخيط بهم ، فذلك عمي تعود عليهم وحدهم معرته .

وقد كثر القرآن الكريم من إشعار الناس بهذه المعانى ، وصاح بهم وهم يفرون عنها ، إلى أين؟ ﴿ فَأَيْنَ تَذَهَّبُونَ ﴾ (التكوير: ٢٦) أين المذهب ﴿ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴾ (البروج: ٢٠) .

قال تعالى : ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعْكُمْ أَيْنَ مَا كُتِّبَ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الحديد: ٤، ٣) .

هو بصير بما نعمل ، وهو معنا حيثما كنا ! ألا تعين هذه الحقائق على صدق المعرفة ووحدة الشعور بوجوده وإشرافه ؟ .

ثم ألا يدل ذلك على أن ذكر الله ليس استحضاراً الغائب ؟ إنما هو حضورك أنت من غيبة ، وإنفاقتك أنت من غفلة !!

ولابد هنا من توكييد التفرقة بين وجود الله وجود العالم ، فإن بعض الناس يستغلون المعانى التى شرحناها للبس الحق بالباطل .

إن وجود الله مغاير لوجود سائر المخلوقات وهذا العالم منفصل عن ذاته جل شأنه انفصلاً تماماً .

قد تسمع بعض الفلاسفة أو بعض المتصوفين يقول : إنه يرى الله في كل شيء .

وهذا التعبير صحيح إن كان يعني أنه يرى آثاره وشواهده .

أما إن كان يعني وحدة الخالق والمخلوق ، أو وحدة الوجود كما يهرف الكذبة ، فالتعبير باطل من ألفه إلى يائه ، والقول بهذا كفر بالله والمرسلين . . .

ووصف الإحاطة الإلهية في هذا المجال وسيلة لا غاية ، وسيلة لتصحيح النية والجهد والهدف ، وإهابة بالإنسان أن يدير نشاطه البدنى والعقلى على مرضاة الله وحده .

وليت الناس يسعون في هذا الطريق بنصف قواهم ! لو أن امرءاً حاول استرضاء الله بنصف الجهد الذي يبذله في كسب المال ، أو التمكين في الأرض لقطع مرحلة رحبة في طريق الارتقاء الروحي والخلقى ، ولو أن امرءاً كره الشيطان ووساوشه بنصف الشعور الذي يكره به الآلام ، والخصوم لنال من طهر الملائكة حظا . . .

إن الله قد يقبل نصف الجهد في سبيله ، ولكنه لا يقبل نصف النية .
إما أن يخلص القلب له ، وإما أن يرفضه كله .

وقد أسلفنا القول أن الإنسان قد تحمل قلبه مقاصد شتى هي التي تبعه على الحركة والسكون ، وعلى الرضا والسخط ، وأن هذه المقاصد تباعث عن أنايته لا عن إيمانه بربه ، وابتغائه ما عنده .

والعلماء المربون يطاردون هذه المقاصد المتسللة إلى القلب ، وينعونها أن تثوى فيه ، ولا يتوازن في مطاراتتها حتى تخفي ويظهر القلب منها .

ذلك أن الإسلام دقيق جدا في تقويم العمل بالنسبة الباعثة عليه والغاية المصاحبة له ، فمن لم يكن الله وجهته في هجرته فلا عمل له ولا خير فيه .

وفي الحياة الآن ألف من المدرسين والأطباء والمهندسين والضباط والعمال والتجار والموظفين . . . إلى آخره يزحمون ظهر الأرض بحركة واسعة المدى ، فأما ما كان للتکاثر والتظاهر فسوف يلتصق بالتراب ، وربما بقى لصاحب طول حياته ، وربما افتقده قبل أن يموت وأما ما كان لله فهو مبارك الشمر متعد الأثر ، إن البقاء لما قصد به رب السماء ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (الشورى : ٢٠) .

ونعود إلى الصنف المسجون بين عناصر المادة لا يعرف غيرها ، إنه ينتقل من عنصر إلى عنصر ، وينسب مادة إلى مادة ، ويجد ما بعد ذلك .

وقد ناقشنا هؤلاء في مكان آخر ، ودحضنا ما ساقوا من شبه ، ونزير هنا كشف الستر عن بعض دعاوى القوم .

إن وصف الإيمان بأنه حركة رجعية ، والإلحاد بأنه حركة تقدمية وصف كاذب ، فالكفر قديم قدم الغرائز الخسيسة ، والأفكار السفيهية ، وتاريخ الحياة يتجاور فيه الخير والشر ، والصلاح والفساد ، فمن قال : إن الإيمان طبيعة أيام مضت وانتهى دورها ، وإن الكفر يجب أن يفسح له الطريق فهو دجال . . .

كذلك وصف الإيمان بأنه حركة فكر محدود ، والإلحاد بأنه حركة عقل ذكي ، أو وصف الإيمان بأنه منطق الدراسة النظرية ، والإلحاد بأنه منطق الدراسة العلمية

والبحوث الكونية ، هذا كلام خرافى لا حرمة له ، فإن جمهرة كبرى من قادة العلم الكونى والدراسات الحيوية يؤمنون بالله ، ويرفضون الزعم بأن الكون خلق من غير شيئاً .

والواقع أن الإلحاد يعتمد على الظنون والشائعات ، لا على اليقين والبراهين ، وأنه لم يثبت فى معمل أو مختبر بأن الله غير موجود ، وكل ما هنالك أن الماديين نسبوا للغير الله من النظام والإبداع ما لا تصح نسبته إلا لله .

كما وصف القرآن الكريم ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (يونس : ٣٦) .

أما الدلائل التى تغرس الإيمان فى القلوب ، عن طريق التفكير السليم فى هذا الكون الكبير فهى قائمة ناهضة .

من؟ إلا الله..!!

ذكر الطيار الروسي «تيتوف» مشاهده وهو فى الفضاء يدور بسفينته العجيبة حول الأرض ، لقد رأى مظاهر كونية شتى كلها ساحر رائع ، ثم قال :

«ولكن أروع من هذا كله منظر الأرض وهى معلقة فى الفضاء ، إنه منظر لا يستطيع الإنسان أن ينساه ولا أن يضيعه من خياله ، كرة تشبه الصور المرسومة لها فى الخرائط ، معلقة فى الفضاء ليس هناك من يحملها ، كل ما حولها فراغ ... فراغ ... فراغ .

وقد أصبحت بالذهول مدة لحظات ، وسألت نفسي فى دهشة : ترى ما الذى يبيهها معلقة هكذا هناك ...؟ .

والجواب : من إلا الله؟ إن هذا السؤال الذى توحى به الفطرة البريئة ، لا نرى أيسراً ولا أصرح ولا أخصر من إجابة القرآن الكريم عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَرُوْلَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (فاطر : ٤١) .

إنه هو الذى أبقيها معلقة هكذا فى مكانها ، كما أبقي القمر والشمس اللذين

نراها ملائكة ونهارا ، لا ركيزة لأحد هذه الكواكب إلا أعمدة القدرة العليا . قال تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًّا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ (القمان : ١٠)

إن سفينه الفضاء التي قب في داخلها يتوف ، لم تنطلق من تلقاء نفسها ولم تتجمع آلاتها ، وأجهزتها خبط عشواء ، ولم تقم برحلتها السماوية دون نظام محكم رسمه لها أذكي العلماء .

فهل يا ترى انطلقت الأرض في فضائها من تلقاء نفسها ، ودون مشرف على حركتها ، ودون تقدير دقيق لصلتها بغيرها من شتى الكواكب ، ودون رعاية حاجات الألوف المؤلفة من الأحياء المحتشدة فوق سطحها ... إن هذا ما ينفيه العلم نفسه ، وما تشهد بغيره سفينه الفضاء التي ركبها الرائد الروسي .

إننا نسأل مع الطيار الروسي : من الذي يستبقى الأرض ، وجميع الكواكب القريبة والبعيدة في مداراتها الرحبة ، تسبح دون إعباء ، ودون اضطراب في فضاء الكون العظيم ، ومن ينسق لها حركاتها ، فلا تصطدم ، ولا تنحرف !! :

إننا لا نسأل نحن بل القرآن نفسه يسأل ، ﴿ قُلْ مَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَقَوَّنَ ﴾ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلْكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَإِنَّمَا تُسْحِرُونَ ﴾ (الؤمنون : ٨٤ - ٨٩)

إن الإيمان ليس حالة تنشأ من ركود النشاط الفكري ، وتأثير العقل بالأوهام والخرافات ، وإيمان من هذا القبيل لا وزن له .

ولعلماء المسلمين كلام في قيمة إيمان المقلد ، لقد رفضه فريق منهم ، ورأى أنه لا يفيد صاحبه !

لماذا؟ لأن الله يقول : ﴿ وَأَنَّ لَيْسَ لِلنَّاسِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ (النجم : ٣٩) ، وإيمان المقلد ليس من سعيه ، وإنما هو من سعى غيره له .

أجل إنه من سعى الأذكياء الذين فكرروا ووصلوا ، أما هو فلم تعتمل في نفسه

فكرة ، ولم تتحرك في كيانه همة ، بل تتبع الآخرين دونوعى ، وهذا لا يعد جهدا محترماً حقيقةً بالمشوهة .

ومن ثم فنحن نحب أن يسأل «تيفوف» وأن يسأل غيره من الناس عن مظاهر الكون كلها ، وأن يبحثوا بحماسة عن الخالق الكبير ، وأن يت liberoوا الحقيقة في تقرير الإجابة ، وألا يكتفوا بالتساؤل المبتور ، أو ينطقوا بالسؤال ثم تغلبهم تيارات مجنونة دون انتظار الجواب

إننا سمعنا من فهم الوحي - قبل أن نسمع من الطيار الروسي المبهور- هذا السؤال عن الأرض ومن فيها ، قال تعالى : «**قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**» . وسمعنا الجواب الحتم عقب هذا السؤال الواجب ﴿... قُلْ لَهُ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام : ١٢)

إن الإسلام دين فجر الطاقة العقلية في البشر ، وجعل اليقين في الله نتيجة لابد منها لتجوال الفكر الإنساني المستيقظ النابه في آفاق السموات والأرض .

ولذلك لا يوجل الإسلام من البحوث العلمية ولا الكشوف الكونية ، بل على العكس يدفع إليها دفعاً ويحضر عليها حضاً .

وكل خطوة يخطوها العلم الكوني تؤكد أن الله من وراء كل حركة وسكنة ، وأن المادة يستحيل أن تخلق من غير شيء ، وأن هذا الاطراد والاتساق في القوانين التي تربط بين أجزاء المادة يستحيل أن يتولد من الهباء ﴿**وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيِّرِيْكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ (النمل : ٩٣)

والعقل الإنساني كفر بما ينبغي الكفر به على الإجمال !!

تقول : كيف هذا؟ والجواب : أن الناس مع إطباهم على ضرورة الألوهية ونفرتهم من التعطيل ، وإنكار رب العالمين ، مع هذا فقد أتوا إلا تصور الألوهية على أنحاء منكرة ، وارتسمت لها في أذهانهم صور أغلبها باطل .

والعقل الذي يرفض عبادة حيوان أو جماد معدور في كفره بهذه الآلهة .



والعقل الذى يأبى التسليم بالله شركاء ، وأب وأبناء ، معدور فى إبانه هذا ولأمر ما كانت كلمة «لا إله إلا الله» مكونة من شقين ، أولهما نفى والآخر إثبات .

لا إله . . . هذا الشق الأول من الكلمة يعني نفى ما صنعه الخيال البشري من آلهة أرضية وهى آلهة شاع الإيمان بها - ولا يزال - فى أقطار كثيرة ، وبين جماهير غفيرة .

ونحن المسلمين نكفر بهذه الآلهة المختلفة ، ونقول مقالة القرآن الكريم ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُوْنِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ .
(يوسف : ٤٠)

والشيوعيون اكتفوا بهذا الشق ، ولو عقلوا لأدركوا أن بعد الكفر بالآلهة التى صنعواها الناس لابد من الإيمان بالله الذى صنع كل شيء ، وليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير .

لابد بعد كلمة لا إله - التى تنفى كل الوهية باطلة أن يجئ بعدها الإثبات العظيم الحق ، وهو . . . إلا الله .

الله الذى أحس الطيار الشيعى بعض آثاره عندما رأى الأرض معلقة فى الفضاء يكتنفها الفراغ من كل ناحية ، فهتف دهشاً من يحملها؟ .

ونحن نجيب : من؟ إلا الله .

من حقيقة العبودية

«لو أنك لا تصل إليه إلا بعد فناء مساويك ومحو دعاويك لم تصل إليه أبداً ولكن ، إذا أراد أن يوصلك إليه غطى وصفك بوصفه ونعتك بنعنته ، فوصلك بما منه إليك لا بما منك إليه لولا جميل ستره لم يكن عمل أهلاً للقبول» .

أدلة الشريعة متضادرة على أن العمل الصالح طريق الجنة ، وأن العمل الطالح طريق النار ، وقد وعد الله المؤمنين بالنعيم وتوعد الفجار بالجحيم ، ورفض أن يسوى بينهما في الجزاء ، وعد ذلك سوء حكم ، ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ النَّعِيمِ﴾^(٣٤) ﴿أَفَجَعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾^(٣٥) ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (القلم : ٣٤ - ٣٦) .

وقد أخبر الله أن النعيم الذي يصير إليه أهل الإيان والصلاح لا يتغير .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾^(٨) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًا﴾ (لقمان : ٩ ، ٨)

كما أخبر أن أهل الفسق والكفران لا بد أن يذوقوا أليم العذاب ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾^(٤) ﴿مَنَّاعَ لِلْخَيْرِ مُعْتَدِ مُرِيبٍ﴾^(٥) ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾^(٦) قالَ قَرِينُهُ رَبِّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ^(٧) ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيِّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾^(٨) ﴿مَا يُدْلِلُ الْقَوْلُ لَدَيِّ وَمَا أَنَا بِظَلَامٍ لِلْعَبَدِ﴾ (ق : ٢٩ - ٢٤)

وفي هذه الآيات - وهي نماذج لمئات غيرها - ما يدل بوضوح على أن الإنسان صانع مصيره ، وأنه يشق بيده طريق مستقبله ، وأن القدر لا يسوق الناس إلى دار الجزاء خبط عشواء .

كلا ، إنهم يجنون في الدار الآخرة ثمار ما غرسوا في الدار الدنيا . . .

وكل كلام غير هذا فهو إما جهل بالإسلام أو افتراء عليه .
بيد أن من تمام العمل الصالح أن نقدر قدره ، وألا تتجاوز به حدوده .
فإن من ظن أن عبادة عدد سنين في الأرض هي الثمن الحقيقي لخلود غير متناه
في السماء رجل مجازف .

ومن ظن أن الطاعات التي تقدم بها ، سليمة الأداء نقية اللباب ثبتت على
النقد والتمحيص فهو رجل مخدوع .

ومن ظن أن ما نهض إليه من - واجبات وما تطوع به من نوافل أرجح من النعم
التي عجلت إليه في الدنيا فهو هازل .

الواقع أن الله جل شأنه ينظر إلى نيات الخير في قلوب أهل الإيمان فيعفو عن
كثير من زللهم ، ويتجاوز عن كثير من تقصيرهم ، ويكثر قليلاً من الأعمال التي
يقومون بها . كما يكثر للفلاح حصاد زرعه ، وإن كان ما بذر يسيراً .

ولولا هذا ما شعر بذلك الفوز أحد ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَرْتُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (النور : ٢١) .

إن الاغترار بالعلم رذيلة تسقط قيمة العمل ، ولو أن أحداً طالب الله أن يقربه
إليه ، أو أن يجزل له المثوبة ، ناظراً في ذلك إلى ما بذل من جهد ما استحق عند
الله شيئاً طائلاً .

والواجب أن يتقدم الإنسان إلى الله وهو شاعر بتقصيره ، موقن بأن حق الله
عليه أربى من أن يقوم بذرة منه ، وأنه إذا لم يتغمده الله برحمته هلك .

هبك بذلت نفسك ، ومالك له . . .

أليس هو خالق هذه النفس؟ أليس هو واهب هذا المال . . .؟

فإذا أدخلتك الجنة - بعد - ألا يكون متفضلاً؟

وانظر إلى سلسلة الأعمال التي تؤديها خلال فترة المبيعا على هذه الأرض ، كم
يكتنفها من علل النفس وأفات التقصير؟

إنها لو كانت أعمال غيرك فعرضت عليك أنت ما قبلتها إلا على إغماص طويل
وتجاوز خطير !!

إن المؤمن يعمل ، ولكنه لا يتطاول بعمله أبدا .

وهذا يفسر الحديث المشهور عن النبي ﷺ : «لن يدخل الجنة أحد بعمله!» :
قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته»^(١)
والغريب أن ناسا فهموا من النهى عن الاغترار بالعمل أنه إسقاط لقيمة
العمل جملة!

وسار الأمر في أدمعتهم على هذا النحو ، والعمل لا يدخل الجنة ، فلا ينبغي أن
تعلق الهمم به ، فلا ضرورة لبذل المجهود فيه!!!

ثم قرروا بعد ذلك أن العمل الصالح ليس طريق الجنة وأن الجنة هبة من الله
يمنحها من يشاء ولو لم ي عمل خيراً قط .

بل ذهبت الغفلة ببعض المتكلمين إلى الزعم بأنه يجوز أن يدخل الأشرار الجنة
وأن يدخل الأخيار النار .

وهذا لغو من القول ، وغباء في الفكر ، وافتراء على الله والمسلين .

وليت شعرى ما يكون موقف هؤلاء عندما يقول الله للمؤمنين يوم الحساب
﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أَرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٧٣) لِكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا
تَأْكُلُونَ﴾ (الزخرف : ٧٣، ٧٤)

ثم يستتبى الكلام الإلهى ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (٧٤) لا يفتر
عنهم وهم فيه مُلْسُون (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ (الزخرف : ٧٤ - ٧٦)

(١) البخارى .

من أخطاء العابدين

«من علامة اتباع الهوى ، المسارعة إلى نوافل الخيرات ، والتکاسل عن القيام بالواجبات» .

الفروض التي يجب أداؤها كثيرة ومنوعة ، وهي في العبادات محدودة كما وكيفا ولكنها في العادات مفتوحة الدائرة متطرفة الأداء .

وال المسلم مطالب بكل الواجبات التي ارتبطت بعنقه ، ولا يجوز أن يوجه نشاطه إلى نافلة ما قبل أن يستكمل هذه الواجبات أولاً .

إن الواجبات والنوافل أشبه بالضرورات والمرفهات ، والمرء لا يشترى لنفسه عدة زجاجات من العطور وهو وأهله بحاجة إلى أرغفة من الخبر ، سد الجوع أولى من هذه الزينات .

وقد رأيت ناسا من أهل الدين يذهلون عن هذه الحقيقة ، وحکى لى أحدhem أنه حج عدة مرات وهو بسبيله إلى حجة جديدة ، لن تكون الأخيرة . . .

وهذا خطأ . فلو أنه بعد حجة الفريضة تأمل فيما عليه من فروض أخرى ، ولو أنه تتبع التغرات التي شاعت في مجتمعنا وعمل على سدادها لكان أدنى إلى الصواب ، وأقرب إلى مرضاعة الله ، وأبعد عن أهواء النفس . . .

إن نفقات حجّة واحدة من هذه النوافل تكفى لدفع نفقات الدراسة لنفر من الطلاب الفقراء ، وهم أولى ، وتكفى لرفع الحجز عن أممٍ نفر من الغارمين المعسرين وهم أولى ، وتكفى لطبع بعض الكتب الدينية وتوزيعها بالمجان وذاك أجدى ... الخ .

إن إنقاذه أمتنا من الجهل والفقر أوجب من إشباع رغبة نفسية في متابعة الحج والعمرة ، هذه فريضة وتلك نافلة .

بل لو أن الحاج كان تاجراً ، واستغل المال في توسيع تجارتة لدعم الاقتصاد الإسلامي ، وإغلاق الأبواب أمام الاقتصاد الأجنبي لكان ذلك أحق من بذل المال في التطوع بحج أو عمرة .

ذلك أن الجهاد الاقتصادي صنو للجهاد الحربي ، بل إن لقاء العدو في ميدان الدم يجيء مرحلة أخيرة بعد كفاح طويل في عالم المال والمعرفة والدعاية والبذل . وتنظيمياً للعلاقة بين الفرائض والنواقل روى عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : «حجّة خير من أربعين غزوة ، وغزوّة خير من أربعين حجّة يقول إذا حج الرجل حجّة الإسلام فغزوّة خير له من أربعين حجّة وحجّة الإسلام خير من أربعين غزوة»^(١) .

وفي رواية عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ «حجّة لمن لم يحجّ خير من عشر غزوات وغزوّة لمن قد حجّ خير من عشر حجّج»^(٢) .

وقد أبنا فيما كتبنا أن الجهاد الحربي ، حلقة من سلسلة بها حلقات أخرى من غزو اقتصادي وثقافي . لا تقل خطأً عن نظائرها .

إن أصحاب البصر السديد من العلماء يضعون الحدود مكبّرة بين الفروض والنواقل حتى لا يقع المسلم في تقصير مخل وهو يحاول إرضاء الله بعمل لم يوجبه عليه . وابن عطاء الله يعد من اتباع الهوى إيثار نافلة خير على واجب قائم .

وقد رأيت بعض الصالحين يصومون يومي الإثنين والخميس ويجهدون في التقرب إلى الله بهذا العمل الكريم .

والصيام قربة لا ريب فيها وجهاد نفس نبيل ، ولكنني أحب أن أنظر إلى الموضوع على ضوء الموازنة بين الفرض والتنفل .

فمن صام رمضان فقد أدى الفريضة ، فإن كان صيام أيام أخرى سيوهن قوته عن العمل في المدرسة ، إن كان مدرسا ، أو العمل في الديوان إن كان موظفا ، فالفتر أولى به .

لأن هذا التنفل سيعجزه عن القيام بفرضية تعليم التلامذة ، أو يعجزه عن القيام برعاية مصالح الجمهور ، وكلا العملين فريضة بالنسبة له .

ولماذا يجهل بعض الناس أن ما وكل إلى ذمّهم من أعمال عامة أو خاصة هو مجال خصب لكسب رضوان الله وغفرانه؟ .

(٢) الطبراني .

(١) رواه البزار .

لقد كنت ألحظ - بأسى - أن بعض الأطباء يحب أن يعظ الناس في المساجد! لماذا؟ .
إن الكشف الدقيق على مريضه هو العبادة الأولى المطلوبة منه ، ولا يغنى عن هذه العبادة أن يجيد بعض خطب أو يطيل بعض ركعات - عدا الصلوات المكتوبات .
إن صلاته بعد الأوقات الخمس هي علاجه المرضى واستكشاف عللهم ، وتسهيل الشفاء لهم بكل ما هنالك من وسائل . . .

لقد قلت : إن الفروض كثيرة ، وإذا كانت محدودة في ميدان العبادات فهى مطلقة في الميادين الأخرى ، وأمتنا فقيرة إلى الجد في الميادين كلها وإنما جئت على ركبتيها أمام أعدائها .

ولذلك يجب أن تنظم جهود العبادين ، حتى لا تقل في ناحية وتكثر في ناحية أخرى .

ويجب إبراز الفروض أولا حتى لا نضطرب الأوضاع وتحتل الموازين وتتبدد الجهود هباء .

الْمَلْكُ لِلَّهِ وَحْدَهُ

«من أكرمك إنما أكرم فيك جميل ستره ، فالحمد لمن سترك ، ليس الحمد لمن أكرمك وشكرك» .

الله ولى النعمة ، وأهل الثناء أولاً وأخراً ، ظاهراً وباطناً .

قد تكون ذكى العقل بادى الموهب يشنى عليك الناس لما امتنزت به من فكر ثاقب وعمل بارز .

فمن الذى صاغ معدنك وأنت جنين على هذا النحو المرموق؟
إن المعدن الذى يصاغ منه الإنسان هو الذى يحدد رزقه وأجله ، فإن كان معدنا هشا كان سريع الكسر ، وإن كان معدنا رديئاً كان رخيص القيمة .

من الذى خلق العباقة ممتازين من طفولتهم؟ هو الله!! ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران: ٦) .

إذا رأيت الناس يعلون من قدرك ، فالحمد لمن أنشأك جديراً بالرفعة .
وكم يخطئ المساء؟ وكم يقع منه ما لا يُعرف به خدش مقداره وسقط شعاره؟
أحسن الله بنا أن الخطايا لا تفوح .

إذا المستور منا بين ثوبيه فضوح .
لكن الله يصبر ويبقيك بين الناس لأن لم ييلد منك شيء ويظل لك ما تحب من كرامة ومنزلة .
فلمن الحمد؟ من يشنى عليك بلسانه؟ أم لله الذى أنعم أولاً وستر آخر؟ .

لَا تَنْخُدُ عَنْ حَقِيقَتِكَ

«الناس يمد حونك لما يظنوه فيك ، فكن أنت ذاما لنفسك لما تعلمها منها». هل أغش نفسي لأن الله سترني فانطلقت السنة الناس تمدحني؟ ما يفعل هذا عاقل .

واجب أن يكون موقفى من نفسي ثابتًا ، أفتشر عن عيوبها لأنقيتها منها وأستحضر باستمرار ما بها من أخطاء كى أصوبها ، وما فيها من نقائص كى أكملها .

إذا قال الناس : هو كامل ، فلا أنخدع بمقاتلتهم عن حقيقة ما أعرف من نفسي «أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس» .

والعجب أن ناسا يكذبون ثم يصدقون هم أنفسهم ما اختلفوا على الناس ، كما روى عن أشعب أن الأطفال تبعوه يوماً بزياتهم ، فأراد أن يصرفهم عنه فزعم لهم أن عرساً بمكان كذا توزع فيه الحلوي !!

فلما جروا إلى العرس المزعوم تبعهم أشعب هو الآخر يجري !!
لقد صدق الأكذوبة التي ألفها . . .

إن ذلك مثل من يسمع المدائح فيه فيصدقها ، وهو يدرى من باطن أمره أنه غير ما قيل فيه .

كان الرجل من الصالحين إذا مدح قال : «اللهم اغفر لى ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذنى بما يقولون ، واجعلنى فوق ما يظنو» .
وهذا دعاء من ينصف نفسه ويخشى ربه .

اعرف حق وق سيدك

«تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه! تحقق بذلك يمدك بعزمك ، تتحقق بعجزك يمدك بقدراته ، تتحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته» .

ماذا تكون عليه العلاقات بين الخلق والخالق والمرزوق والرازق ، والخطئ المعثار ، والتواب الغفور ، والبائس الفقير والمنعم الكريم؟
إن الصورة الوحيدة المعقوله أن يعترف الأدنى بالأعلى اعترافا ماديا ومعنويا يظهر في النفس وعلى الجوارح!!!

خصوصا إذا كانت هذه العلاقات متعدة لا انقطاع لها ، فقد يظن ظان أن الصلة بين العبد وربه يمكن أن تشبه الصلة بين الولد وأبويه ، يحتاج الطفل إليهما صغيرا ، فإذا كبر استغنى ، وربما دفعه استغناوه إلى العقوق ، وجحد ما مضى!!
كلا ، إن حاجة العبد إلى الله خالدة . أمس من حاجة الرضيع إلى أمه ، مهما تراحت الأيام وأمسى في حاجة النبت إلى الشعاع والماء كي يزدهر وينمو ﴿قُلْ مَن يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ (الأنبياء : ٤٣) .
وربما توهם العبد أنه يزل ثم يستطيع الفرار من تبعات الله ، عند ذى منعة هنا أو هناك ، لا ، ليس فى الكون من تحصن به أو يدخلك فى جواهه ، أو يبسط عليك منعه : الملجأ أوهى من الهارب ﴿أَمْ لَهُمْ آلَهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يُسْتَطِعُونَ نَصْرًا أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مَنَّا يُصْحِبُونَ﴾ (الأنبياء : ٤٣) .

إن فقر البشر إلى الله شديد ، وما يستمتعون به من سمع وبصر وأفئدة مواهب معاشرة منه . لو يشاء استردها فى أية لحظة ، ووقف أعتى العتاة صفر اليدين لا يجد الهباء ، بل تلفظه كل ذرة فى الأرض والسماء ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيْكُمْ بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرَّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ (آل عمران : ٤٦) .

العبادة الصحيحة أن تقوم بين يدي الله وأنت أنت وهو هو .
أنت أنت بحقيقةك العارية من غير دعوى ولا تزيد .
وهو هو بذاته القدس من غير انتقاد ولا إفك .
أنت أنت بحقيقةك التي يتمثل فيها الافتقار والنقص وهو هو بحقيقةه التي ينبغي لها كل تنزيه وتجيد .

ولكن النفس الإنسانية قد تلجم إلى الخداع والتمويه ، فترى الإنسان يؤثر الكبرياء على التواضع ويزعم أنه مستغن بنفسه عن عناية السماء ، ويحاول إيهام الآخرين أنه - من ذاته لا من مصدر آخر - قد نشأ وتقول وساد .

ويوغل في ادعائه فيرفض كل نصح يذكره بأنه أحد عبيد الله المنتشرين على ظهر هذه الغبراء ، يتعرضون للسراء والضراء فتنة وتحيضا ، لا فضلا وتحصيضا ... إنه في نظر نفسه ليس ثمرة المني الإلهي ، إنه ابن نفسه فما لديه ثبت له لأنه حقه !! ﴿وَلَئِنْ أَذْقَاهُ رَحْمَةً مِّنِّي مَنْ بَعْدَ ضَرَاءَ مَسْتَهُ لِيَقُولُنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظْنُ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنِّي لَيَعْنِدُهُ لِلْحُسْنَى﴾ (فصلت : ٥٠) .

لماذا تكون الحسنى لك إذا رجعت إليه وقد كنت به كفورا؟

إنه شعور غبى ، إنه يظن نفسه هي التي سودته في الدنيا ، وستسوده كذلك في الأخرى ، لأنه أهل السيادة ورثها كابرا عن كابر .

أجل هو عريق النسب - ولو كان ابن الصعاليك - فهكذا يتصور الأغوار الأمور ، وهكذا تفسد النفس فتفسد أحکامها على كل شيء ...

والله عز وجل يمتنع من عباده أولئك الصنف الذين يعمون عن أنفسهم وعن ربهم .
لقد خلق الناس ليعرفوه ويحمدوه لا ليجهلوه ويحددوه .

فإذا شردت الأم عن الجادة صب عليها سوط عذابه لتعترف بعبوديتها وتشوب إلى رشدتها .

قال تعالى : ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَانَ تَضَرَّعُوا﴾ (الأنعام : ٤٣) .

فإذا أبى إلا المضى في غوايتها ولم تعتبر بما مسها أمضى فيها عقوبته كاملة

ورفض أن يذيقها رحمة : ﴿ وَلَوْ رَحِمَنَا هُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لِلْجُوَافِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٧٥) ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ﴿ ٧٦ ﴾ حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد إذا هم فيه مُلْسُونَ ﴿ المؤمنون : ٧٥ - ٧٧ ﴾ .
إن الله يقترب برحمته من يقفون عند منازلهم الإنسانية ويوقرون ربهم سرا وعلانية .

اعترف في ساحتـه بعجزك ينحلـ القوة .

اعترف في ساحتـه بذلك ينصر وجهـك بالكرامة .

إبراـ من حـولـك وطـولـك إلى حـولـه وطـولـه يهـبـك سـلطـاناـ في الـأـرـضـ ويـكـفـلـ لكـ التـوفـيقـ والـنـصـرـ والـنـجـاحـ : ﴿ يـا أـيـهـا الـذـينـ آمـنـوا آتـقـوا اللـهـ وآمـنـوا بـرـسـوـلـهـ يـؤـتـكـمـ كـفـلـيـنـ مـنـ رـحـمـتـهـ وـيـجـعـلـ لـكـمـ نـورـاـ تـمـشـونـ بـهـ وـيـغـفـرـ لـكـمـ ﴾ (الـحـدـيدـ : ٢٨ـ) .

والـنـاسـ فيـ العـصـرـ المـغـتـرـ - زـاهـدـونـ فيـ السـمـاءـ عـاكـفـونـ عـلـىـ الـأـرـضـ ، وـاثـقـونـ منـ عـالـمـ الشـهـادـةـ سـاخـرـونـ منـ عـالـمـ الغـيـبـ ، مـؤـمـنـونـ بـأـنـفـسـهـمـ قـلـيلـوـ الـاـكـتـرـاثـ بـرـبـهـمـ الـذـيـ خـلـقـهـمـ لـغـاـيـةـ أـشـرـفـ ماـ يـأـلـفـونـ .

وـهـمـ مـحـرـمـونـ حـقاـ منـ أـمـدـادـ الـفـضـلـ الإـلـهـيـ ماـ بـقـواـ عـلـىـ هـذـاـ الزـيـغـ ، بـلـ هـمـ مـعـرـضـونـ حـتـمـاـ لـنـكـالـ فـيـ أـعـقـابـ نـكـالـ ، وـحـربـ فـيـ أـعـقـابـ حـربـ .

﴿ وَلَا يَزَالُ الـذـينـ كـفـرـوا تـصـيـبـهـمـ بـمـا صـنـعـوا قـارـعـةـ أـوـ تـحـلـ قـرـيـباـ مـنـ دـارـهـمـ حـتـىـ يـأـتـيـ وـعـدـ اللـهـ إـنـ اللـهـ لـا يـخـلـفـ الـمـيـعـادـ ﴾ (الـرـعـدـ : ٣١ـ) .

فضول العيش أشغال

«من تمام النعمة عليك أن يرزقك ما يكفيك ، وينعك ما يطغىك ، ليقل ما تفرح به ويقل ما تحزن عليه» .

إذا قرر المؤمن الجهاد فى سبيل الله ، والاشتباك مع قوى الباطل فى حرب موصولة الكرو والفر فيجب أن يحدد صلته بما فى الدنيا من متع وما تهواه النفس من لذات . ذلك أن التم押し مع مغريات الحياة يفتح الشهية للمزيد ، ويعلق القلب بطامع تشغله عما يجب أن يخلص له .

وصدق المتنبى إذ يقول :

ذكر الفتى عمره الشانى وحاجته ما قاته وفضول العيش أشغال
وترضية النفس بمستوى من العيش يضمن الكفاية ، وينفى الفضول ، أعون شئ على رفع الجبهة ، وتوفير العزة وإرضاء الله .

قيل يوما لأحد شيوخ الأزهر : افعل كذا وإن أصابك ما لا تحمد عقباه!

فقال : هل سأمنع من التردد بين بيته والمسجد !

قيل : لا ... قال فافعلوا ما بدا لكم .

ولما سجن الشيخ عليش فى أعقاب الثورة العربية قيل له :
تملق الخديو ليغفو عنك .

فقال قصيده التى مطلعها :

| | | | | | | | | | | | | |
|----|---|---|----|-------|----|----|---|---|----|----|-----|---|
| وا | ت | ر | ك | ل دون | ال | زم | ب | س | اب | رب | ك | |
| م | ن | د | ار | ال | و | اس | أ | ل | ه | س | لام | ة |
| م | ا | ق | د | ر | ل | ات | ك | ث | ر | ل | ه | م |

وأساس هذا السلوك توطين النفس على أسلوب من العيش خفيف المؤنة قليل التكلفة والإنسان فى هذا المجال يمكن أن يمتد ويمكن أن ينكشم .

والنفس طامعة إذا أطعمتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

ونحن لا نحرم حلالا ، ولا نحجر واسعا ، وإنما نصف الطريق التي لابد من سلوكها لأصحاب الرسائلات وحملة الدعوات .

فإنه لا يتفق طمع في الدنيا وانتصار للمثل العليا .

ولا ينسجمان الحرص على إعلاء كلمة الله ، والحرص على تكثير المغانم واسترضاء الخلائق ، وفي الحديث : « يا أيها الناس هلموا إلى ربكم ، فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى »^(١) .

وضوابط الكفاية ليست لها خطوط معينة ، بل هي تختلف باختلاف الطبائع والأحوال والبيئات .

ومن العبث تحديد مستوى معين من النفقات لرجل ، أو لأسرة ، يقال إن ما وراءه إسراف .

فرب ضرورة لشخص تعتبر ترفًا لشخص آخر . . .

إن الحالة النفسية هي الحكم الفذ في هذه الظروف ، ولذلك يوصي ابن عطاء الله بتقليل ما نفرح به إجراء مطالب المرء في أضيق نطاق ، حتى إذا مسته وعكات الجهاد لم يكن هناك ما يستدعي الأسى . . .

والواقع أن الفقر والغنى أخلاق نفسية قبل أن يكونا أعراضًا دنيوية .

فكمن ذي مال يبيت مؤرقا وراء المزيد ، شاعرًا بالفقر ، لأن كل ما يطلب لم يتحقق له .

وكم من مقل بات قرير العين لأنه يرى ما لديه كافيًا شافيا ، ولذلك يقول الشاعر :

غنى النفس ما يكفيك من سدخلة فإن زدت شيئاً عاد ذاك الغنى فقرأ

وفي تجاربنا مع الناس رأينا نقائص تستدعي التأمل . . .

هذا رجل له مال وبنون ، طال أجله ، وأدبر شبابه ، وكان يجب أن يتهيأ للآخرة بزاد الحسن .

(١) الطبراني .

إنه لو قتل فى سبيل الله ما ترك وراءه شيئا يخاف عليه ، لا الزوجة العجوز ولا الأولاد الكبار .

ومع هذا فإنه شيطان أخرس ، يفرق من كلمة حق ، ويوجل من موقف شرف ،
ويتشبث بأذىال الحياة طالبا المزيد !!

على حين رأينا شبابا لهم آمال وعليهم أعباء ، ومثلهم لو توثقت علاقته بالدنيا
ما كان فى سيرتهم عجب .

ومع هذا يذهبون عن الدنيا المقبلة ، ويتركون الذرية الضعاف لكافالة الله ،
ويقبلون على موقف الاستشهاد بنبل وجلال .

إن الأحوال النفسية ، لا مستويات المعيشة ، هي التي تصنع الناس .

وإذا كان لهذه المستويات عمل فهو أنها عنصر مساعد ، أو لعل هذه المستويات
هي التربة التي تنضج شتى البذور ، فتبليغ بالورد تامة ، وبالشوك منتهاه من غير أن
تخرج بعنصر عن طبيعته ...

إننا نسمع صراغا طويلا لرفع مستوى المعيشة ، وأنا بين الذين رفعوا عقائدهم
بقوة مخاربة البوس والمسكنة .

ولكن يجب أن يفهم الماديون أن الحياة الإنسانية الآن أفقرا إلى الأخلاق منها
إلى الأرزاق ، وأفقرت إلى تقدير قيمها الروحية منها إلى تقدير قيمها المادية ، وأفقرت
إلى ذكر الله منها إلى ذكر ما سواه .

في محاسبة النفس

«متى ألمك عدم إقبال الناس عليك ، أو توجههم بالذم إليك ، فارجع إلى علم الله فيك ، فإن كان لا يقنعك علمه فيك فمصيبتك بعدم قناعتك بعلمه أشد من مصيبتك بوجود الأذى منهم» :

صلة المؤمن بالله هي أساس أمنه أو قلقه ، وفرجه أو أساه ، أما صلته بالناس فهى تجىء فى المرتبة الأخرى ، وتجىء محكومة ببواطن الصلة الأولى وغايتها . إن رأى الناس فى أمر ما ليس حكما مبررا بالتخطئة والتصويب ، ورأيهم فى شخص ما ليس حكما بالرفعة والضعة .

والذى يحدث غالباً أن آراء الناس هذه ترسل إرسالاً يحتاج إلى الضبط والتمحیص ، وقلما يكتنفها الرشد والسداد . ولذلك يقول أبو تمام :

فأجله في هذا السواد الأعظم! إن شئت أن يسود ظنك كله

بل إنه في الأزمات التي تحتاج إلى النجدة ، والشدائد التي تحتاج إلى البطولة ،
تبث في الزحام الكثيف عن الرجال الذين يلقون هذه المواقف . . . فتروعك ندرتهم .

ما أكثر الناس، لا، بل ما أقلهم
الله يعلم أنس لم أقل فندا

إني لأفتح عيني حين أفتحها على كثيير ولكن لا أرى أحدا

ومن ثم كان عزاء المصلحين حين يلقون الصدود والغمط ، ويشعرون بالإنكار
والعزلة قول الله جل شأنه : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضْلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضْلِلُ عَنْ سَبِيلِهِ
وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهَتَّدِينَ ﴿ (الأنعام : ١١٦، ١١٧) .

وَمَا كَانَ ابْنَاعُثُ الْمُؤْمِنَ مِنْ ضَمِيرِهِ وَحْدَهُ، وَمُبْتَغَاهُ أَنْ يَرْضَى اللَّهُ عَنْهُ، فَهُوَ لَا يَكْتُرُ، أَوْقَعَ النَّاسَ فِيهِ، أَمْ كَانُوا إِلَى جَانِبِهِ . . . !!

لابد أن تتأثر بتيارات المدح والذم التي تهب عليه .
بيد أن الإنسان شديد الروابط بالمجتمع الذي يعيش فيه ، ونفسه - طوعاً أو كرها -



ومن حق الرجل الفاضل ألا يعرضه فعله لهوان ، إذالم يكسب له ما يجب من احترام .
ومن حقه أن يدفع عن نفسه قالة السوء ، وأن يتخذ من ضروب الحيطة ما يعقل
السنة الشر عن مقاله .

ومن حقه وهو مصدر إشعاع ألا يكشف نوره ، وأن تؤخذ عنه الأسوة الحسنة وأن
تأوى إليه عناصر الخير في الدنيا لتحتمى به . . .

ومن ثم فعلته بالناس يجب أن تشرح بشيء من التفصيل .

إن ظهوره بالبر بينهم ، ومعالنته بفرائض الإسلام وشعائره شيء طبيعي لا حرج
فيه : ﴿إِنْ تُبَدِّلُ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمًا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءُ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾
(البقرة : ٢٧١)

وحرصه على صيانة سمعته من أي غبار شيء طبيعي ، وقد استوقف رسول الله
ﷺ نفرا رأوه مع إحدى زوجاته ، وأفهمهم أنه مع فلانة زوجته حتى لا يظنوا به
السوء ، مع أنه فوق التهم .

وسروره بما يعرف عنه من خير شيء طبيعي ، بعد أن أدى هذا الخير بنية خالصة
وقلب سليم .

وقد تحدث الصحابة إلى رسول الله ﷺ في هذا الشعور الذي يخالج أنفسهم عندما
يذكرهم الناس بخير على عمل قاموا به لله . فقال : «تلك عاجل بشري المؤمن»^(١) .

وتلا قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٦٢) لهم البشرى في الحياة الدنيا
وفي الآخرة لا تبدل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ﴿(يونس : ٦٣ ، ٦٤)﴾ .

إن التمكين في الأرض من رحمة الله ، ونباهة الشأن جزء من التمكين في
الأرض ، ولذلك امتن الله على نبيه محمد ﷺ ، فقال :
﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (الانشراح : ٤) .

وطلب إبراهيم من ربّه أن يخلد له حسن الثناء على امتداد الزمن فقال : ﴿رَبِّ
هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ
(الشعراء : ٨٤ ، ٨٣)

(١) مسلم .

والمهم أن يصدر الإنسان في عمله عن إخلاص لله ، وألا يتغى بأدائه عرض الدنيا ولا وجوه الخلق .

وأن تكون رغبته في الله راجحة أى باعث آخر ، فلو خاصم الناس طرا من أجل مولاه لم يرجع ولم يفرغ .

وأن تكون علاقته بالناس - إن أحبوهم - تعاونا على الحق ، لا تناصرا على الأغراض ، أو تجمعا على الشهوات والحظوظ النفسية . . .

فإذا أحس الإنسان بالتواء العامة عليه أو بنفرة الآخرين منه ، فلينظر : كيف صلتة بالله؟ فإن كان طيب النفس بها ، قرير العين بتوطدها ، فلا عليه لو مادت الدنيا تحت قدميه .

فما سخط العبيد بجنب رضا السيد؟ وما أحراه أن يتذمر جواب هود لقومه :

﴿إِنِّي أُشَهِّدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِبَتِهَا﴾ (هود : ٥٤ - ٥٦)

أما إذا كانت علاقته بالله غامضة واهنة ، فليست مصيبته في اضطراب حبه مع العباد وانصراف قلوبهم عنه وحزنه على ذلك ، بل مصيبته التي تحمل عن العزاء في أنه ليس له مع الله ما يهدى حاله ، ويقر باله . . . وذلك أصل الداء .

شارات الطريق

لابد لكل مسلم من تأهيل عال يجعله حقيقةً بالانتساب إلى الله ، والخلود في رحمته .

ونفسه التي بين جنبيه هي موضع التزكية والترقية وهو يستطيع رياضتها بما شرع الله من طاعات وحدود ، وبما رسم من أداب ومعالم حتى تبلغ الشأو والمراد .

وليس لطريق الكمال نهاية يقف لديها المسلم ، فهو ما بقى حيا مكلف بالأمر والنهى ، مطالب بالنظر فى نفسه ، فلعل فضلة شر بقية يجب استئصالها ، أو نشأت من جديد يجب أن يمحوها .

ولو أنه أمن تسرب الكبائر والصغرائر إلى نفسه ، ووثق من ارتداد الوساوس الأئمة عنه فإن حقوق الله عليه - من تعبد ممحض - تبقى في عنقه ما بقي فيه نفس يتردد حتى يلقى الله ، وهو ذاكر شاكر ، مستسلم الفؤاد والجوارح ، يتضح على روحه هذا التوجيه العالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايِ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٦٢) لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴿ (الأعراف : ١٦٣ ، ١٦٢) .

والطريق إلى الله تعبير لطيف عن جهود المسلم في تصفيية نفسه ، وترضية ربه ،
والتحمُول عن مواطن الغفلة والركود إلى مواطن الذكر والحركة .

ومراحل الطريق تتمثل فيما يحرزه المرء من نجاح ، وهو يتخلص من خلة ردئه ،
أو مسلك عايش ، ويتحلى بخلق كريم وسيرة جادة .

إن هذه النقلة النفسية خطوة متميزة فيما يخلفه المرء وراءه من أحوال لا تليق ،
وفيما يستقبله من صحو ، واستحكام رأى ، ودقة تصرف ، على حد قول الشاعر :

الطريق سير في ميادين النفوس ، وجهته الله ، وعدته صالح الأخلاق والأعمال .

مع هذه العدة التى يقوم المسلم بها ، رجاء حار فى التوفيق الإلهى الذى يسلد الخطأ ويبارك فى القليل .

(١) اللعاء والملاهاة الجدال .

ذلك أن الله وعده المقربين عليه بإقبال أعظم ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾
(النمل : ٨٩)

والسائل لو وكل إلى جهده وحده غلبته وعثاء الطريق فمشى ببطء أو انقطع بعد لأى ، ومن ثم فإن تعويم السائرين ينبغي أن يكون على الإمداد الإلهي أضعاف ما يكون على الجهد المبذول .

ألا ترى الفلاح يبذر الحب ويروى الأرض ، وينظر - بعد ذلك - إلى برkat السماء ، وهو مدرك أن جهده المحدود لا قيمة له ، مالم يلحظه الله بعنائه .

إن هذه العناية قد تفاوتت بين جهدين متساوين فتجعل نتاج هذا عشرة عشرة أضعاف ذاك .

التوبـة

وهي أول مراحل الطريق ، بل هي المدخل المفضى إليه ، والقرين المتنقل في مدارجه من البداية إلى النهاية .

والتبـة كلمة شائعة على الألسنة ، حتى لـكـأنـ شـيـوعـهـاـ اـبـتـذـلـهـاـ وـأـطـفـأـ سـنـاهـاـ الـكـرـيمـ ،ـ وـمـعـ أـنـ دـلـالـةـ الـكـلـمـةـ تـجـعـلـهـاـ أـخـطـرـ مـنـ أـنـ يـجـازـفـ بـهـاـ .

هل يلغـوـ إـنـسـانـ فـيـقـولـ :ـ بـنـيـتـ قـصـراـ ،ـ أـوـ يـلـغـوـ فـيـقـولـ :ـ أـلـفـ كـتـابـاـ!!ـ .

إـنـ بـنـاءـ قـصـرـ شـاهـقـ أـهـونـ مـنـ بـنـاءـ نـفـسـ خـربـةـ ،ـ وـإـنـ تـأـلـيفـ كـتـابـ ثـمـينـ أـرـخصـ مـنـ تـأـلـيفـ نـفـسـ فـرـقـ الـهـوـيـ أـقـطـارـهـ .

والتبـةـ هـيـ هـذـاـ الـبـنـاءـ وـالـتـأـلـيفـ ،ـ فـمـنـ الـهـزـلـ الـعـجـابـ أـنـ تـدـورـ عـلـىـ الـأـلـسـنـةـ دـوـنـ تـيـقـظـ وـإـدـرـاكـ .

وـجـمـهـورـ الـبـشـرـ مـحـتـاجـ إـلـىـ التـبـةـ ،ـ فـقـلـمـاـ يـنـجـوـنـ فـيـ حـيـاتـهـمـ مـنـ الـعـثـارـ وـالـتـخـلـيـطـ ،ـ وـمـاـ أـكـثـرـ الـذـيـنـ يـرـدـيـهـمـ طـيـشـ الـغـرـائـزـ ،ـ وـضـعـفـ الرـأـيـ ،ـ وـقـلـةـ الـتـجـرـبةـ ،ـ وـاضـطـرـابـ الـيـقـينـ .

وـإـذـاـ اـسـتـشـنـيـنـاـ الـأـنـبـيـاءـ فـأـغـلـبـ بـنـىـ آـدـمـ تـعـرـضـواـ لـخـطاـيـاـ سـيـئـةـ ،ـ وـأـخـطـارـ لـاـ حـصـرـ لـهـاـ .
أـمـاـ الـأـنـبـيـاءـ فـإـنـهـمـ قـيـادـاتـ رـوـحـيـةـ وـفـكـرـيـةـ اـصـطـفـاـهـاـ اللـهـ مـنـ النـشـأـةـ الـأـوـلـىـ وـتـخـيـرـهـاـ مـنـ مـعـادـنـ أـرـقـىـ ،ـ فـهـمـ لـيـسـواـ عـلـىـ غـرـارـنـاـ ،ـ وـإـنـ كـانـواـ مـنـ تـرـابـ الـأـرـضـ مـثـلـنـاـ عـلـىـ حـدـ قـوـلـ الشـاعـرـ :

فـإـنـ تـفـقـقـ الـأـنـامـ وـأـنـتـ مـنـهـمـ فـإـنـ الـمـسـكـ بـعـضـ دـمـ الـفـرـزالـ

وـقـدـ قـالـ اللـهـ لـرـسـوـلـهـ ﷺـ :ـ ﴿فـأـسـتـقـمـ كـمـاـ أـمـرـتـ وـمـنـ تـابـ مـعـكـ﴾ـ (ـهـوـدـ:ـ ١١٢ـ)ـ
أـيـ :ـ إـنـ الـذـيـنـ تـبـعـوـهـ جـاءـوـ إـلـيـهـ تـائـبـيـنـ .

والتبـةـ -ـ فـيـ نـظـرـ الـإـسـلـامـ -ـ جـهـدـ لـاـبـدـ أـنـ يـقـومـ كـلـ إـنـسـانـ بـهـ ،ـ وـلـنـ يـغـنـىـ عـنـكـ أحـدـ أـبـداـ فـيـ أـدـائـهـ .

إـذـاـ اـتـسـخـ ثـوـبـكـ فـلـنـ يـنـظـفـهـ أـنـ يـغـسـلـ جـيـرـانـكـ ثـيـابـهـ .

وإذا زاغ فكرك ، فلن يصلحه إلا أن يهتدي هو إلى الصواب .
واستحقاق الرضوان الأعلى لا يجيء إلا من هذه السبيل ، فلا قرابين ،
ولا شفاء .

﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضْلُلُ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازْرَةً وَزَرَ أُخْرَى﴾ (الإسراء : ١٥) .

والخطأ في حق الله لا يداويه إلا اعتذار الخطئ نفسه .
فلو اعتذر عنه أهل الأرض جمِيعاً ، وفي مقدمتهم النبيون ، وبقى هو على عوج
نفسه فلن يقبل عنه اعتذار ، ولن ينفعه استغفار .

لابد أن يجثو المذنب في ساحة الرحمن ثم يهتف من أعماق قلبه :
(رب اغفر وارحم ، وأنت خير الراحمين) ليؤمل - بعد - في مغفرة الله ورحمته .
وعلى كل إنسان ساء فعله ، واضطربت حاله أن يسارع إلى ربه ، متعمها نفسه بالرعاية
والتأديب ، مقبلاً على شأنه بالترتيب والتهذيب ، حتى يستطيع النجاة مما وقع فيه .
وانتهاز اليوم أفضل من انتظار الغد ، بل إن كنت في الصباح فلا ترقب الأصيل .
لا مكان^(١) لتراث ، إن الزمن قد يفدي بعون يشد به أعصاب السائرين في طريق
الحق ، أما أن يهب للمقعد طاقة على الخطأ أو الجري فذاك مستحيل .

لا تعلق بناء حياتك على أمنية يلدها الغيب ، فإن هذا الإرجاء لن يعود عليك بخير .
الحاضر القريب الماثل بين يديك ، ونفسك هذه التي بين جنبيك ، والظروف
الbasمة أو الكالحة التي تلتفت حواليك ، هي وحدها الدعائم التي يتمضض عنها
مستقبلك ، فلا مكان لإبطاء أو انتظار ، قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ يَبْسِطُ يَدَهُ
بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مَسْئَهُ النَّهَارَ، وَيَبْسِطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مَسْئَهُ اللَّيْلِ»^(٢) .

ثم إن كل تأخير لإنفاذ منهاج تجدد به حياتك ، وتصلح به أعمالك لا يعني إلا
إطالة الفترة الكابية التي تبغى الخلاص منها ، وبقاءك مهزوماً أمام نوازع الهوى
والتفريط . بل قد يكون ذلك طريقاً إلى انحدار أشد ، وهنا الطامة .

(١) هذه الصفحات من كتابنا «جدد حياتك» وفيها شرح لمعنى التوبة رأينا نقله لوفائه بما نريد ، نعقبه بما يتطلبه هذا الكتاب من مزيد .
(٢) مسلم .

وفي ذلك قال رسول الله ﷺ : «النادم ينتظر من الله الرحمة ، والمعجب ينتظر المقت ، واعلموا عباد الله أن كل عامل سيقدم على عمله ولا يخرج من الدنيا حتى يرى حسن عمله وسوء عمله ، وإنما الأعمال بالخواتيم .
والليل والنهر مطبات فأحسنوا السير عليهم إلى الآخرة .
واحدروا التسويف ، فإن الموت يأتي بغتة .

ولا يغترن أحدكم بحلم الله عز وجل ، فإن الجنة والنار أقرب إلى أحدهم من شراك نعله ثم قرأ : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يُرَأَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يُرَأَهُ﴾ (الزلزلة : ٧، ٨) .

ما أجمل أن يعيid الإنسان تنظيم نفسه بين الحين والحين ، وأن يرسل نظرات ناقدة في جوانبها ليتعرف عيوبها وآفاتها ، وأن يرسم السياسات القصيرة المدى ، والطويلة المدى ، ليتخلص من هذه الهنات التي تزرى به .

في كل بضعة أيام أنظر إلى أدراج مكتبي لأذهب الفوضى التي حلت به من قصاصات متناشرة ، وسجلات مبعثرة ، وأوراق أدت الغرض منها .

يجب أن أرتب كل شيء في وضعه الصحيح ، وأن يستقر في سلة المهملات ما لا معنى للاحتفاظ به !

وفي البيت : إن غرفه وصالاته تصبح مشعثة مرتبكة عقب أعمال يوم كامل ، فإذا الأيدي الدائبة تحول هنا وهنا لتنظف الأثاث المغبر وتطرد القمامه الزائد وتعيد إلى كل شيء رواهه ونظماه .

ألا تستحق حياة الإنسان مثل هذا الجهد؟ ألا تستحق نفسك أن تتبعه شئونها بين الحين والحين لترى ما عرها من اضطراب فتزيله ، وما لحقها من إثم فتنفيه عنها مثلما تنفي القمامه من الساحات الظهور؟ .

ألا تستحق النفس بعد كل مرحلة تقطعها من الحياة أن نعيid النظر فيما أصابها من غنم أو غرم؟ وأن نرجع إليها توازنها واعتدالها كلما رجتها الأزمات ، وهزها العراك الدائب على ظهر الأرض في تلك الدنيا المائجة؟ .

إن الإنسان أحوج الخلائق إلى التنقيب في أرجاء نفسه ، وتعهد حياته الخاصة والعامة بما يصونها من العلل والتفكك .

ذلك أن الكيان العاطفى والعقلى للإنسان قلما يبقى متمسك اللbnات مع حدة الاحتکاك بصنوف الشهوات وضروب المغريات . . . فإذا ترك لعوامل الهدم تنال منه فھى آتية عليه لا محالة ، وعندئذ تنفرط المشاعر العاطفية والعقلية كما تنفرط حبات العقد إذا انقطع سلکه . . . وهذا شأن ﴿ . . . مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَأَتَيْهُ
هُوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ (الكهف : ٢٨) ، كما يقول الله عز وجل .

وكلمة «فرط» هذه ينبغي أن نتأمل فيها ، فالعامة عندنا يسمون حبات العنبر الساقطة من عنقودها أو حبات البلح الساقطة من عرجونها «فرطا» .

وانزع حبات الأذرة من كيزانها المتراصة تمھیدا لطحنتها تشتق تسمیته من المادة نفسها .

والنفس الإنسانية إذا تقطعت أواصرها ولم يربطها نظام ينسق شئونها ، ويرکز قواها أصبحت مشاعرها وأفكارها كهذه الحبات المنفرطة السائبة لا خير فيها ولا حرکة لها .

ومن ثم نرى ضرورة العمل الدائم لتنظيم النفس وإحكام الرقابة عليها ..
والله عز وجل يهیب بالبشر- قبيل كل صباح -أن يجددوا حياتهم مع كل نهار مقبل .
فبعد أن يستريح الأنام من عناء الأمس الذاهب ، وعندما يتحرکون في فراشهم ليواجهوا - مع تحرك الفلك - يومهم الجديد .

في هذه الآونة الفاصلة تستطيع أن تسأل : كم تعثر العالم في سيره؟ كم مال مع الأثرة؟ كم اقرف من دنية؟ كم أصلته حيرته فبات محتاجا إلى الحبة والحنان؟

في هذه اللحظة يستطيع كل امرئ أن يجدد حياته ، وأن يعيد بناء نفسه على أشعة من الأمل والتوفيق واليقظة .

رغبة إلى الله

إن صوت الحق يهتف في كل مكان ليهتدى الخائرون ويتجدد باللون .
قال رسول الله - ﷺ : «إذا مضى شطر الليل أو ثلثاه ، ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيقول : هل من سائل فيعطي؟ هل من داع فيستجاب له؟ هل من مستغفر فيغفر له؟ حتى ينفجر الفجر»^(١) .
وفي رواية : «أقرب ما يكون العبد من رب في جوف الليل»^(٢) فإن استطعت أن تكون من يذكر الله في تلك الساعات فكن . . .!
إنها لحظة إدبار الليل وإقبال النهار ، وعلى أطلال الماضي القريب أو البعيد يمكنك أن تنهض لتبني مستقبلك .
تأمل في هذه الأبيات التي أضعها بين يديك تهيب بالغافى أن يصحو ، وأن يدع دفء الفراش ، وأن يتخلص من استرخاء البدن ، وأن يدلل إلى بيت الله ليقف في محرابه مناجيا يؤمل الخير ويرجو الرشاد .

قال الشاعر :

| | |
|-------------------------------|-------------------------------|
| حتى متى فوق الأسرة ترقد؟ | قم في الدجى يا أيها المتعب |
| والصبح، وامض فقد دعاك المسجد | قم وادع مولاك الذى خلق الدجى |
| واطلب رضاه فإنه لا يحقد | واستغفر لله العظيم بذلة |
| بالأمس، واذكر ما يجيء به الغد | واندم على مافات، واندب ما مضى |
| من دون عفوك ليس ما يعوض | واضرع، وقل: يارب عفوك إننى |
| تحت الذنوب، وأنت فوق ترصد! | أسف على عمرى الذى ضيعته |
| عن زلة قد طاب منها المورد | يارب لم أحسب مرارة مصدر |
| بإزاء عينى لم تزل تتردد! | يارب قد ثقلت على كبان |
| طمعا برحمةك التى لا تبعد | يارب إن أبعدت عنك فإنلى |
| ولعلنى عن بابه لا أطرد! | يارب مالى غير لطفك ملجا |
| ديناعلى، به جلالك يشهد | يارب هبلى توبة أقضى بها |

(٢) الترمذى .

(١) مسلم .

بِسَلَالِ الْوَزْرِ الثَّقِيلِ . مَقِيدٌ
أَنْتَ الْمُجِيرُ لِكُلِّ مَنْ يَسْتَنْجِدُ
وَلَأَيْ بَابٍ غَيْرَ بَابِكَ نَسْتَقِي؟

أَنْتَ الْخَبِيرُ بِحَالِ عَبْدِكَ إِنَّهُ
أَنْتَ الْمَجِيبُ لِكُلِّ دَاعٍ يَلْتَجِسُ
مِنْ أَيْ بَحْرٍ غَيْرَ بَحْرِكَ نَسْتَقِي؟

وَلَا تَؤُودنِكَ كُثْرَةُ الْخَطَايَا ، فَلَوْ كَانَتْ رَكَامًا أَسْوَدَ كَزْبَدَ الْبَحْرِ مَا بَالِيَ اللَّهُ
عَزَّ وَجَلَ بِالْتَّعْفِيَةِ عَلَيْهَا إِنْ أَنْتَ اتَّجَهْتَ إِلَيْهِ قَصْدًا وَانْطَلَقْتَ إِلَيْهِ رَكْضًا .

«إِنَّ الْكَنْوَدَ الْقَدِيمَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَائِقًا أَمَامَ أَوْبَةَ صَادِقَةٍ ﴿قُلْ يَا عَبَادِيَ الَّذِينَ
أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ
الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٥٣) وَأَنَّبِيُوا إِلَيْ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ (الزمر : ٥٣ ، ٥٤) .

وَفِي حَدِيثٍ قَدِيسٍ^(١) عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَ : «يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي
وَرَجُوتَنِي غَفَرْتَ لَكَ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أَبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغْتَ ذُنُوبَكَ
عَنَّ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتَ لَكَ وَلَا أَبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي
بِقَرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيْتَنِي لَا تَشْرِكَ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتَكَ بِقَرَابِهَا مَغْفِرَةً» .

وَهَذَا الْحَدِيثُ وَأَمْثَالُهُ جَرْعَةٌ تَحْيِيُ الْأَمْلَ فِي الإِرَادَةِ الْمُخْدَرَةِ ، وَتَنْهَضُ الْعِزَّةُ
الْغَافِيَةُ وَهِيَ خَجْلٌ لِتَسْتَأْنِفَ السَّيْرَ إِلَيْ اللَّهِ ، وَلِتَجْدُدَ حَيَاتَهَا بَعْدِ مَاضٍ مُلْتَوِّ
مُسْتَكِينٍ . لَا أَدْرِي لِمَاذَا لَا يَطِيرُ الْعِبَادُ إِلَىٰ رَبِّهِمْ عَلَىٰ أَجْنَحَةِ مِنْ الشَّوْقِ بَدْلًا أَنْ
يَسْاقُوهُ إِلَيْهِ بِسَيَاطِ منْ الرَّهْبَةِ؟ .

إِنَّ الْجَهْلَ بِاللَّهِ ، وَبِدِينِهِ ، هُوَ عَلَةُ هَذَا الشَّعُورِ الْبَارِدُ أَوْ هَذَا الشَّعُورِ النَّافِرِ - بِالْتَّعْبِيرِ
الصَّحِيحِ - مَعَ أَنَّ الْبَشَرَ لَنْ يَجِدُوا أَبْرَاهِيمَ وَلَا أَحْنَىٰ عَلَيْهِمْ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَ . وَبِرَهِ
وَحْنُوهُ غَيْرُ مشَوِّبِينَ بِغَرْضِ مَا ، بَلْ هَمَا أَثَارَ كَمَالَهُ الْأَعْلَى ، وَذَاتَهُ الْمَنْزَهَةِ .

وَقَصْةُ الْإِنْسَانِ تُشِيرُ إِلَىٰ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَهُ لِيَكْرِمَهُ لَا لِيَهِينَهُ ، وَلِيُسُودَهُ فِي الْعَالَمَيْنِ لَا
لِيُؤْخِرَ مِنْزَلَتَهُ أَوْ يَضُعَ مِقْدَارَهُ ﴿ وَلَقَدْ مَكَنَّا كُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ
قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾ (١٠) وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَرْنَاكُمْ ثُمَّ قَلَنَا لِلْمَلَائِكَةَ اسْجَدُوا لِآدَمَ ﴿
(الْأَعْرَافُ : ١١ ، ١٠)

(١) الترمذى .

وظيفة الدين بين الناس أن يضبط مسالكهم وعلاقتهم على أساس من الحق والقسط حتى يحيوا في هذه الدنيا حياة لا جور فيها ولا جهل ... فالدين للإنسان - كالغذاء لبدنه - ضرورة لوجوده ومتعة لحواسه .

والله عز وجل - بشريعته - مع الوالد ضد عقوق الولد ، ومع المظلوم ضد سطوة الظالم ، ومع أي امرئ ضد أن يصاب في عرضه أو ماله أو دمه ! .

فهل في هذه التعاليم قسوة على البشر ونكايل بهم؟ أليست محضر الرحمة والخير؟ .

وإذا كلف الله أبناء آدم بعد ذلك ببعض العبادات البسيطة ، ليحمدوا فيها آلاءه ويدركوا له حقه ، فهل هذه العبادات المفروضة هي التي يتلألئ الناس من أدائها ، ويتباهون من إيجابها؟ .

الحق أن الله لم يرد للناس قاطبة إلا اليسر والسمحة والكرامة ، ولكن الناس أبوا أن يستجيبوا لله وأن يسيراوا وفق ما رسم لهم فزاحت بهم الأهواء في كل فج وطفحت الأقطار بتظالمهم وتناكرهم .

ومع هذا الضلال الذي خبطوا فيه ، فإن منادى الإيمان ما يزال يهتف بهم أن عودوا إلى بارئكم .

إن فرحته بعودتكم إليه فوق كل وصف . قال رسول الله ﷺ : «لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دوية مهلكة ، معه راحلته ، عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة ، فاستيقظ ، وقد ذهب راحلته؟ فطلبتها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله ، قال : أرجع إلى مكانى الذي كنت فيه فأنام حتى أموت .. !! فوضع رأسه على ساعده ليموت ، فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه ، فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحته»^(١) .

ألا يبهرك هذا الترحايب الغامر؟ أترى سرورا يعدل هذه البهجة الخالصة؟ .

إن أنبيل الناس عرقا ، وأظهرهم نفسا ، قلما يجد فؤادا يتلهف على لقائه بمثل هذا الحنين ، فكيف بخطاء أسرف على نفسه ، وأساء إلى غيره؟ إنه لو وجد استقبالا يستر عليه ما مضى لكان بحسبه ذلك الأمان المبذول ليستريح ويشكر .

(١) البخاري .

أما أن يفاجأ بهذه الفرحة ، وذلك الاستبشار ، فذاك ما يثير الدهشة .

لكن الله أبى بالناس وأسر بأوبة العائدین إلیه ما يظن القاصرون!! .

وطبيعى أن تكون هذه التوبة نقلة كاملة من حياة إلى حياة ، وفاصلًا قائمًا بين عهدين متمايزين كما يفصل الصبح بين الظلام والضياء .

فليست هذه العودة زورة خاطفة ، يرتد المرء بعدها إلى ما ألف من فوضى وإسفاف .

وليست محاولة فاشلة ينقصها صدق العزم ، وقوّة التحمل ، وطول الجلد ، كلا ، كلا ، إن هذه العودة الظافرة التي يفرح الله بها ، هي انتصار الإنسان على أسباب الضعف والخمول ، وسحقه لجرائم الوضاعة والمعصية ، وانطلاقه من قيود الهوى والجحود ، ثم استقراره في مرحلة أخرى من الإيمان والإحسان والنصح والاهتداء .

هذه هي العودة التي يقول الله في صاحبها : ﴿وَإِنِّي لَغَفَارٌ لِّمَنْ تَابَ وَأَمْنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (طه : ٨٢) .

إنها حياة تجددت بعد بلى ، ونقلة حاسمة غيرت معالم النفس كما تتغير الأرض الموات بعد مقادير هائلة من المياه والمخيبات .

إن تجديد الحياة لا يعني إدخال بعض الأعمال الصالحة أو النيات الحسنة وسط جملة ضخمة من العادات الذميمة ، والأخلاق السيئة ، فهذا الخلط لا ينشئ به المرء مستقبلاً حميداً ولا مسلكاً مجيداً .

بل إنه لا يدل على كمال أو قبول ، فإن القلوب المتحجرة قد ترشع بالخير ، والأصابع الكزة قد تتحرك بالعطاء .

والله عز وجل يصف بعض المطرودين من ساحتته فيقول : ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّ
وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى﴾ (النجم : ٣٤ ، ٣٣) ، ويقول في المكذبين بكتابه : ﴿وَمَا
هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ (٤١) ولا بقول كاهن قليلاً مَا تذكرون (٤٢) تنزيل من
رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الحاقة : ٤١ - ٤٣) .

فالأشرار قد تمر بضمائرهم فترات صحو قليل ، ثم تعود بعد ذلك إلى سباتها .

ولا يسمى ذلك اهتماء ، إن الاهتمام هو الطور الأخير للتوبة النصوح!!

إن البعد عن الله لن يشمر إلا علقتها ، وموهاب الذكاء والقوة ، والجمال والمعرفة تتحول كلها إلى نقم ومصائب عندما تعرى عن توفيق الله وتحرم من بركته . ولذلك يخوف الله الناس عقبي هذا الاستيحاش منه ، والذهول عنه .

قد تكون سائرا في طريقك فتقبل عليك سيارة تنعب الأرض نهايا ، وتشعر كأنها موشكة على حطم بدنك وإتلاف حياتك ، فلا ترى بدأ من التماس النجاة وسرعة الهرب ... إن الله يريد إشعار عباده تعرضهم مثل هذه المعاطب والاحتفاف إذا هم صدروا عنه ، ويوصيهم أن يتمسوا النجاة - على عجل - عنده وحده : ﴿فَرُرُوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (الذاريات : ٥١ ، ٥٠) .

وهي عودة تتطلب - كما رأيت - أن يجدد الإنسان نفسه ، وأن يعيد تنظيم حياته ، وأن يستأنف مع ربه علاقة أفضل وعملاً أكمل وعهداً يجري على فمه هذا الدعاء ، «اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدي ووعدي ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»^(١) أ. ه.

قال الدكتور زكي مبارك - نقلًا عن قوت القلوب - .

"ولا تنظر إليها التائب إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى من عصيت .

فقد كانت الصغار عند الخائفين كبار ، وكان من الصحابة من يقول : إنكم لتعلمون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها في زمن النبي ﷺ من الموبقات . وليس معنى ذلك أن الكبار التي كانت على عهد النبي ﷺ صارت بعده صغار ، ولكن معناه أنهم كانوا يستعظمون الصغار لعظمة الله تعالى في قلوبهم ، ولم يكن ذلك الوجدان في قلوب من بعدهم من المؤمنين .

واختلفت الصوفية في نسيان ما سلف من الذنوب ، فقال بعضهم : حقيقة التوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك ، وقال آخر : حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك ، وهذا طريقان لطائفتين ، وحالان لأهل مقامين ، فأما ذكر الذنوب فطريق المریدين وحال الخائفين ، وأما نسيان الذنوب فطريق العارفين وحال الحسين .

(١) البخاري .

قال زكي مبارك ونحن نرجح الرأى الثانى ونريد الأخذ به فى جميع الأحوال فإن تذكر الذنوب الماضية يشل العزيمة ويفت فى عضد التائب ، ويخلق جوًّا جديداً للتعرف على ما سلف من الذنوب ، وهو فوق ذلك جهد ضائع وشغل للقلب بما لا يفيد .

وإقامة المناحات على الهاهووات الماضية عالة سخيفة يتوهם فريق من الناس أنها تزيد في ظهر القلوب ، وهى في عالم الأخلاق تشبه بعض ما يقع في عالم القضاء ، فلو كان يصح للقضاء أن يتبعقو ماضى الناس ليأخذوهم بهفووات قدم عليها العهد لاختل الميزان ، وذهب جمال الحاضر ، وزهد الناس في فضل المتاب ، فإن الأصل في التوبة أن تكون حجازاً بين عهدين ، وأن يصبح التائب وكأنه مولود جديد ، ولا تنسى أن اجترار الذكريات الماضية سيء الأثر في نظام الأعصاب ، وهو خلائق بأن تنهب العافية ويضيع جمال الساعة الحاضرة ، وهي العدة الخلقية في نظام الأعمال» أ. ه.

والدكتور زكي مبارك مخطئ في تعصبه للرأى الثانى ، ونحن لا نتعصب للرأى الأول بل نختار ما هو أصلح لدعم التوبة ، وهجر الآثام ، وإلف الطاعات والفضائل . فإن كان استصحاب الماضي يحرس الإنسان من الانزلاق ويفقه العودة إلى مساحط الله فيجب استصحاب ذلك الماضي .

إنه يشبه التجربة التي تفيض صاحبها دربة على السير ، وقدرة على تخطي العوائق . والنسيان هنا ذريعة إلى الجهل والانحراف .

أما إذا كان الإنسان يكره استعادة صور انقضى عهدها ، وانمحى أثرها ، ويشعر بأنه قد استأنف عهداً حافلاً بثمار الخير ، ويرى أن نقل الماضي للحاضر تعكير لصفوه وشن لامتداده ، فالواجب أن ينسى ما كان ، وأن يقبل على حاضره وحده لينميه ويفويه .

إن النفوس مختلفات في هذا المضمون ، وأحسب أن الذين تسوقهم سياد الرهبة أكثر من الذين يحدوهم نداء الرغبة : ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ (الإسراء : ٨٤) .

مم يتبّع الناس؟

أما من عدا المؤمنين بالله الأحد ، من مشركين ومعطلين ، فتوبتهم لا تصح إلا إذا آمنوا بالله جل شأنه ، وتركوا المعاصي التي كان يؤزهم عليها جحدهم للألوهية ، أو اعتقادهم في شركاء مع الله .

روى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال : «والذى نفس محمد بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة ، يهودى ولا نصرانى ، ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»^(١) .

قال العلماء : إنما خص اليهود والنصارى بالذكر - مع أن الدعوة عامة للملل كلها - لأن هؤلاء أحسن من غيرهم حالاً فهم أصحاب كتب سماوية ، وإذا ثبت هذا الحكم فيهم ، فهو في من دونهم أوجب .

ولا شك أن الشيوعيين والوجوديين وأحزابهم أنزلوا رتبة من أهل الكتاب على ما في عقائدهم من دخل .

ونحن نصم بالكفر من عرض عليه الإيمان ، واستتمكن من الدخول فيه ، ثم أبي ، أما الذين ضلوا لعدم وجود المعلم الهدى ، فوصفهم بالكفر مجاز^(٢) وإلا فهم جهال .

وعلى كلتا الحالتين فصحة التوبة من هؤلاء أن يدعوا ما هم فيه ، وأن يعتنقوا ما أنزل الله في الرسالة الخاتمة .

وفي حض المثلثين على التوبة يقول الله جل وعلا : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمْسِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿^(٧٤)

(المائدة : ٧٤ ، ٧٣)

(١) مسلم .

(٢) راجع هذا المبحث في كتابينا : مع الله ، وكيف نفهم الإسلام .

وَكَذَلِكَ تُوبَةُ سَائِرِ الْمُلْلَ الْأُخْرَى ، مَا تَصْحُ إِلَّا بَعْدَ الإِيمَانِ بِاللهِ الْوَاحِدِ ،
وَالاستعداد للقاءه ، ونبذ ما كانوا عليه من جاهلية ، وإمساء شرائع الإسلام جملة ،
تمشياً مع مبدأ السمع والطاعة .

قال تعالى : ﴿الرَّبُّ كَتَبَ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (١) أَلَا
تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبِّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾
(هود : ١ - ٣)

وتوبة المسلمين أنفسهم تكون من الذنوب التي لا يحمل بهم ارتكابها لأنها
تنافي مقتضى الإيمان ، فإذا أزلتهم الشيطان إلى إثم فإن ذلك يحسب عليهم ،
ليؤخذوا به وصلتهم بالله لا تخفيهم من عدله إذا استحقوا العقوبة .

صحيح أن الله أعد النار للكافرين ، ولكن المسلمين يدخلونها إذا أسفوا وتهاوا
في الذنوب ولذلك يقول لنا ماحذا : ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أَعْدَتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (١٢١)
وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ عَلَيْكُمْ تُرْحَمُونَ (١٢٢) وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ
عَرَضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ (آل عمران : ١٢١ - ١٢٢) .

إِنَّمَا لَمْ يَتَّقُوا ، وَيَطِيعُوا ، وَيَسْارِعُوا . . . فَمَا بَدَّ مِنْ أَنْ يَلْقَوْا وَبِالْأَمْرِ هُمْ .

وفي حض المسلمين على التوبة ، والبعد عن المعاصي يقول الله عز وجل :
﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ (النور : ٣١) .
ويقول : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ
عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ (التحرير : ٨) .

وهذه التوبة تستهدف أن يكون المسلمون عنواناً صحيحاً للدين ، ومجلة
لفضائله وأدابه .

تدبر قوله ﴿الْمُؤْمِنُ مَرَأَةُ الْمُؤْمِنِ ، يَكُفُّ عَلَيْهِ ضَيْعَتِهِ ، وَيَحْوِطُهُ مِنْ
وَرَائِهِ﴾^(١) . والجملة الثلاث التي يتكون منها الحديث تبرز مجتمعاً متناصحاً
متعاوناً ، يعمل المؤمن فيه على تنقية أخيه من العيوب ، وعلى ضمان معيشته

(١) أبو داود .

وصدق حمايته ، حاضرا كان أم غائبا . فإذا تمّقت هذه العرى ، ورأيت مجتمعاً متناقضاً تشيّع فيه الأثرة والمظالم فأين يكون الإيمان؟ .

وهل يترك الله أمة تصنّع ذلك بنفسها ورسالتها من غير عقوبة؟ .

والنصوص من الكتاب والسنّة متضادّة على أنّ ناساً من أهل التوحيد يدخلون النار لعدم وفائهم بحقوقه ، ثم يخرجون منها بعد قضاء المدد المحكوم عليهم بها في هذا السجن اللعين ويُلقّبون بالجهنميّين .

عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ : «يدخل أهل الجنة الجنّة وأهل النار النار ، ثم يقول الله تعالى : أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ، فيخرجون منها قد اسودوا فيلقون في نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في جانب السيل . ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية»^(١) .

وهذا الحديث - وأمثاله كثير في الصحاح - قاطع بأنّ من أهل الإيمان من يعذب في النار لسوء عمله . . .

على أن سوء العمل يتفاوت ، وللناس عامة موازين تضبط الخير والشر ضبطاً دقيقاً . فمن كانت حسنته أرجح فهو على رجاء المغفرة : ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئَا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة : ١٠٢) .

أما من عبث وغش وأفسد ، ومُرِد على الشر ، فلن يدخل الجنّة بأقداره النفسيّة هذه حتى يتّهّب فيها عذاب جهنّم .

ونحن نرى أنّ المسلم يعذب على ذنوبه لأمررين : أولهما أنه أساء في خاصية نفسه ، فالجزاء المرصد له عدل .

والآخر أنه أساء للإسلام نفسه إذا تعاون مع غيره من الرعاع على إظهار الأمة في صورة تحقر دينها وتصرّف الناس عن الثقة فيه والطمأنينة إليه .

وهل كفرت أم شتى بالإسلام إلا من سلوك هؤلاء؟ .

(١) البخاري .

مدارج التوبة

وأهل الطاعة محتاجون إلى التوبة كما يحتاج إليها أهل الذنب .
ومن ظن منهم أنه ليس عنده ما يتوب منه ، أو ظن أنه مستغن عن المتاب فقد
زل . والتوبة يتطلبها هؤلاء من عدة جهات .

(أ) من الخلل الذي يقع في الطاعات نفسها ، فإن أحدا قلما يأتي بالعبادات
المطلوبة مبرأة من كل عيب . وإن العبد لينظر في صلاته ، أو في تلاوته كتاب الله
مثلا ، فيرى أن ضبابا من الغفلة اعترضه في آتونات كثيرة وهو يصلى أو يقرأ .
ومن الممكن أن ترفض له هذه القربات بتهمة ثابتة ، وهي سوء الأدب ورداءة
التقدم بها بين يدي الله .

ومن أجل ذلك التقصير المستمر شرع الاستغفار في أعقاب الصلوات ثلاث مرات .
(ب) من ظن بأن هذه الطاعات هي منتهى حق الله عليه ، وأنه بأدائها قد
فرغت ذمته ، ودفع لله ثمن نعمه ، وثمن جنته !! .

وبقى على الله أن يبعث ملائكته لتسلم المغدور مفاتيح الجنة التي استحقها
بعمله . . . !!!

وبعض ذوى الطاعات ينتابهم شيء من البلادة وتحجر القلب ارتكانا إلى أشكال
العبادات التي فعلوها .

وربما نزلوا بهذه الأوهام والأدواء إلى درك لم ينزل إليه بعض الخطئين ، كما
شرحنا ذلك في موضعه من حكم ابن عطاء الله . . .

(ج) وصنوف العبادات التي طولب المؤمنون بها كثيرة .

ومن الناس من يفتح له في ناحية لا يستطيعها غيره لاستعداد زودته الأقدار به
من قبل ، وليس في هذا حرج .

إنما الحرج في أن يستكثر الإنسان من عبادة ما على حين يجب عليه التوسع في
غيرها وتوجيهه فضول نشاطه إليها .

فالغنى الذى يستكثر من الصلوات ويقتصر فى الصدقات والنفقات يجب أن يتوب من هذا المسلك .

والعالم البليغ الذى يصوم الاثنين والخميس ، ويلوذ بالصمت أو بالإيجاز فى مواطن الزجر والنصح يجب أن يتوب من هذا المسلك .

إن بعض الناس يؤثر عبادة على أخرى لأنها أدنى إلى هواه ، وأقرب إلى السلام ، والدين أحكم فى تعاليمه وأدق فى موازينه مما يتوهם هؤلاء .

(د) وحراسة الطاعة بعد أدائها من شتى الآفات ضرورة ، كحراسة الزرع من الديدان والأعراض التى تجتاحه .

والرجل يعطى ثم يمتن ، أو يطلب بعطائه الصدارة بين الناس ، رجل يحبط - بهذا المسلك - عمله ، ويضيع أجره .

وقد رسم القرآن الكريم صورة هذا المخروم من أجره وهو أفقر الناس إليه فضرب له المثل بشيخ طاعن في السن له أولاد ضعاف يرثكون من حديقة لهم ، قد تعلقت بها آمالهم .

وبغتة صوح نبتها إثر كارثة جوية أحرقتها . . . !!!.

ذلك مثل العمل الصالح يهلك بسوء التعقيب عليه ﴿أَيُودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الشَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكَبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعْفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (البقرة: ٢٦٦) .

توبه الصفوه، واستغفار الرسول

والصفوة الذين نعانيهم هم قوم رسخت في مقام الإحسان أقدامهم ، فهم بين مراقبة وشهود . حياتهم يبرق عليها سنا من صدق المعرفة وتمام الاستسلام ، فلا يكاد يدرك نوره غروب .

وتوبة هؤلاء تجنيء من هبوطهم عن المستوى الذي يجب أن يبقوا محلقين فيه .
ونحن -لكن نستبين منازل الناس - يجب أن نعرف أن الاختلاف شديد جدا بين
قيم البشر ، وأن المسافة بين إنسان وإنسان تصل أحيانا إلى بعد ما بين الأرض
والسماء . . .

تأمل قول رسول الله - ﷺ - يصف درجات المؤمنين في الجنة : «إن أهل الجنة
ليستأدون أهل الغرف من فوقهم كما تستراءون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق
من المشرق والمغرب - لتفاصل ما بينهم !!

قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم .

قال : بلى والذى نفسى بيده ، هم رجال أمنوا بالله وصدقوا المرسلين»^(١) .

إن الفروق القائمة بين أفراد الجنس البشري واسعة ، والله عز وجل يكلف كل امرئ على مقدار ما أوتي من سعة روحية وعقلية .

وكما أن العطاء من صاحب القناطير المقنطرة يستقل إذا لم يكن غدقا ، فكذلك يستقل الجهد المحدود من ذوى الهمم الضخام .

وهذا معنى قولهم : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، أجل إن العمل الذى يعتبر حسنا من إنسان يعتبر تقصيرا من إنسان آخر .

وذلك ما جعل أحدهم يقول :

ولو خطرت لى فى سواك اراده على خاطرى يوم حكمت بردتي

(١) البخاري .

دَوْافِعُ هَذِهِ الْمُبَالَغَةِ فِي الْحُكْمِ مُعْرُوفَةٌ، وَأَفَاقُ الْكَمَالِ الدِّينِيِّ بِعِيلَةِ الْمَدِيِّ،
وَفِي ذَلِكَ فَلِيَتَافِسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿الْمَطْفَينِ: ٢٦﴾.

والإحسان عليا منازل المؤمنين ، ولكنه أدنى درجات الأنبياء ، إنهم لا يهبطون دونه مهما أخطئوا .

وصلتهم بالله الذى اصطفاهم لحمل رسالته أزكي وأنقى من أن يلموا بسيئة
على النحو الذى نعهد فى عامة المؤمنين .

إن الأخطاء التي يستغفرون منها أنماط من الكمال لا يطيقها أمثالنا ولا ساداتنا .

وإنى أقرأ سورة : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ
اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَابًا﴾ (النصر: ١ - ٣)
فَأَتْسَاعَلُ : مَمْ يَسْتَغْفِرُ الرَّسُولُ رَبِّهِ وَهُوَ يَسْتَعْدُ لِلْقَائِمِ؟ .

إن الصحابة فهموا من السورة أن الله يخبر رسوله باقتراب أجله بعد أن نجح أروع
نجاح في أداء رسالته !! لقد محا الماهمية ، وبنى الأمة التي صنعت أزهى حضارة
في التاريخ ، وعليه أن يتهيأ للقاء ربه بعد ما أدى واجبه كاملا ، وهم يتهيأ ؟
بالتسبيح والاستغفار .

إن المغفلين من الخلق هم الذين يتصورون هذا الاستغفار من أخطاء تشابه أخطاءنا .
ولا عجب فالحملون في محطة القاهرة عندما يسمعون بيت المعري :
تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب في ازدياد
لا يتتصورون التعب إلا حمل قفف وحقائب ، وشد حبال وأحزمة ، ذلك مبلغهم
من العلم .

وذلك ما فهمه المستشركون والمبشرون من أمر الله لرسوله أن يستغفره !!
رغم بعض أولئك المبشرين أن آيات القرآن تشهد بأن عيسى أفضل من محمد؟
قالوا : إن الله ذكر محمدا في القرآن بما يفيد أنه رجل مذنب ! .
آلم يقل له : ﴿لِيغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقْدَمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأْخُرَ﴾ (الفتح : ٢) .
أما عيسى فإن صفتة في القرآن أرفع : ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرِيمٍ وَجِئْهَا
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَنْ أَمْرَرَ بِهِ﴾ (آل عمران : ٤٥) .

ونحن نعرف أن موسى وعيسى ومحمد رجال عظام ، وأنهم من أصحاب العزمات الشداد في إبلاغ رسالات الله ، وهداية الخلق بأنوار الوحي الأعلى .

ونعلم أنهم جميعاً متواضعون كرام الخلق لا يفكرون أحددهم في الاستعلاء على غيره وانتزاع الصدارة منه ، وأن محمداً أبى على أمته أن تفضله على غيره من الأنبياء .

ونعلم أن ذنوب هؤلاء المنسوبة إليهم - وما منهم إلا نسب له ذنب - ليست بـ
على غرار ما تقرف من سيئات ، إنما هو ما ذكرنا آنفاً من نزولهم أحياناً عن الأوج
الذى يسبحون فيه مع الكواكب ، أما هبوطهم إلى مستوانا الأرضى فمستحيل .

ولكن ما دام الأمر قد غمض فى بعض الأذهان حتى تطاولت على مقام النبي
الخاتم صاحب الرسالة العظمى فيجب أن نلقي على الموضوع فضل بيان .

إن مكانة محمد بين إخوانه المسلمين تقررها الوظيفة التي وكلت إليه ، وهي
وظيفة تعرف ضخامتها عندما تعرف أن الله قسم تاريخ الحياة نصفين .

نصفاً أول ، وزع عشرات ومئات الأنبياء في أرجائه .

ونصفاً آخر اكتفى فيه بنبوة واحدة لا معقب عليها!!!

ونصف الحياة الأول يمثل الجانب الناشئ ، أما نصفها الآخر فهو يمثل الجانب
الذكي المستحكم الرأى .

إن محمداً وحسب هو الرسول الذي صاحب العالم في الفترة اليقظة النابهة
من تاريخه .

فعلام يدل هذا؟ .

على أنه أخف كفة من أحد الأنبياء الذين زحموا العالم القديم!!

وشيء آخر ، إن كتاب محمد هو السجل الباقى المستوعب لتعاليم الله دون
نقص ولا زيادة ، تلك التعاليم التي جمعت وصايا السماء من الأزل إلى الأبد ،
وكتبت لها صيانة لم تؤثر عن كتاب في الأولين والآخرين ، فهي محفوظة حرفاً
حرفاً ، ولا نقول كلمة كلمة .

فعلام يدل هذا؟ .

على أن صاحب الكتاب الخالد أتفه حظاً ، وأضلال شائناً من أصحاب الكتب
التي فقدت أصولها وعرتها من التحرير ما عرها!

هل النبوات الخلية أنبه وأرقى من النبوة التي استطالت واستعرضت حتى وسعت الأمكنة والأزمنة؟ .

إن مكانة محمد بالنسبة لغيره من الأنبياء قد عرفت وتوطدت بعد ما استبانت حدود رسالته ، وعرف المستقدمون والمستأخرون : أى مهمة أعدتها له الأقدار ، وزودته لاحتمالها بأنفس المواهب؟ .

نعم ، لقد استغنى بهذه الشهادة العلمية عن ترزيكة الكلام .
وأضحتى فى المنصب الذى ينح هو فيه الآخرين ما يدفع عنهم الشبه ويرد المفتريات .
ولذلك أجرى الله على لسانه الآيات التى تعلق قدر ابن مريم ، وانساق الأسلوب فيها أقرب إلى الإطناب منه إلى الإيجاز .

لماذا؟ لأن النبي الكريم عيسى تعرض لاتهام ساقط ، وقدفت أمه المخصنة بما هي منه براء ، فكان هدف القرآن تبرئة الرجل الشريف ، والإشادة بشخصه والثناء عليه بما هو أهله .

وكذلك كان موقف القرآن من موسى لما آذاه اليهود ونالوا منه : ﴿فَبَرَأَ اللَّهُ مِمَّا
قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ (الأحزاب : ٦٩) .

وبديهي أن موقف الدفاع عن شخص ما إنما يقوم على إعظامه وتكريمه وذلك هو السر فى التنويه بعيسى على النحو الذى حفل به القرآن . . .
ولا مجال لعقد مقارنة بين الرسولين عيسى ومحمد ، لأن ذلك لا باعث عليه ولا محل له ولافائدة فيه .

وإنه لما يعلى قدر محمد أن يكون كتابه مقتضبا فى مدحه ، مرسلا فى مدح غيره .
لقد تدبّرت هذه وأنا أقرأ آيات من سورة الدخان ، ووجدت أن الله جل شأنه أعظم محمدا بهذه المعاملة .

قال يصف موقف العرب من الرسالة وصاحبها : ﴿أَنَّى لَهُمُ الْذَّكْرَى وَقَدْ جَاءُهُمْ
رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ (١٣) ثُمَّ تولوا عنه و قالوا معلم مجنون (١٤) إِنَّا كَاشِفُوا العَذَابِ قَلِيلًا
إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ (الدخان : ١٣ - ١٦) .

كل الذى وصف به محمد هنا هو الإبانة .

فلننظر ما جاء بعد فى موسى ورسالته : ﴿ وَلَقَدْ فَتَّا قَبْلَهُمْ قَوْمٌ فَرْعَوْنُ وَجَاءُهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لِكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَأَنْ لَا تَعْلُوَ عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيْكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٩)﴾ (الدخان : ١٧ - ١٩) .

إن موسى هنا وصف بالكرم والأمانة وبأنه آت بسلطان مبين !!

هذا السياق المختلف هو الآية على عظمة محمد ، وعلى أن الله جعله إمام الأنبياء طرا .

إن الله أجرى على لسان الأخ الأكبر ما يليق بعكته من دفاع عن إخوته وتنويع بجهادهم وإبراز لما خفى منه . . .

أما هو فحسبه أصل الاصطفاء لإبلاغ أضخم رسالة سماوية .

رسالة أنقذت من العدم تراث من قبله ، وردت إليه الحياة ، ثم نهدت لقوى الشر التي هزمت الوحى وحملته في الأعصار السالفة فدمرتها تدميرا .

إن إمامه محمد تشهد بها دلائل كثيرة ، فإذا أنكرها البعض فلا ضير .

لقد قال عن نفسه - إخبارا بالواقع فقط - : «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» .

إنه لا يذكر ذلك فخرًا ، بل كما يذكر ترتيب الناجحين في امتحان أو مباراة . لتقرير حقيقة علمية ينبغي أن تعرف ولا معنى لسترها .

الثانية

ترك العاصي واجب يقينا ، ومن الخير ترك ما يقرب منها حذرا من الوقوع فيها ، وهذه حيطة يتذرع بها أولو العزم من الناس ، فإن الذى يكره الرذيلة . يجعل بينه وبينها حجاباً ، ويختط منهاجاً لحياته بعيداً عن مظانها وعن أصحابها ، وبذلك يؤمن الانزلاق إليها ويتحصن من أسباب الإغراء التى تكثر قريباً منها .

والأصل في ذلك ما رواه النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «الحلال بين الحرام بين ، وبينهما متشابهات ، لا يعلمها كثير من الناس .

فمن اتقى الشبهات استبرأ لدینه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات كراع
يرعى حول الحمى يوشك أن يوافعه .

ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا إن حمى الله فى أرضه محارمه .

ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد
جسد كله ، ألا وهي القلب»^(١) .

والحديث يضرب المثل للبعد عن الشبهات بما نألفه في حياتنا من أحوال الرؤساء .

فإن لكل منهم مقراً يتربع فيه وحول هذا المقر ساحة واسعة يحضر الاقتراب منها ، وينتشر الحراس حولها .

هذه المساحة المجاورة للمقر هي الحمى ، وكأنها استحكامات خارجية للمقر نفسه ، ولذلك أعطيت حكمه ، ومنع اعتداوها .

وقد جرت العادة أن يضى الناس لشأنهم بعيداً عن هذه الأسوار وما وراءها ، إذ لا غرض لهم في القرب منها .

ولما ذا يتسلكون حولها فيتعرضون للعنـت .

والله عز وجل - قوله المثل الأعلى - بين أن له في أرضه حمى يجب تهيبه ، وهذا

(١) البخاري .

الحمى يتمثل في المحرمات ، التي نهى عنها ، والكيس من باعد بين نفسه وبين هذه المحرمات ، ضنا بشرفه عن التلوك ، وسيرته عن الاعوجاج .

ثم إن الحلال الحمض والحرام الحمض قد بنت أدلةهما ، واتضحت حكمه التحليل والتحريم فيهما : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعُدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لِعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ . (النحل : ٩٠)

بيد أن هناك أموراً أخذت من جانب الحلال شيئاً ومن جانب الحرام شيئاً ، فإذا تأملها الناظر وجد لها الوجهين المتضاربين ، وتساءل : أى الناحيتين يسلك ؟ .

والمؤمن الصالح يرجح هنا الحظر على الإباحة ضماناً للبراءة عرضه ودينه .

وسيره مع الحزم في هذه الميادين يرسخ قدمه في طريق الحق ويجعله قصياً عن أسباب الإغواء والإغراء .

أما التهاون فربما بدأ خفيف الأثر لكنه قد يجر بعد إلى ما لا يليق .

والروايات الأخرى لحديث الحلال والحرام تدل على ذلك .

فلا بدّى داود أن الرسول قال : «إنه من يرتع حول الحمى يوشك أن يخالطه وإن من يخالط الريبة يوشك أن يجسر» (وفي رواية النسائي) فمن ترك ما شبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك ، ومن اجترأ على ما شك فيه من الإثم أوشك أن ي الواقع ما استبان «وفي رواية الطبراني» الحلال بين والحرام بين ، وبين ذلك شبّهات ، فمن أوقع بهن ، فهو قمن أن يأثم ، ومن اجتبهن فهو أوفى لدينه

في الأمور المعتادة : ما خير رسول الله - ﷺ - بين أمرتين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه ، وذلك جرى على منهج الإسلام في التيسير لا التعسّير ، ولا عجب فرسول الله ﷺ يقول : «بعثت بالحنفية السمحنة السهلة» (١) .

أما فيما يتصل بالخير والشر والجمال والقبح ، وما يرضي الله وما يغضبه ، فإن مقتضى الحزم أن يحصن المرء نفسه بمزيد من الحيبة فيترك شيئاً من اخلال القريب من الحرام كراهية للحرام وما يتصل به ، وعن عطية السعدي «لا يبلغ العبد أن يكون في المتقين حتى يدع ما لا يأس به ، حذراً لما به يأس» (٢) .

وعن حذيفة قال رسول الله ﷺ : «فضل العلم خير من فضل العبادة ، وخير دينكم الورع» (٣) .

(٣) الطبراني .

(٢) الترمذى .

(١) أحمد .

والورع ليس معناه التزمت أو العجز عن مواجهة المشكلات المتعددة بحكم الله فيها ، كلا ، فالمسلم يتحرى الحق جهده وينظر ما يلقاه من القضايا والأحكام ببصر نير ، فإذا اطمأن قلبه إلى ما يقنعه استقر عليه . دون وجل ، وإن نفر قلبه من مسلك أو رأى هجره واستراح .

عن أبي ثعلبة الخشنى رضى الله عنه قلت يا رسول الله أخبرنى . ما يحل فى وما يحرم على؟ قال : «البر ما سكت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، وإن أفتاك المفتون»^(١) .

وعن عبد الرحمن بن يزيد قال : اكثروا على عبد الله ذات يوم . فقال عبد الله : إنه قد أتى علينا زمان ولسنا هنالك!! ثم إن الله عز وجل قدر علينا أن بلغنا ما ترون . فمن عرض له منكم قضاء بعد اليوم فليقضى بما فى كتاب الله .
فإن جاء أمرليس فى كتاب الله فليقضى بما قضى به نبيه - ﷺ - .

فإن جاء أمرليس فى كتاب الله ولا قضى به نبيه فليقضى بما قضى به الصالحون .
فإن جاء أمرليس فى كتاب الله ولا قضى به نبيه ولا قضى به الصالحون
فليجتهد رأيه . لا يقل : إنى أخاف إنى أخاف!!

فإن الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور مشتبهات . فدع ما يرribك إلى ما لا يرribك^(٢) .

التورع عن الشبهات كما رأيت ، سواء كانت هذه الشبهات رأى العين وحكم العلم ، أم كانت قلق النفس وريبة الفؤاد .

ونحن فى عصر مادى مغرق يستمع إلى هذا الكلام وكأنه يستمع إلى لغة الجان أو سكان المريخ . إنه يطلب ما يشتهى غير دار بحديث الحلال والحرام وما بينهما من شبهات ، ولقد أعطى الرذائل اسمًا غير اسمها ليتناولها وهى حبوبة إليه شكلًا وموضوعا .

والأجيال التى تخوض الحياة بهذه النية أقرب إلى طباع البهائم منها إلى خلائق الإنسان .

(٢) النسائي .

(١) أحمد .

أما أهل التقوى فهم وقافون عند حدود الله ، هيا بون أن يلموا بشيء يسقط
مروءتهم ويغضب عليهم مولاهم .

وقد ترقى بهم هذا الإيمان إلى ضرب آخر من الورع يستحق الإشارة . قال
أبو سليمان الداراني : كل ما شغلك عن الله فهو شؤم عليك .

وقال سهل بن عبد الله حين سئل عن الحلال الصافى :
الحلال هو الذي لا يعصي الله فيه .

والحلال الصافى الذي لا ينسى الله فيه .

فالورع الذي لا ينسى الله فيه ، هو الذي سئل عنه الشبلى رحمة الله ، فقيل له :
يا أبا بكر ما الورع؟ قال أن تtower ألا يتشتت قلبك عن الله عز وجل طرفة عين^(١) .

وهذا اللون من التفكير يقتضى نمطا حازما من السلوك لا يطيقه إلا الأقلون ،
منهم عمر بن الخطاب الذي كان ينظر إلى الرجلين المتساوين فإن كان أحدهما
قريبا له أقصاه .

كأن قرابةه من أمير المؤمنين عائق له عن الصداره والوجاهه !!
ولم ذلك؟ لأن عمر شديد الحساسية بما تفعله الأسر الحاكمة فهو لا يريد أن
تنتظم له أسرة في هذا السلوك ، وهو يحتاط لذلك من أول الأمر .

ومنهم أبو حنيفة الذي كان يتاجر في الملابس محدودا لنفسه ربما يكفل
 حاجاته فحسب ، رافضا ما زاد على ذلك ، وإن طابت نفوس المشترين بدفعه ! .

وأساس هذه الخطة - التي لا تنزم بها الشريعة - أن هؤلاء الرجال شغلتهم في
حياتهم وظيفة أعلى ، فهم يوجلون ما يصرفهم عنها ، أو يوهى عزائمهم فيها .

إن الرجل الذي يرى في الله عوضا عن كل فائت ، ينظر إلى عرض الدنيا
وشئون الأقربين والأبعدين نظرة خاصة ، نظرة من يحكم عليها من أعلى ، لا من
تحكم فيه وهو دونها أو وراءها . . . !!

(١) أحمد .

العفة والقناعة

وهذا العنوان أحب إلى وأقرب إلى لسان الشريعة من عنوان «الزهد والفقر» الذي أجرى على لسان نفر من الكاتبين .

فالعفة مثلاً تعنى قدرة الواجد على ضبط نفسه ، أو قدرة المحرم على حكم إرادته ، فهى فضيلة إيجابية حية ، أما الزهد فربما اقترب فى مدلوله ، وفي نتيجته من هذا المعنى ، إلا أنه أدنى إلى السلبية والاستكانة .

وقد رأيت الشارع استعمل كلمة العفة فى نصوص كثيرة صحيحة ، أما كلمة الزهد فترى أنها لم تجيء فى حديث صحيح .

عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : «أربع إذا كان فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا : حفظ الأمانة ، وصدق الحديث ، وحسن الخلقة ، وعفة فى طعمة»^(١) .

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : «من أكل طيباً ، وعمل فى سنة ، وأمن الناس بوائقه دخل الجنة ، قالوا : يا رسول الله إن هذا فى أمتك اليوم كثير . قال : وسيكون فى قرون بعدي قليلاً»^(٢) .
وفى الحديث «من يستعفف يعفه الله»^(٣) .

وقد قال تعالى لأولياء اليتامى : ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلَيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلَيَأْكُلُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (النساء : ٦)

وقال للعزاب : ﴿وَلَيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (النور : ٣٣) .

وفي الرضا بالواقع ، وحسن استغلاله ، ورد السخط على الأقدار يقول رسول الله ﷺ : «خير الذكر الخفى ، وخير العيش ما يكفى»^(٤) .

(٤) ابن حبان .

(٣) البخارى .

(٢) الترمذى .

(١) أحمد .

وفي الحديث «يا أيها الناس هلموا إلى ربكم فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى»^(١).

وعن عبد الله بن الشخير : أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ ﴿الحاكم التكاثر...﴾ قال: يقول ابن آدم مالي !! وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت»^(٢).

وظاهر من التأمل في الآثار الأخيرة أنها تحارب رذائل الشره والطمع ، والتبرم باليسور ، والبخل في وجوه الحق .

إن اشتئاء الدنيا بجحون وطغيان يكاد يختلط بدماء الناس ولحومهم ، وينخرج بهم عن جادة الاعتدال والحكمة .

والإنسان مجادل طويل اللسان في توسيع شهواته ، وبسط حاجاته ، وتحقيق ما عنده ، وإعلان التمرد عليه ، ونعته بأقبح النعوت!!

وماذا يصنع الدين إن لم يهذب هذه الطباع ، ويدرب البشر على فضائل العفة والقناعة؟

وبديهي أن العفاف لا ينافي الإثراء من وجوه الخير ، وأن القناعة لا تناهى السعي إلى حالة أفضل ، وسنشرح ذلك على ضوء ما نورد من نصوص .

وقبل أن نتناول الموضوع كله بالشرح نحب أن نثبت رأي العلماء الحفاظ في بعض أحاديث الزهد المشهورة .

ذكر الحافظ المنذري عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال : « جاء رجل إلى النبي - ﷺ - فقال : يا رسول الله : دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس ! .

فقال : «ازهد في الدنيا يحبك الله، وزهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس» ..!!
قال : رواه ابن ماجه وقد حسن بعض مشايخنا إسناده .

وفيه بعد ، لأنه من روایة خالد بن عمرو القرشی الأموی السعیدی عن سفیان الثوری عن أبي حازم عن سهل .

وخلال هذا قد ترك ، واتهم ، ولم أر من وثقه .

(٢) مسلم .

(١) الطبراني .

قال الحافظ المنذري - بعد ما زيف سند الحديث : لكن على هذا الحديث لامعة من أنوار النبوة ، ولا يمنع كونه راويه ضعيفاً أن يكون النبي قاله - أى بسند آخر !! وقد تابعه - يعنى خالدا - محمد بن كثير الصنعاوى عن سفيان .

ومحمد هذا وقد وثق على ضعفه وهو أصلح حالا من خالد ، والله أعلم .

هذا وقد ذكر المنذري جملة أحاديث أخرى في الزهد ، لم يبلغ أحدها مرتبة الصحيح ، وإن كانت هذه الأحاديث مقبولة المعنى من حيث دلالتها على العفة والقناعة والرغبة في الله والاكترات بالدار الآخرة .

وذلك ما جعل المنذري رحمة الله يشرح قيمتها العلمية بالحكم الصائب على أسانيدها ، ثم يروج للمعاني النبيلة التي احتوتها ، وهى معان تستحق الحفاوة .

بيد أنتا - نحن المسلمين - الآن في وضع دقيق يفرض علينا أن نسير بحذر في تربية أمتنا ، وعلاج العلل المتنافضة التي استشرت في كيانها .

إن حب الدنيا وكراهيته الموت من أسباب الانهيار العسكري الذي أصاب المسلمين في الأعصار الأخيرة .

والجهل بالدنيا ، والعجز في ساحتها هما كذلك من أسباب الانهيار العام الذي استغله خصومنا في النيل منا والإنهاء علينا .

وقاده الفكر الإسلامي مسئولون عن أمرین :

أولهما : تعزيز عقيدة الإيمان بالله واليوم الآخر ، وتذكير الإنسانية بصيرها الخالد بعد أن ترحل عن أرجاء هذه الأرض .

والآخر : البراعة في هذه الحياة وإحراز قصب السبق في علوم الأرض ، وتوجيه القوى المادية المختلفة - بعد فقهها وإجادتها - إلى خدمة المثل العليا للإيمان الصحيح .

وقد بلى المسلمون بن جهلهم في الحياة باسم الزهد فيها ، ومن صرفهم عن العمل لها بزعم أن ذلك صارف عن عمل الآخرة !!

ونسى الغافلون الذين بلوا أمتنا بهذه الخنة أن أختصر الطرق لخسارة الآخرة ، وضياع الحقيقة ، وسيطرة الضلال ، وانتشار الإثم ، هو هذا التجهيل والتعطيل ..

من أجل ذلك آثرنا - ونحن بصدق تربية النفوس - أن نؤثر عنواناً على عنوان ، وإن كان هذا للتغيير في الشكل لا يعني من الإفاضة في شرح الموضوع نفسه .

تتسع أقطار الأرض لأعداد كثيفة من الناس ، فيهم من يؤمن بالله واليوم الآخر ،
وفيهم من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر .

وكلا الفريقين يسعى وراء رزقه ، يبغي أولاً أن يوفر الفضورات التي لابد منها
لنفسه ولأهلها ، فإذا اطمأن إلى تحصيلها اجتهد أن ينعم عيشه بالمرفهات ، وأن يقطع
مرحلة العمر ، وهو طاغي كاس آمن مسرور . . .

يكاد البشر مؤمنهم وكافرهم يتفقون على هذا المنهج ، بيد أن هناك خلافاً عميقاً
القرار في تفكير الفريقين ، ولون شعورهما .

فالكافر يعبد الحياة لذاتها ، ويطلبها على أنها الهدف الفذ ، والفرصة التي إن
ضاعت ضاع كل شيء .

إنه لا يعرف الحياة إلا هذه الفترة المتاحة له على ظهر الأرض! ولا يصدق أن
وراء هذا العيش عيشاً! أو أن بعد هذه الدار الدنيا داراً أخرى . . . !!

أما المؤمن فإنسان على النقيض في فهمه وحكمه ، إنه واثق من أن هناك حياة
أكدر وأعظم ، ينتقل البشر إليها ويخلدون فيها .

وأن المخيا على ظهر الأرض وسيلة لا غاية ، أجل ، هو وسيلة لما بعده ، فهنا
الغرس ، وهناك الحصاد؛ هنا السباق ، وهناك النتيجة .

والدنيا إذا لم تكن مطية للأخرة كانت دار غرور ، وميدان باطل .

البون بعيد كما ترى بين الفريقين ، وإن تجاوزا في المقام ، وكدحا وراء الطعام .

هذا يأكل ليعيش ، وذاك يعيش ليأكل . . .

إلا أن سحر الدنيا شديد الفتنة ، ومعارك الأقوات تستنفذ طاقات ضخمة وتقييد
بإزائها مشاعر وأفكاراً كثيرة .

ثم هناك تعویل الألوف المؤلفة على النتائج العاجلة في هذه الدنيا ،
وتأثيرهم بها . . .

هذا كله جعل الدين يبرز في تعاليمه ناحيتين خطيرتين .

الأولى: الإلحاح في إفهام الناس أن الدنيا لا تطلب لذاتها ، وأنها لا تستحق أن
يتفاني الناس فيها ، إنها إذا لم تكن وسيلة للأخرة ، وإذا لم تصنع منها جسراً تعبر
منه إلى رضوان الله فلا خير فيها . . .

اطلبها ، وامتلكها كلها إن استطعت ، لكن على هذا الأساس !
إن الله لم يقل لقارون صاحب الكنوز الهائلة : انخلع من مالك كى أرض عنك
لا ، ابق فيه ولكن ﴿وَابْتُغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارُ الْآخِرَةِ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾
(القصص : ٧٧)

الإسلام يحتقر الدنيا أشد الاحتقار عندما تكون الأمل الذي لا أمل معه ،
وعندما يركض البشر في طلابها لا لشيء إلا للحصول عليها ، والاستكثار منها .
ثم الموت في أطواها ، كما تموت دودة القرز داخل ما تنفس ، وليس تنفسها
شيئا .

إنه يحتقرها هدفا ، ولكنه يحتفظ بها وسيلة ! .
وفي الإذراء على الحياة الدنيا ، عندما تكون غاية مجردة جاءت آيات كثيرة ،
وأحاديث شتى ، ثبت هنا بعضها :

قال الله تعالى : ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءَ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ
فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هُشِيمًا تَذَرُوهُ الرَّيْاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
مُقْتَدِرًا﴾ (الكهف : ٤٥)

والمثل واضح في أن الدنيا تتبخّر بين أيدي عبادها ، كما يتبخّر الماء من الهشيم ،
إذا هم يقبحون أيديهم على وهم .
ماذا كسب خزان المال عن وجوه الخير؟ وماذا ربحوا من نسيان رازقه ، ورفض
وصاياه فيه؟ .

ماذا نال عباد الأثرة والجاه والاستعلاء عندما يسلون من الحياة الدنيا سلا ،
مخلفين بعدهم أملاكا ، ذهب اسمهم عنها ، وأثراً كحركة الريح في صفحة الماء ،
لا استقرار لها ولا بقاء ...

وماذا يكون موقفهم عندما يقول الله لهم : ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ
أَوْلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا حَوَلَنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ (آلأنعام : ٩٤) .

إن عبادة الحياة ، واعتدادها كل شيء ، خطأ شائع ، ولذلك صوب الإسلام إليه
سهامه وأهان أركانه ، وقد جاءت على لسان رسول الله نصائح عالية نوردها هنا

بعدما رسمنا لها الإطار الذي يحدد المقصود منها ، حتى لا يفهم غير أنها هجوم على الحياة مطلقا . إنها هجوم على نشان الحياة للحياة ، دون فكر في رب ، أو ثقة في جزاء .

عن ابن عباس : مر رسول الله - ﷺ - بشارة ميتة قد ألقاها أهلها ، فقال : «والذى نفس بيده للدنيا أهون على الله من هذه على أهلها»^(١) .

وفي رواية عن أبي الدرداء : مر النبي - ﷺ - بدمنة قوم - كوم سبخ - فيها سخلة ميتة . فقال : ما لأهلها فيها حاجة ؟
قالوا : يا رسول الله لو كان لأهلها فيها حاجة ما نبذوها !
قال : والله للدنيا أهون على الله من هذه السخلة على أهلها .
فلا أفيتها أهلكت أحدا منكم^(٢) .

وعن الصحاحي بن سفيان أن رسول الله - ﷺ - قال له : «يا صاحاك ما طعامك ؟
قال :

يا رسول الله . اللحم واللبن ! قال . ثم يصير إلى ماذا ؟ .
قال : إلى ما قد علمت ...

قال : فإن الله تعالى ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلا للدنيا^(٣) .

وهذه الآثار جمیعا تتعى على عشاق اللذة ، وطلاب المتعة ما ينغمسون فيه إلى الأذقان ، ذاهلين على الله ، وعن الآخرة ...

وإن كانت الدنيا إنما تطلب وتستحب ، وسيلة لما بعدها ، وقنطرة لثوبة الله جل وعلا ، فإن طالبها يجب أن يلتزم القوانين التي شرعها من تطلب الدنيا لأجله .

وقد روی عبد الله بن عمر وقال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : «الدنيا حلوة خضرة فمن أخذها بحقها بورك له فيها ، ورب متخوض فيما اشتهرت نفسه ليس له يوم القيمة إلا النار»^(٤) .

إن هناك أدابا لامتلاك الحياة يجب أن تدرس بدقة ...

وذاك سر حديثنا عن العفة والقناعة ، والحل والحرمة ...

(٤) الطبراني .

(٣) أحمد .

(٢) الطبراني .

(١) أحمد .

إن الناس قد ترتكس أخلاقهم ، فيرون أن ما تيسر أخذه ، لا يصح أن يتركوه
مهما كانت وسائله ، وهذه بهيمية مقبوحة . . . !
فالرجل الشريف لا يبني كيانه إلا بالطرق الشريفة .
وإذا أتته الدنيا عن طريق الختل ، أو الغش ، أو الجور أبي أن يقبلها ، ورأى فراغ
يده منها أرضى وأذكى لنفسه .

وفي عفة المؤمن عن الحرام يقول رسول الله ﷺ : «ولأن يأخذ رأباً فيجعله في
فيه خير له من أن يجعل في فيه ما حرم الله عليه»^(١) .

وعن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال : قال لى رسول الله - ﷺ - : «إنه لا
يدخل الجنة لحم ودم نبتاً على سحت ، النار أولى به . يا كعب بن عجرة .
الناس غاديان فعاد في فكاك نفسه فمعتقها ، وعاد مويقها»^(٢) .

وانظر كم ترى الفرق شاسعاً بين رجل يصيده طعامه حطباً للنار ، وأخر يتكسب
الحلال ، ويتملك الكثير منه والقليل ، فإذا ما ينفقه منه على نفسه وولده يحتسب
زكاة له ، ويوزن في عمله مع الباقيات الصالحات .

فعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : «أيما رجل كسب مالاً من
حلال ، فأطعم نفسه ، أوكساها ، فمن دونه من خلق الله فإن له به زكاة»^(٣) .

ونزول الإنسان على قانون الاكتفاء الذاتي هو العون الأكبر على ما يأمره به
الإسلام من قنوع وعفاف ، فإن أكثر متاعب الناس تأتיהם من السرف فوق ما
يطيقون والتطلع إلى حياة لا يملكون أسبابها .

وربما لجأوا إلى الاستدانة والمطال ، أو إلى المسألة والضراعة ، أو إلى الرشوة
والسرقة ، أو إلى النهب والسطو ، كي يسدوا أبواباً من النفقـة فتحوـها على أنفسـهم
تزيـداً وطمـعاً .

ولو أنهم عاشوا في حدود ما يملكون لاستراحوا وأراحوا .

والاكتفاء الذاتي يلزم الإنسان أن يعرف موارده جيداً ، ثم يضغط شهواته
ورغائبه حتى لا تعلو به حدود ما يملك .

(٣) ابن حبان .

(٤) الترمذى .

(٥) أحمد .

وأن يغمض عينيه عن حياة الآخرين فلا يحاول المقارنة المثيرة .
وأن يوقن بأن سقوطه رهن بعده يديه إلى هذا وذاك .

وأنه كلما ترفع ، واستعف ملك نفسه وثبت كرامته ، وعاش وجيها في الدنيا
والآخرة .

روى جابر بن عبد الله أن رسول الله - ﷺ - قال : «إياكم والطمع فإنه هو الفقر
وإياكم وما يعتذر منه»^(١) .

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه . أتى النبي ﷺ رجل فقال : يا رسول
الله أوصني وأوجز ، فقال النبي ﷺ : «عليك بالإيس ما في أيدي الناس ،
وإياك والطمع فإنه فقر حاضر ، وإياك وما يعتذر منه»^(٢) .

إن القناعة قدرة على ضبط النفس إذا تطلعت إلى ما يذلها في العقبى ، وإن
حلا لها أول الأمر .

وفي الحديث : «إن شرف المؤمن قيام الليل وعزه استغناوه عن الناس»^(٣) .
إنك لا تعدم أن ترى في كل مجتمع أنسا يسهل على أنفسهم الوقف
بالأبواب وتعليق الآمال بذى جاه أو سلطان .

قد يرقبون العطاء لأن حبهم للمال عودهم التكفف .

وقد ينشدون الحظوة أو المنصب ، لأن عوزهم النفسي زين لهم أن العزة في
المنصب الذي يملكونه ، فهم يزدلفون إليه حتى ينالوا ما يشتهون .

ولاني لأعرف أنسا لهم ذكاء وباع يؤجرون مواهبهم إلى كل من يدفع لهم الثمن .

وما الثمن؟ شيء من حطام هذه الحياة الهالكة ، أو من وجاهاها الخادعة .

وقطع العقائد والأخلاق لا يجد بيئه يأوي إليها ويستقر فيها ، مثل هذه النفوس
المتعلقة الهاابطة .

لذلك لا تعجب إذا كان سيد الرجال محمد - ﷺ - يأخذ أصحابه
بدرس الكراهة التي تصيبهم عن هذه المواطنسوء ، ويغرس في لحمهم
ودمهم معانى العفة والقناعة التي تجعلهم ملوكا في أنفسهم ، لأنه ليست لهم
حاجة تدنيهم إلى بشر .

(٣) الطبراني .

(٤) البيهقي .

(٥) الطبراني .

عن عوف بن مالك الأشجعى رضى الله عنه قال : كنا حديثى عهد ببيعة فقال لنا رسول الله ﷺ : «ألا تباعونى؟ فقلنا قد بايعناك يا رسول الله ، فعلم نباعتك؟ . قال : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، والصلوات الخمس ، وتطيعوا ، وأسر كلمة خفية ، لا تسألوا الناس ... »

فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً أن يناوله إياه^(١) .

وعن ابن أبي مليكة قال : ربما سقط الخطام من يد أبي بكر الصديق رضى الله عنه فيضرب بذراع ناقته فينيخها فيأخذه .
قال : فقالوا له : أفلأ أمرتنا فتناولكه؟ .

قال : إن حبّى ﷺ أمرنى أن لا أسأل الناس شيئا^(٢) .

وأنت ترى أن الراكب إذا طلب سوطاً وقع منه على الأرض فإنه لم يسأل عسراً ولم يقترب جرماً ، ومع ذلك فإن التزه عن طلب شيء من الناس وتعويد النفس الاستغناء المطلق ، كان من وراء هذا السلوك الحازم .

* * *

وال المسلم ما دام يطلب الدنيا ليستعين بها على آخرته ، ويبتغى بها مرضاه ربه ، فهو غير مستعد لأن يضحي في سبيلها ببرؤتها ، أويفقد شيئاً من دينه .

إنها إن جاءته من طريق الحال الطيب قبلها ، وإنما رفضها ، ولم يتبعها نفسه .

وهو كذلك إذا حازها لم يسمح لها أن تشغله عن الله ، كيف ، وهو إنما رغب فيها ، لا لذاتها ، بل لأنها وسيلة لما هو أعظم منها وأخلد ...؟

والحق أنه في إبان الذهول عن الله ، والغفلة عن حقوقه تنطلق قوى البشر لاغتنام الحياة وانتهاب فرصها بقوى عارمة ، ورغبات عنيفة ، وتکاد معركة الخbiz تنسى الناس أنهم بشر فيهم وداعع من السماء ، وأنفاس من روح الله .

إن الجانب الحيواني هو الذي يطن في آذانهم ، بل إن الأهداف التي تسعى إليها الدواب قريبة المرمى قليلة الكلفة ، أما البشر فهم يستخفون عقولهم الذكية ومواهبهم العليا للاستكثار من هذا الخطام والاستئثار به عن الآخرين .

وكم يطوى الليل والنهار من جراحات وضحايا ومظالم في أعقاب هذا العراك المادي السفيه .

(٢) مسلم .

(١) أحمد .

ترى لو فكر الناس بأنة ، وذكروا ربهم بدل نسيانه ؛ وقدروا حقه بدل جحده ؛ وفرغوا له من أفكارهم وأفئدتهم قسطا يصلهم به ، أما كان يحمل عنهم هذا العناء كله؟! .

إنه يستطيع أن يلهمهم رشدا يختصر لهم المتاعب ؛ ويتجنبهم الجري وراء الأوهام . وما أكثر الذين يجرون وراء الأوهام الباطلة في الحياة وما أكثر الذين يبتلون الكثير ويجنون القليل ، ولو أرادوا لكانوا أحسن ظنا .. تأمل ما رواه معلق بن يسار عن رسول الله - ﷺ - في حديث قدسي يقول الله : «يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ قلبك غنى وأملأ يديك رزقا ، يا ابن آدم لا تبعد مني أملأ قلبك فقرا ، وأملأ يديك شغلا»^(١) .

وهذا الحديث ليس دعوة للعطل ، وكل دعوة للعطل فهي منقوضة من أساسها ، إنما هو دعوة لتغليب الله على هموم الرزق ومتاعب العيش .

والكد في الدنيا للاستعفاف والغنى من حقائق العبادة ، ومن معانى الجهاد . ولكن الملاحظ أن مطالب الدنيا قد تكتسح أحيانا الواجبات المفروضة ، وتصرف الناس عن الله والصلاحة له ، والمآل إليه وذاك ما يعالجه الدين بشتى الأساليب .

ومن ترهيب الناس عن هذه الحال ما رواه زيد بن ثابت قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له .

ومن كانت الآخرة نيته جمع الله عليه أمره ، وجعل غناه في قلبه وأنته الدنيا وهي راغمة»^(٢) .

وفي رواية «إنه من تكون الدنيا نيته يجعل الله فقره بين عينيه ، ويشتت عليه ضياعته»^(٣) ولا يأته منها إلا ما كتب له .

ومن تكون الآخرة نيته يجعل الله غناه في قلبه ويكفيه ضياعته وأنته الدنيا وهي راغمة»^(٤) .

الموضوع يحتاج إلى زيادة إيضاح ، وفي القرآن الكريم ما يجمع أطراف الحقيقة بإيجاز وحسم .

قال تعالى في طلاب الدنيا كرسوا أوقاتهم ونشاطهم لها دون سواها :

(١) الحاكم . (٢) ابن ماجه .

(٣) الضياعة مصدر الرزق من وظيفة أو تجارة أو حرفة . (٤) الطبراني .

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّتْهَا نُوفٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسِنُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَجَبَطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (هود: ١٥، ١٦).

هذا الفريق من الناس لا يصدق بيوم آخر ، ولا يستعد له بشيء ، فطبعي الحال يكون له فيه نصيب ، إنه لم يزرع له عوداً واحداً ، فمن أين يأتي الجن؟ .

أما عمله في الدنيا الذي توفر عليه وتفرغ له فهو محسوب له كله ، لا ينقص ذرة من الجزاء المرصد له ، ولا بد أن يقتطف ثمرته دون بحسن أو جور .

لكن تسعير هذا العمل بما يساوي قيمته الحقيقية ، ثم الزيادة عليه بما يشاء الله من فضل ، أمر موكول لله وحده .

فقد يؤدي رجلان متساويان الموهب والجهد عملاً واحداً ، فيعطي أحدهما حقه كاملاً ، وينحى الآخر نصيباً أكبر من صدارته أو عافية ، أو ثراء ..

إنه لم يظلم الأول فليس له اعتراض .

ولما كان الله هو المريد المختار الماجد الذي لا يعوق قضاءه شيء ، ولا يتتحكم في عطائه أحد ، فقد أعلن هذا التفاوت منسوباً إلى مشيئته ، حتى يشعر البشر طرائفه بأن القاهر فوق عباده فلا يقهرون ، الغالب على أمره فلا يغلب .

قال جل شأنه : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلَنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانُوا سَعَيْهِمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلَّا نُمْدُهُؤُلَاءِ وَهُؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (الإسراء: ١٨ - ٢٠) .

وهذه الآيات مبينة في أن أثمن ما يملكون الكافرين على ما يعملون موكولة للقدر الأعلى الذي لا يظلم ، وإن فاوت في العطاء .

وأن هذه الدنيا يمرح فيها الكافرون والمؤمنون متعمدين بالإمداد الإلهي الرحب الغدق ، ولكن الكافرين الذين ظفروا في عاجل أمرهم بالرحمة الإلهية على ما يعملون ، وعلى ما لا يملكون ، يحرسون يقيناً من الدار الآخرة ..

فإن هذه الدار لا يكسبها إلا من أرادها ، واستعد للحياة الباقية فيها ، وكان المهدى
الذى أثره لنيلها هو الإيمان الحق . . .

وفي معاملة طلاب الآخرة ، وما يتنزل عليهم من رحمات الله وأفضاله يقول

جل شأنه : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرَثَ الْآخِرَةِ نَزَدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ (الشورى : ٢٠) .

أساس المعاملة هنا ليس العوض المكافىء ، بل العطاء الواسع ، وهو عطاء يشمل
الدنيا والآخرة ؛ وإن كانت الدنيا ليست دار جزاء ، إلا أن الابتلاء المفروض فى
فترتها لا ينافي أن تورق للمؤمن أغصان من عمله يسير فى ظلها حيناً إذا كان هناك
من يلفحه الحر ، ويئوده التعب .

وتوضيحاً للمعاملة التى يلقاها المؤمن من ربها روى أبو هريرة أن رسول
الله ﷺ قال : يقول الله عز وجل : «إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا
تكتبوها عليه حتى يعملها .
فإن عملها فاكتبواها بثلها .

وإن تركها من أجلها فاكتبوا لها حسنة .
وإذا أراد عبدى أن يعمل حسنة فاكتبوا لها حسنة .
فإن عملها فاكتبوا لها بعشر أمثالها إلى سبعين مائة»^(١) .

وبعد هذا البيان يعالن الله عباده بما عنده فيقول : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا
فَعِنَّ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (النساء : ١٣٤) .

فى أرجاء الشرق والغرب نسمع صياغاً بعيد المدى متباون الصدى حول رفع
مستوى المعيشة ! ورفع مستوى المعيشة هدف إنسانى لا ريب فيه .

إن الفقر عاهة مؤذية ، وعورة بادية ، وما يرضى بالفقر للناس رجل له قلب وخلق ..

ونحن نشد أزر المكافحين فى هذه السبيل ، ولا نستكثرون جهودنا التى بذلناها
بالقلم واللسان والعمل كى نضع آثار المؤس عن البائسين .

(١) البخارى .

إلا أنتا تتساءل : ثم ماذا بعد أن يغتنى الناس من فقر ، ويترفهوا من خشونة؟ .
هل الغاية التي ينتهي إليها جهاد المصلحين ، أن يعيش الناس فوق هذا الشري
يأكلون الطعام ، ويسمعون الأغانى ، ويطلبون المتع ، ويستخدمون آخر ما أنتجت
الحضارة من أدوات الترويح والتنعيم؟ .

أما إعدادهم للدار الآخرة فصفر . أو قليل لا يذكر ، لأنهم بين مرتب فيها
أو مكذب لها ، أو غافل عنها !! .

إن انتهاء العالم إلى هذا المصير فى تفكيره وشعوره ، وإلى هذا الوضع فى يقظته
ومنامه ، معناه أن العالم صرעה الإلحاد وغطته غواشى الكفر والفسق والعصيان .
وهذا ما لا يمكن أن يهادنه الدين أو يعيش بجواره هادئاً .

وهذه السكرة الرائفة عن الحق وتبعاته ، هذه الدنيا التي اشتهرت لذاتها ولم
يحسب فيها حساب الآخرة ولم يعرف فيها حق الله ، هي التي لعنها الإسلام
وصب عليها جام غضبه ، وحقراها وحقرا أصحابها معها .

﴿وَيَوْمَ يُعَرَّضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيَّابَاتُكُمْ فِي حَيَاكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ
بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا
كُنْتُمْ تَفْسِقُونَ﴾ (الأحقاف : ٢٠)

والقرآن الكريم يتناول عشاق الحياة من هذا القبيل ؛ فيقرر أن مصيرهم إلى سقر ،
ويندد بما كانوا عليه في الدنيا من شبع وطيش . . . ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ
ظَهْرِهِ (١٠) فَسُوفَ يَدْعَوْ تُبُورًا (١١) وَيَصْلَى سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣)
إِنَّهُ طَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ (الإنشقاق : ١٤ - ١٠) .

والإسلام إنما يستنكر السرور الباحث المستغرق في العاجلة دون سواها .

وهو إذا كان قد نهى في الآية السابقة على الكافرين إدھابهم طيباتهم في
حياتهم الدنيا فليس معنى هذا أنه حرم الطيبات على المؤمنين !!

كيف؟ وهو ما أحل لهم إلا هذه الطيبات !! ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحْلِلَ لَهُمْ قُلْ أُحْلِلَ
لَكُمُ الطَّيَّابَاتُ . . .﴾ (المائدة : ٤) .

إن المأخذ على الكافرين أنهم لا يعرفون لله حقاً في هذه الحياة .
يطعمون رزقه ولا يشكون فضله ، ويحيون في ملكه وينكرون وجوده ويظنون
الحياة على الأرض هي الوجود الأول والآخر ، ثم لا شيء بعد هذا إلا العدم
المطلق ...

وحياة تصطبغ بهذا اللون القاتم تخالف من كل ناحية حياة المؤمنين الذين يردون
الفضل إلى صاحبه في كل خير يعرض لهم نحو ما قال أبو الأنبياء إبراهيم وهو يتبرأ
من الآلهة الباطلة : ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٧٧) الذي خلقني فهو يهدين
وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي (الشعراء : ٨٠ - ٧٧)
الحيوانية التي ينبعث عنها فريق كبير من الناس في مبادئهم الاجتماعية
والسياسية ، بل في سيرتهم النفسية والخلقية ، والتي تجعل الحياة لا تعدو الوجود
المادي وحده . هي التي عناها الإسلام ، وهو يصف الكافرين فيقول : ﴿وَاصْحَابُ
الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ﴾ (٤١) في سُمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظَلِّ مَنْ يَحْمُومُ (٤٣) لَا
بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتَرْفِينَ (الواقعة : ٤١ - ٤٥) .

وعندما يذيقهم العذاب الأليم ثم يقول : ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ
بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ (غافر : ٧٥) .
إن دنيا المؤمنين محكومة بحدود واضحة .

وهي حدود تفطر الناس بصرامة عن كل محرم ؛ وترسم لهم أسلوب انتفاعهم
بهذه الدنيا إلى حين .

وتأخذهم بأدب واضح من التعسف والقنوع بحجزهم عن الأهواء والأطماء
وبدفعهم في طريق الاعتدال والقصد .

إن عظمة الإيمان ليست في أنه يجرد أصحابه من الدنيا ... وما يظن ذلك إلا
جاهل قاصر ...

عظمة الإيمان أنه يتتيح لأصحابه امتلاك ما يشاءون ؛ على أن يكون ذلك في
أيديهم لا في قلوبهم ، ينزلون عنه جملة وتفصيلاً في ساعة فداء ، ويحيون في ظله
ـ ما عاشوا - أحفاء سمحاء .

في مجال الترقى قد تكون الحرب سجالا بين المرء وهواه ، يستقيم حينا ، ويتعثر حينا آخر ، ولكن إصراره على المضى إلى هدفه يصل به على طول المدى . والمرء في المراحل الأولى من هذه المغادرات يلقى نوازعه الدنيا وجها لوجه فإذا انتصر عليها أحس لذة الظفر نورا يشرق على روحه ويتخلل شعاب قلبه . وفي هذه الحال يقول رسول الله ﷺ : «أحب الصدقات أن تتصدق وأنت صحيح شحيح تحب الغنى وتخشى الفقر»^(١) .

ومدافعة شح النفس إذا حدثت بالبخل عمل حسن ، وله أجره الكريم . وهناك نفوس لا تزال تتعود العطاء حتى يكاد يكون لها طبعا . فإذا وجدت دواعي الكرم انطلقت إليه كالسهم المارق ، لا يعوقها حديث نفسي ولا يشبطها تعلق بدنيا . . .

كما يصف ذلك العربي نفسه وهو يستقبل الضيف الوافد ، يقول : فَقَمْتُ، وَلَمْ أَجِئْ مَكَانِي، وَلَمْ تَقِمْ مَعَ النَّفْسِ عَلَامَاتُ الْبَخْلِ الْفَوَاضِحِ إِلَى جَذْمِ مَا قَالَ قَدْ نَهَكَنَا سَوَامِهِ وَأَرَاضِنَا فِيهِ بِوَاقِ صَحَائِحٍ كَذَلِكَ مَوْقِفُ الْمُؤْمِنِ مَعَ الدُّنْيَا .

لقد حجبته عزائم الإيمان عن كل محرم فيها ، وملا يديه من أسبابها ليتوسل بها إلى إقامة الحق ، وعبادة الله .

وربما أقبل على ما أباح الله منها ، ولا عليه في ذلك . وربما سيطرت عليه المعانى الكبيرة التى يعيش فيها فصرفته صرفا عن أنواع المباحث التى يهش لها غيره .

ومن ثم ترى فريقا من الناس يمر بأفراح الدنيا كما يمر التلميذ المتختن غدا ، بضجة الناس فى الشوارع ، لا يعلق بانتباهه منها إلا القليل .

عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ دخل عليه عمر وهو على حصير قد أثر في جنبه .

فقال : يا رسول الله ، لو اتخذت فراشا أوثير من هذا . فقال : «مالي وللدنيا ،

(١) البخاري .

ما مثلى ومثل الدنيا إلا كراكب سافر فى يوم صائف ، فاستظل تحت شجرة
ساعة ، ثم راح وتركها»^(١) .

وفى رواية أن أبا بكر وعمر قالا : يا رسول الله ، ما يؤذيك خشونة ما نرى من
فراشك وسريرك؟ وهذا كسرى وقيصر على فراش الحرير والديباج؟؟ .

فقال : «لا تقولا هذا ، فإن فراش كسرى وقيصر إلى النار ، وإن فراشى
وسريري هذا عاقبته إلى الجنة» .

ونحن لا نقول بتحريم الطيبات ، وإنما نصف درجة من الاستغراق العلوى تشغل
عما دونها . . .

وإننا لنرى أحيانا بعض العلماء يشغلهم التفكير عن العناية بهندامه والاهتمام
بمظهره ، لا عمدا لإهمال ، ولكنها طبيعة هذا الصنف من الرجال .

(١) أحمد .



الصبر

سألت نفسي : هل يستغنى الأحياء عن الصبر؟ إنه لازم لكيانهم المعنوي لزوم الماء ، أو الهواء لكيانهم المادي .

نعم ، قد تستغنی الدواب ، أليفة كانت أو متواحشة عن هذا الخلق ، لأنها تحيا وفق هواها ، وتسيرها طباعها وحدها .

أما الإنسان فهو كائن تتبعه التكاليف مذ يعقل ، تأمره بفعل ما قد يكره وترك ما قد يحب .

بل هو بعد سنوات قلة من ميلاده يقاد إلى المدرسة برغمه ، ويبدأ المربيون يخرجونه من نطاق اللهو واللعب إلى استيعاب مبادئ القراءة والحساب وحفظ أشتات من النصوص والأناشيد .

فقبل أن يجيء مرحلة البلوغ ، وتناط بعنقه التكاليف الجادة تمهد نفسه لحياة يهجر فيها رغباته ، ويحترم فيها واجباته .

ولا أدرى إذا كان هناك فريق من البشر يستغنون عن هذا الخلق لظروف معينة تحيط بحياتهم ، وتوفّر لهم من المتع والراحة ما يغنينهم عن مشقات الكفاح الأدبي والمادي ! إنني أشك في أن الدنيا تضم بين طياتها هذا النوع من الناس .

ذلك أن البشر الذين يقتربون من الأنعام في سيرتهم تفرض عليهم الأقدار آلاما من طراز سافل ، لا يرون محি�صا من احتمالها وهم كارهون .

على أننا نومن بأن طريق الإيمان ، ومنهج الشرف والبطولة ، لا بد فيه من صبر طويل طويل .

وإن الرجل كل الرجل هو الذي يستسهل المتاعب بإلفها ، والذى يعلم أنه - ما تردد في صدره نفس - يجب أن يلقى الدنيا والناس بحزم وتحفظ ، وبصيرة وتصون . وأن الصبر عتاده في هذا كله ، فلن يزحرج عن النار ويدخل الجنة إلا بهذه اليقظة وهذا الدأب .

عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : «لما خلق الله عز وجل الجنة والنار ، أرسل جبريل - يعني إلى الجنة - فقال : انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها . فجاء فنظر إليها وإلى ما أعد الله عز وجل لأهلها فيها ، فرجع إليه فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها ، فأمر بها فحجبت بالمكاره ، وقال : ارجع إليها فانظر إليها ، فرجع فإذا هي قد حجبت بالمكاره ، قال : لقد خشيت ألا يدخلها أحد ، قال : فانظر إلى النار وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، فجاءها فنظر إليها ، وإلى ما أعد لأهلها فإذا هي يركب بعضها بعضا ، فرجع إليه ، فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها ، فأمر بها فحفت بالشهوات ، وقال له : ارجع إليها فانظر إليها فإذا هي قد حفت بالشهوات ، فرجع إليه فقال : وعزتك لقد خشيت ألا ينجو منها أحد إلا دخلها»^(١) .

إن حياة الدعة والطراوة تقتل المواهب ، وتطرمر الملوكات . . .

والإنسان يتحرك ، ويكتشف معدنه ، ويغزو إنتاجه كلما أحس خطر المعارضين ، أو صدمات الشدائـد ، كأن أسرار الحياة الكامنة فيه يستثيرها التهديد فتحتفظ للدفاع عن نفسها ، فتندفع إلى الأمام ناشرة آملة . !

ومعادن العظام إنما تبرق وسط الأنواء التي تكتنفها ، فكأن هذه الأنواء رياح تنفح في ضرامها ، فيتوهج ، ولو ترك وحده لكان وشيك الانطفاء .

ومن حكمة الله البالغة أنه لم يدع البشر يحيون في بيئه تعطيهم خيرها منحا بل استحييهم في بيئه تفرض الكفاح فرضا ، ولا تعطى الشمار إلا بعد غراس .

وهذا الجهد المبذول من مصلحة الحياة نفسها لتبقى وتزدهر . من مصلحة الأحياء أنفسهم ليبلغوا تمامهم .

وقد كتب الأستاذ عبد العزيز الإسلامبولي كلاما في هذا المعنى يستحق التسجيل . قال :

«حكى أحد العلماء المحدثين عن نفسه ، فقال : كنت مغرما في طفولتي بجمع شرائق الفراش ، ومراقبة خروج الفراشة منها في الربع ، وكان جهادها في التخلص من سجنها يشير عطفى دائمًا . وأتى والدى يوماً ما بمقص وأعمله في غلاف الحرير المطبق على الفراشة وساعدها على الخلاص ، ولكنها ما لبشت قليلا حتى ماتت ،

(١) الترمذى .

وعندئذ قال أبي : يا بنى إن الجهد الذى تبذله الفراشة لتخرج من الشرنقة يخرج السم من جسمها وإذا لم يخرج هذا السم ماتت الفراشة ، وكذلك الناس إذا جهدوا فى سبيل ما يريدون زادوا قوة وعزمًا ، ولكن إذا واتاهم ما يريدون سهلا طيعا ، غالب عليهم الضعف ومات منهم شئء جليل الخطر» .

وهكذا تعلم أن طبيعة الحياة عجيبة ، لأنها لا تعطينا إلا لتأخذ منا ، ولا تهب لنا شيئاً إلا لتنازل مقابلاً ، إنها تكيل لنا صاعاً بصاع ، فلا غرو إذا كانت آمالنا لا تتحقق إلا بين الأشواك في الأرض الوعرة ، وكأنما شاءت الدنيا أن تخفي مفاتنها تحت مصارع المطامع لتدفع الإنسان إلى مواجهتها والتغلب عليها .

ولعله من أنفع ما يساق في هذا المطلب ، ما قصه على أستاذ من جلة المعاصرين ، وكان - يرحمه الله - معروفاً بالهدوء ، والعزوف عن الشهرة ، وقد رقى أرفع المناصب العلمية قال : «لقد أخذت نفسي بتلاوة القرآن الكريم كلما ادلهم خطب ، وأهreu إلى تدبر كلام الفلاسفة الحكماء ، أروح به عن نفسي ، وقد وقفت على تشبيه رائع لما نلابس في دنيانا ، كلما تذكرته هدأت أعصابي واطمأن خاطري .

ذلك بأن الحياة اليومية ، ليست إلا كوبا ، نصفه مملوء بالماء ، ونصفه الآخر فارغ لا ماء فيه . فلست بمستطيع أن تحكم بأنه مملوء كله ولا فارغ كله وهكذا الناس لن تجد فيهم ذا حياة مملوئة كلها ولا ذا حياة فارغة كلها ، وإنما لكل منا نصيب من السعادة ، ونصيب من الشقاء ، ومن ثم يسعد أحدهنا أو يشقى بنظرته إلى الكوب الذي يستقى منه ، فإن رأه مملوءا إلى نصفه سعد بحياته ، وإن رأه فارغا إلى نصفه شقى بها .

وهكذا تعودت إذا ما نزعت نفسى إلى الجزء ، أن أذكر أن الحياة ليست فارغة

إلى نصفها ، بل مملوءة إلى نصفها ، ومن ثم تذهب متاعبى كفاء الغم ، وتروح أحزانى بدوا» .

وتصبير النفس على لأواء العيش ، وإرهاق الواجب ، وإغراء الهوى يحتاج إلى عزم وقوة ، وللعرب في هذا الأفق أداب رفيعة ، استوحوها من تجاربهم ومن أشواقهم إلى العزة ، ورغبتهم في وفرة العرض وصون الجانب ، وهم يرون أن الركوع للشدائد لا جدوى منه إلا الذلة التي منها يأنفون ، وأن هذه الشدائيد لا تقييم بساحة إلا ريشما تحول عنها ، فعلى المرأة أن يواجه ما يكره بجلد ، أملاً أن تنقضع الغمة وهو ثابت الخلق نقى الصفحة قال عبد العزيز بن زراة :

وليلة من ليالى الدهر كالمحة
باشت من هولها مرأى ومصطرعا
ونكبة لور من الرامى بها حجرا
أصم، من جندل الصوان لانصدعا
مررت على، فلم أطرح لها سلسبي
ولا شتكيت لها وها ولا جزعا
لا يضيق به صدرى إذا وقعا
ولاتخشعت من لا وانها جزعا
كلاً لبست فلا النعماء تبطرنى

وقال ابن الرومى :

ولا تحسن الشريبي قى فإنه
ستألف فقدان الذى قد فقدته
ومن لم ينزل يرعى الشدائيد فكره
وللشرياق لاع، ولله فرجة
وكم أعتقت بعد البلايا مواهب
وكم سوء يوماً سيقفوه صالح
شهاب حرير واقتدى خامد
كإلفك وجدان الذى أنت واجد
على مهل، هانت عليه الشدائيد
وللخير، بعد المؤييات، عواید
وكم أعتقت بعد الرزايا فسوائد
وكم شاءمت يوماً سيقفوه حاسد

والصبر الذى دعا إليه هؤلاء الشعراء ، رياضة نفسية يعرفها ألو النهى من كل جنس وملة ، وهى رياضة تحمد لطبيعتها ونتائجها ، فإن العزم أشرف من الوهن والأمل أجدى من اليأس .

وهو لاء أبانوا عما فى الصبر من محاسن ضبط النفس وطيب العقلى .

ونحن نذكر هذه الوجهة إلا أننا نتحدث عن صبر المؤمنين ابتغاء وجه الله .
وهو مسلك يجعل الصبر مشوبا بالذكر ، ويجعل المؤمن بصيرا بأن القدر الأعلى

من وراء الأحداث التي تنبئه ، ومن ثم فهو في شدته يظل قوى الصلة بربه ، يدعوه ويرجوه ، ويستسلم له ويعتمد عليه ، ويتحمل ما يتحمل لأن الله شاء ، ومشيئته موضع التسليم والإعزاز . . .

والكلمة التي تلتج فؤاده «إنا لله وإن إليه راجعون» يستشعر معناها فيما يعرض له من أساء وضراء ، فيربو يقينه ، ويكون أهلا لرحمات الله بعد ما استبان موقفه من بلاه .

والمرء في هذه الحياة يختلف عليه العسر واليسر ، والصحة والسقم ، ومطلوب منه في الأحوال التي يكرهها ألا تهتز علاقته بربه وألا يضعف أمله في فرجه . إنه في اليسر يطمئن إلى ما في يده من مال فلا يبالي بالوساوس ، بل قد تبتعد عنه ابتعادا تماما!

أليس ماله في يده؟

ومطلوب منه إذا أعسر ألا يستبد به القلق ، وأن يكون إيمانه بالغيب مشينا للسكينة في قلبه ، فيعلم أن الله لن يخذله إذا قصده ، وأن ما في يده جل شأنه قريب منه ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ (البقرة: ٢٦٨) .

والصبر لله روح يدور على هذا الحور ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «الزهد في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ، ولكن الزهادة في الدنيا لا تكون بما في يدك أو ثق منك بما في يد الله ، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها أبقيت لك»^(١) .

والجملة الأخيرة في الحديث تفند قول ابن الرومي لما مات ابنه .

وما سرني أن بعثت به بشوابه ولو أنه التخلية في جنة الخلود!!

هذا جزع ولدته ساعة طيش وجنون .

وخير منه ، قول من واسى مؤمنا في فقيدة له «رحمة الله خير لها منك ، وثواب الله خير لك منها» .

الصبر لله روح الإيمان ، ومناط الشواب الجزيل الذي يصبّه الله صباً على من ابتلى ، وسلم لله أمره ﴿إِنَّمَا يُؤْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر: ١٠) .

وعن أبي بردة قال : كنت عند معاوية وطبيب يعالج قروحه في ظهره وهو

(١) الترمذى .

يتضرر ، فقلت له : لو بعض شبابنا فعل هذا علينا عليه ، فقال : ما سرني أنى لا أجدك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما من مسلم يصيبه أذى فى جسده إلا كان كفارة لخطاياها»^(١) .

وعن أبي هريرة ، قال رسول الله ﷺ : «قال الله تبارك وتعالى : إذا ابتليت عبد المؤمن فلم يش肯 إلى عواده ، أطلقته من أسارى ، ثم أبدلتة لحما خيرا من لحمه ، ودما خيرا من دمه ، ثم يستأنف العمل»^(٢) .

ومعنى الحديث : أن الصحة التى تعود للمرىض تجدد له جسده ، وأن صبره على ما نزل يحيى ماضيه السىء كله ، ويفتح له صفحة جديدة لا سوء فيها ...

وعن أميمة : أنها سألت عائشة رضى الله عنها عن قوله تعالى : ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِّبُكُمْ بِهِ اللَّهُ...﴾ (البقرة : ٢٨٤) ، وقوله : ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾ (النساء : ١٢٣) ، فقالت عائشة : ما سألكنى أحد منذ سألت رسول الله ﷺ فقال لي : «يا عائشة هذه معاقبة الله العبد بما يصيبه من الحمى والنكتة والشوكة ، حتى البضاعة يضعها فى كمه ، فيفقد لها فيفزع لها ، فيجددها فى ضبئنه ، حتى إن المؤمن ليخرج من ذنبه كما يخرج الذهب الأحمر من الكير»^(٣) .

الضبن : ما بين الإبط والكشكح .

والآحاديث كثيرة فى أن المرض يمحى المؤمن ، وينقى نفسه ، ويغسل ذنبه .
عن عبد الرحمن بن أبي بكر : أن رسول الله ﷺ قال : «إنما مثل العبد المؤمن حين يصيبه الوعك والحمى كحديدة تدخل النار فيذهب خباثها ويبقى طيبها»^(٤) .

وذلك طبعاً للصابر المحتسب ، المستكين لقضاء الله الراجحى عفو الله .

وقد بلغ من فضل الله على المؤمنين به أن فتح لهم باب الأمل فى واسع مغفرته ، إذا صدقوا الصبر فى عناء ليلة واحدة .

(١) أحمد . (٢) الحاكم .

(٣) ابن أبي الدنيا . (٤) الحاكم .

فعن الحسن - يرفعه لرسول الله ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ لِيُكْفِرُ عَنِ الْمُؤْمِنِ خَطَايَاهُ كُلُّهَا
بِحُمْيَةِ لَيْلَةٍ»^(١) .

وفي رواية : كانوا - يعني أصحاب رسول الله ﷺ يرجون في حمى ليلة كفارة لما
مضى من الذنب^(٢) .

ونحن نعرف أن توبة نصوحا تغمر قلب امرئ في ساعة من ليل أو نهار تطهر
ماضيه كله ، وأن رحمة الله وسعت كل شيء .

بيد أننا نحسب حديث الحسن وأمثاله إنما يصور السبب المباشر لنيل المغفرة ،
ولا يصور الأسباب كله .

إن الحروب الكبرى قد تقع إثر حادث محدود أو اشتباك تافه .

فهل هذا أو ذاك هما أسباب الحرب؟ كلا ، إن الخلافات الماضية ، والعداوات
الأصلية ، والقوى المعبأة ، والرغبات الكامنة في تسوية الموقف هي التي تشعل نار
الحرب وتستبقها سنتين عددا .

وما الحادث الذي وصفوه بأنه سبب الحرب إلا الفرصة التي انتهت لتغريغ ما
في النفوس ، كذلك القول بأن صداعا يصيب المؤمن يكفر عنه ما مضى .
الحق أن أصل الصبر في نفسه ، واحتلاله هذا الصبر بأحواله وأعماله كله هو
الذى رشحه لما رأينا .

وحال ليلة يعد من نظرنا أنموذجا لشمايل حياة ، كما قيل للدرید :
تقول: لا تبكى أخاك؟ وقد أردي مکان البکا، لكن بنيت على الصبر!
وقد وصف الله المؤمنين بخلال طيبة كثيرة ، في مقدمتها الصبر ، ﴿وَالَّذِينَ
صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَنَاهُمْ سِرًا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرِءُونَ
بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أَوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (٢٢) جنات عدن يدخلونها ومن صلح من
آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كُلِّ بَابٍ (٢٣) سلام
عليكم بما صبرتم﴾ (الرعد: ٢٤ ، ٢٢) .

ولماذا يكون التسلیم عليهم مقوتا بما صبروا فقط مع أنهم أدخلوا الجنة بشمايل كثيرة؟ .

(١) ابن أبي الدنيا .

الواقع أن الصبر عنصر أصيل في بقية الأعمال الأخرى من صلاة ونفقة وإصلاح ، إنه الخيط الذي جمعها ، بل هو في كيانها كلام في صنوف الأحياء ...
قال ابن القيم :

لما كان الصبر المحمود هو الصبر النفسي الاختياري عن إجابة داعي الهوى المذموم كانت مرتبته وأسماؤه بحسب متعلقه .

فإنه إن كان صبراً عن شهوة الفرج المحرمة سمي عفة ، وضدها الفجور والزنا والعهر .

وإن كان عن شهوة البطن ، وعدم التسريع إلى الطعام ، أو تناول ما لا يجمل منه سمي شرف نفس ، وشمع نفس ، وسمى ضده شرها ودناءة ، ووضاعة نفس .

وإن كان عن إظهاره ما لا يحسن إظهاره من الكلام سمي كتمان سر ، وضده إذاعة وإفشاء ، أو تهمة أو فحشاء ، أو سبا أو كذبا أو قدفا .

وان كان عن فضول العيش سمي زهدًا ، وضده حرصا .

وإن كان على قدر ما يكفي من الدنيا سمي قناعة وضده الحرص أيضا .

وإن كان عن إجابة داعي الغضب سمي حلما ، وضده تسرعا .

وإن كان عن إجابة داعي العجلة سُمى وقارا وثباتا ، وضده طيشاً وخفة .

وإن كان عن إجابة داعي الفرار والهرب سمي شجاعة ، وضده جينا وخورا .

وإن كان عن إجابة داعي الانتقام سمي عفوًا وصفحًا ، وضده انتقامًا وعقوبة .

وإن كان عن إجابة داعي الإمساك والبخل سمي جودا ، وضده بخلًا .

وإن كان عن إجابة داعي الطعام والشراب في وقت مخصوص سمي صوما .

وان كان عن إجابة داعي العجز والكسل سمي كيسا .

وإن كان عن إجابة داعي إلقاء الكل على الناس ، وعدم حمل كلهم سمي مروءة .

فله عند كل فعل وترك اسم يخصه بحسب متعلقه .

والاسم الجامع لذلك كله (صبر) وهذا يدل على ارتباط مقامات الدين كلها بالصبر من أولها إلى آخرها .

وهكذا يسمى عدلا إذا تعلق بالتسوية بين المتماثلين وضده الظلم ويسمى سماحة إذا تعلق ببذل الواجب والمستحب بالرضا والاختيار ، وعلى هذا جميع منازل الدين أ . ه .

والذى يتبادر إلى أذهان العامة أن الصبر يستحب لمواجهة المأسى والآلام ، ولا ريب أن عمل الصبر في هذه المواطن مطلوب .

بيد أن عمل الصبر في النفس إبقاءها في مجال الاعتدال والتؤدة والبصر .
وإذا كانت الضراء تخرج الناس عن وعيهم حينا ، فإن السراء تخرج الناس عن وعيهم أحيانا .

ولاتصال النعمة سكرة تستفز بعض الضعاف ، وتدفعهم إلى ما لا يليق من بطر وجهل .
من أجل ذلك أوجب الإسلام الصبر على المسلم في حالاته من خير وشر ونفع وضر ،
قال تعالى ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا إِلَيْنَا إِنْسَانًا مِنَ رَحْمَةِ ثُمَّ نَزَّعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَوْسُ كُفُورٌ ﴾ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءً بَعْدَ ضَرَاءً مَسْتَهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرَحٌ فَخُورٌ ﴾ (١٠) إِلَّا
الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (هود: ٩ - ١١) .
والصبر بهذا الشمول امتلاك أزمة النفس كلها حتى لا تشد بها الأهواء والأنواء
يمنة أو يسرا .

ومن الحكم التي رواها ابن الجوزي : «إن لله عز وجل يوما لا ينجو من شره
منقاد لهواء » .

وإن أبطأ الصرعى نهضة يوم القيمة صريح شهوة .

وإن العقول لما جرت في ميادين الطلب كان أوفرها حظا من يطالها بقدر ما
استصحبته من الصبر - يعني أن الذكاء المجرد لا يكفي في إحراز النجاح إن لم
يصحبه دأب على العلم ، وتحمل لأعبائه ، ألا ترى الأرنب الذي اعتمد على
سرعته الطبيعية ، غلبته سلحفاة لأن ركن إلى قدرته فلها وعرفت هي بطأها
فثابتت؟ كذلك اللهو يخذل العقول ! .

وإن العقول معدن الفكر معمول - يعني أن التفكير يتطلب جهدا وكدا وكم عرق
الأذكياء من إعمال الفكر كما يعرق الفلاح وهو يضرب الأرض بفأسه غاية ما
هناك أن العامل بيديه أصبح بدننا ، وأن العامل بعقله أدنى إلى الإعفاء .. !!

الشـكـر

هل معنى الكلام عن الصبر أن الإنسان يعيش في حلقات متصلة من الآلام؟ لا يحتاج معها إلا إلى المواساة والتعزية! .

لا ، فالحياة الإنسانية أضواؤ من ذلك وأرحب ، إن البشر لا يعيشون كما يعيش الأولاد في كف أب قاس القلب ، أو كما تعيش الرعية في سلطان أمير غليظ الرقبة .

وما أغزر النعم التي تنهمر على الناس ليلهم ونهارهم من المهد إلى اللحد ، وهي نعم لو قدروها قدرها ، أو أحسنوا استغلالها للأمراض قلوبهم بالحمد ، وأطلقت ألسنتهم بالثناء .

بل لو غلغلنا البصر في التكاليف التي تستدعي الصبر لاستبيان لنا أنها إلى النعمة أدنى منها إلى الحنة .

فالمحرمات المحظورة ، والواجبات المطلوبة ، والأعباء المفروضة ، والآلام العارضة ، تلك جميعا ليست ضرائب يقدمها الإنسان لمن يحتاج إليها أو يستكثر بها ، كلا بل تلك مدارج للكمال الإنساني ، وحصانات للفطرة السماوية أن تتلوث أو تستمرئ الخضيض !!

أما رب العالمين فهو يعطي ولا يأخذ ، وهو يطعم ولا يطعم ، وهو يجبر ولا يجاري عليه .

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخُذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يَطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام : ١٤) .

والقرآن الكريم في شتى صوره أحصى أصول النعم ، وذكر أمثلة شتى لما غمر الناس منها ، وارتقب من أصحاب الضيماء الحية أن يشكروا صاحبها ، وأن يعرفوا حقه فيها ، بعد ما بسطها بأروع أسلوب .

وفي هذا القرآن سورة باسم الرحمن عدت جملة من نعم الدنيا والآخرة ؛ وفي ثنايا هذا العدد الموقظ المذكر توجه للإنس والجن بهذا السؤال .

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمن : ١٣) .

توجه إليهم عشرات المرات ، يحمل التقرير بقدر ما يحمل التعليم والتذكير إن شكر الله على أنعمه حق ، ولكن ما أكثر النعم وأقل الشاكرين !!
والكلمة الشائعة في الترجمة عن شكر الإنسان لربه هي الحمد .
والحمد كلمة تعنى - مع الشكر - الثناء على الله ، وتجيد ذاته ، ومن ثم كانت أرجح وأذيع .

والمهم أن يردها المسلم ، وهو شاعر بالمنة والجميل ، مقر من أعماقه بأن الله مصدر ما اندفع عليه من خير ، وأهل ما صعد إليه من شكر ...
في كل طرفة عين ، ونبضة قلب ، يتعرف الله إلى عباده عن طريق ما ينحوهم من بركاته ، وينزل عليهم من خيراته .
وهي بركات وخيرات متتجدة على اختلاف الليل والنهار ، فلا غرو إذا استقبلها الناس بمعرفة من أسداها . وشكرا ! .

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خَلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ (الفرقان: ٦٢)
وقد أمر الله الناس أن يشكروا لأن قلة الشكر خسارة يجب التنزيه عنها ، إنك لو أطعمت امراً شهراً أو شهرين ، أو قضيت عنه ديناً أو دينين ، أو رفعته درجة أو درجتين ، ثم تجهم لك بعد هذه الأيادي وأعرض عنك لرأيت أن فراغ الحياة من مثله واجب . وأن بقاءه على ظهر الأرض قد يتحرك ! .

فما ظنك بن خلق من عدم ، وأطعم وستر ، وأغدق وأمد الأعوام بعد الأعوام؟
عندما يرى عبده قد حاز كل هذه النعم ثم عادى مسلديها؟ .

﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (النحل: ٤) .

﴿قُلْ مَنْ يُنْجِيْكُمْ مِنْ ظُلْمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضْرِعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٦٣) ﴿قُلِ اللَّهُ يُنْجِيْكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: ٦٤ ، ٦٣)

إن الله أمر الناس أن يشكروا لأن الكنود نذالة ، ولأن الإصرار عليه يجعل حق صاحبه في الحياة الكريمة صبرا ، ولأنه ما يليق بإنسان أن يستقبل فضل مولاه بكرة وأصيلا ثم يدير له ظهره ويتولى عن إجابة أمره .

إن الأمر بالشكر ليس تكليف مشقة يصبر الناس على أدائه ، بل هو طريق كمال ينبغي أن يسير الناس فيه بهمة وقدرة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيَّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ إِيمَانًا بِعَدْوَنَ﴾ (البقرة: ١٧٢) .

والإقرار بالجميل ، وركون الفؤاد إلى صانعه يجعل المرء أهلاً للمزيد ، لأن النعمة تشر فيه ، كما يثمر الماء في الأرض الخصبة ، ولذلك لا يضن عليها بالقليل والكثير ، أما الأرض السبخة فإن انعدام الأمل في ريها يجعل إرسال الماء إليها عبثاً ، ولذلك يقطع عنها ...

قال تعالى : ﴿وَإِذْ تَأْذَنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَا زِيَادَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (إبراهيم: ٧)

وشدة العذاب كفاء لخباثة الجحود ! .

وماذا على الناس إذا مرحوا في نعمة الله أن يطعوا ضمائرهم على عرفان الجميل والاعتراف بالفضل ، وأن يقولوا لله المنعم : نشكرك .

أهذا كثير أم هذا ثقيل؟؟ .

إن الله قص علينا قصة سبا لنعرف منها عقبى الكنود ، وكيف أنها كانت زاهدة ثم صارت خراباً أتى على ما سبق من سعة ورفاهية .

﴿لَقَدْ كَانَ لَسْبَأً فِي مَسْكُنَهُمْ آيَةً جَنَّاتٍ عَنِ يَمِينٍ وَشَمَائِلٍ كُلُوا مِنْ رَزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بُلْدَةً طَيْيَةً وَرَبُّ غَفُورٍ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرْمِ وَبَدَلْنَا هُمْ بِجَنْتِيهِمْ جَنَّتِينِ ذَوَاتِي أَكْلُ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزِينَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ﴾ (سبأ: ١٥ - ١٧) .

والشكر شعور في النفس قبل أن يكون حركة لسان ، وقد وضع الإسلام صوراً ورسم طرقاً للترجمة عن هذا الشعور المكنون ...

ونحن واجدون في سيرة رسول الله ﷺ من مظاهر الشكر وأيات الحمد لله رب العالمين ، ما يشير للدهشة ، وما يسرى في القلوب شوقاً ورقة ...

كان إذا استيقظ من النوم يقول : «الحمد لله الذي رد على روحى ، وعافانى فى جسدى ، وأذن لي بذكره»^(١) .

وكان إذا انتهى من الطعام يقول : «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين»^(٢) .

وكان إذا عاد من الخلاء يقول : «الحمد لله الذي أذاقنى لذته ، وأبقى فى قوته ، وأذهب عنى أذاه»^(٣) .

وكان إذا لبس ثوبا جديدا يقول : «الحمد لله الذى كسانى هذا ورزقنى إياه من غير حول منى ولا قوة» .

وكان إذا عاد من سفر يقول : «آيبون تائبون عابدون ، لربنا حامدون» .

وفي الصحيح أن الرسول ﷺ قال : «أتحبون أيها الناس أن تجتهدوا في الدعاء؟ قالوا : نعم يا رسول الله . قال : قولوا : اللهم أعننا على ذكرك وشكرك ، وحسن عبادتك»^(٤) .

وكان من دعاء النبي ﷺ : «رب أعني ولا تعن على ، وانصرني ولا تنصر على ، وامكر لى ولا تكر على ، واهدنى ويسر الهدى لى ، انصرني على من بغي على . رب اجعلنى لك شكارا ، لك ذكارا ، لك رهبا ، لك مطواعا ، لك محبتا ، إليك أواها منيما .

رب تقبل توبتى ، واغسل حوبتى وأجب دعوتى ، وثبت حجتى ، وسد لسانى ، واهد قلبي ، واسلل سخيمة صدرى»^(٥) .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : «كان رسول الله ﷺ يقوم حتى ترم قدماه ! فقيل له أى رسول الله ، أتصنع هذا ، وقد جاءك من الله أن قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ .

قال ! : أفلأ أكون عبدا شكورا»^(٦) .

(١) - (٣) المؤثرات للإمام الشهيد .

(٤) الحاكم .

(٦) ابن خزيمة .

(٥) النسائي .

وفي رواية عن عائشة رضى الله عنها «أن رسول الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تنفتر قدماه .

فقلت له : لم تصنع هذا؟ وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ .

قال! : أفلأ أحب أن أكون عبدا شكورا»^(١) .

وعن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : «الثاني من الله ، والعلة من الشيطان ، وما أحد أكثر معاذير من الله ، وما شيء أحب إلى الله من الحمد»^(٢) .

إن هذا الشعور العميق بفضل الله ، والإحساس الواضح بنعمته والرغبة الحارة في إكباره وإجلاله والاعتراف بخирه ، إن هذا كله انتقل من فؤاد الرسول ﷺ إلى أفتدة أصحابه ، فهم يتبارون في تحية ربهم وحمده وقدره حق قدره .

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال أبي بن كعب : لأدخلن المسجد فلأصلين ولا حمدن الله بمحامد لم يحمسه بها أحد .

فلما صلى وجلس ليحمد الله ويثنى عليه ، فإذا هو بصوت عال من خلفه يقول : اللهم لك الحمد كله ، ولك الملك كله ، وبيدك الخير كله ، وإليك يرجع الأمر كله . علانية وسره ، لك الحمد ، إنك على كل شيء قادر .

اغفر لى ما مضى من ذنوبي ، واعصمنى فيما بقى من عمرى ، وارزقنى أعمالاً زاكية ترضى بها عنى ، وتب على .

فأتى رسول الله ﷺ ، فقص عليه ، فقال : «ذاك جبريل عليه السلام»^(٣) .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ حدثهم «أن عبداً من عباد الله قال : يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظم سلطانك .

فعضلت بالملائكة فلم يدرريا كيف يكتبهما .

فصعدا إلى السماء فقالا : يا ربنا إن عبدك قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها .

قال الله - وهو أعلم بما قال عبده - : ماذَا قال عبدى؟ .

قالا : يا رب إنه قد قال : يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك .

(١) أبو يعلى .

(٢) ابن أبي الدنيا .

قال الله لهم . اكتبها كما قال عبدى حتى يلقاني فأجزيه بها»^(١) .
وعن أبي أيوب رضى الله عنه قال : «قال رجل عند رسول الله ﷺ :
الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه .

فقال رسول الله ﷺ : من صاحب الكلمة؟ .

فسكت الرجل ورأى أنه قد هجم من رسول الله ﷺ على شيء يكرهه .

فقال رسول الله : من هو ، فإنه لم يقل إلا صواباً؟ .

فقال الرجل : أنا قلتها يا رسول الله أبغى بها الخير .

فقال النبي ﷺ : «والذى نفسى بيده ، لقد رأيت ثلاثة عشر ملكاً يبتدرؤن
كلمتك : أيهم يرفعها إلى الله تبارك وتعالى»^(٢) .

وعن علي رضى الله عنه : «أن النبي ﷺ نزل عليه جبريل عليه السلام ،
فقال :

يا محمد ، إذا سرك أن تعبد الله ليلة حق عبادته ، أو يوماً ، فقل :
«لك الحمد حمداً كثيراً خالداً مع خلودك .

ولك الحمد حمداً لا منتهى له دون علمك .

ولك الحمد حمداً لا منتهى له دون مشيئتك .

ولك الحمد حمداً لا أجر لقائه إلا رضاك»^(٣) .

ماذا كان جهد أبليس بعد أن طرد من السماء؟

كان جهده أن يغرى أبناء آدم بالجحود ، ونسيان ما أولاهم الله من نعم . . .
كان جهده أن يشغلهم بفنون من الغفلة تزين لهم أن يأكلوا من رزق الله ، ولا
يحمدوه ، وأن يفتحوا عيونهم على آيات العظمة ، ولا يجدوه . . .
إن الدواب إذا وجدت أقواتها التهمتها ، ما تعى شيئاً غير هذا ، وإذا فقدتها
أحسست لذع الجوع ، ما تعى شيئاً غير هذا ، وإذا استمتعت بالعافية جرت ووثبت ،
وإذا قيدها المرض استكانت وهمنت ، ما تعى شيئاً غير هذا . . .

(١) ابن ماجه .

(٢) الطبراني .

(٣) البيهقي .

... إنها لا تعرف صبرا على بأساء ، ولا شكرا على نعماء ...
وكذلك يريد الشيطان من أبناء آدم أن يعيشوا على هذا النمط المنحط ، لا ذكر ،
ولا شكر .

وكذلك ألى إبليس على نفسه يوم أخرج من الجنة فقال : ﴿لَا قُعْدَنَ لَهُمْ
صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمِ (١٧) ثُمَّ لَا تَنْهَمُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ
شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف : ١٦ ، ١٧) .

وأسوء ما يكون الجحود عندما يكون جماعياً تنحدر إليه أمة بأسرها .
فترى كأن هناك تواصياً على لا يذكر الله بخير !! بل ترى كأن هناك اتفاقاً مكتوبًا
أو غير مكتوب على أن تلتهم أفضال الله ، وتنسب ذلك إلى أى شيء ما عداه ... !!!
وهل هلكت عاد ، وهلكت ثمود ، إلا بهذا الخلق الدنيا ؟ .

قيل لعاد : ﴿وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلْتُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمٍ نُوحٍ وَزَادُكُمْ فِي الْخَلْقِ
بَصْطَةً فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعْلَكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف : ٦٩) .

وقيل لثمود : ﴿وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلْتُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأْكُمْ فِي الْأَرْضِ
تَتَخَذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بِيُوتًا فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْشُوا فِي
الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف : ٧٤) .

لكن هؤلاء وأولئك لم يستشعروا فيض النعم الذي سال في أرجاء بلادهم
فحرموا ما جحدوا ، وسلبوا ما غمطوا ، وحققت عليهم كلمة العذاب .

وقد أهاب الله بخلقه ألا يردوا هذه الموارد الوبيئة فقال : ﴿فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ
وَاسْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ (البقرة : ١٥٢) .

ومع ذلك ، فما أقل الذين يعترفون بالفضل ، ويشعرون بالجميل : ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ
عِبَادِي الشَّكُورُ﴾ (سبأ : ١٣) .

وإنه ليسرنا أن نثبت هنا باقة من النصوص والأثار الحافزة على الشكر ، المشيعة
لعواطفه في الأفتئة نقلًا عن الإمام الجليل ابن القيم رضى الله عنه .

قال : حدثنا محمود بن غيلان ، حدثنا المؤمل بن اسماعيل ، حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا حميد الطويل ، عن طلق بن حبيب ، عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «أربع من أعطينهن فقد أعطى خير الدنيا والآخرة : قلبا شاكرا ، ولسانا ذاكرا ، ويدنا على البلاء صابرا ، وزوجة لا تبغيه حوابا في نفسها ولا في ماله» .

وذكر أيضا من حديث القاسم بن محمد عن عائشة عن النبي ﷺ قال : «ما أنعم الله على عبد نعمة فعلم أنها من عند الله إلا كتب الله له شكرها» وما علم الله من عبد ندامة على ذنب إلا غفر الله له قبل أن يستغفره . وإن الرجل يشتري الثوب بالدينار فيلبسه فيحمد الله ، فما يبلغ ركبتيه حتى يغفر له » .

وقد ثبت في صحيح مسلم عنه ﷺ أنه قال : «إن الله ليرضي عن العبد يأكل الأكلة فيحمد الله عليها ، ويشرب الشربة فيحمد الله عليها» .

فكأن هذا الجزء العظيم الذي هو أكبر أنواع الجزاء كما قال تعالى : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ (التوبه : ٧٢) . كان في مقابلة نعمته بالحمد .

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث عبد الله بن صالح . حدثنا أبو زهير يحيى بن عطارد القرشى عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : «لا يرزق الله عبد الشكر فيحرمه الزيادة» ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأُزِيدَنَّكُمْ ﴾ (إبراهيم : ٧) . وقال الحسن البصري : «إن الله ليتمتع بالنعمة ما شاء ، فإذا لم يشكر عليها قلبها عذابا» .

ولهذا كانوا يسمون الشكر : الحافظ ، لأنه يحفظ النعم الموجودة ، والجالب : لأنه يجلب النعم المفقودة .

وذكر ابن أبي الدنيا عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه أنه قال لرجل من همدان . «إن النعمة موصولة بالشكرا ، والشكرا يتعلق بالمزيد ، وهو ما مقرؤنان في قرن ، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد» .

وقال عمر بن عبد العزيز : «قيدوا نعم الله بشكر الله» وكان يقال : «الشكرا قيد النعم» .

وقال مطرف بن عبد الله : «لأن أعافي فأشكر أحب إلى من أن أبتلى فأصبر» .

وقال الحسن : «كثروا من ذكر هذه النعم فإن ذكرها شكر» .

وقد أمر الله تعالى نبيه أن يحدث بنعمته ربه فقال : ﴿وَمَا بِنْعَمَةِ رَبِّكَ فَحَدَّثُ﴾ .

والله تعالى يحب من عبده أن يرى عليه أثر نعمته ، فإن ذلك شكرها بلسان الحال .

وقال الشعبي : «الشكر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله» .

وقال أبو قلابة : «لا تضركم دنيا شكرتموها» .

وقال الحسن : «إذا أنعم الله على قوم سألهم الشكر ، فإذا شكروه كان قادرا على أن يزيدهم ، وإذا كفروه كان قادرا على أن يبعث بدل نعمته عليهم عذابا» .

وقد ذم الله سبحانه وتعالى الكنود أى هو الذي لا يشكر نعمه ، قال الحسن :

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ أى يعد المصائب وينسى النعم .

وقد أخبر النبي ﷺ أن النساء أكثر أهل النار بهذا السبب ، قال : لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئاً قالت : ما رأيت منك خيراً قط .

فماذا كان هذا بترك شكر نعمة الزوج ، وهى فى الحقيقة من الله ، فكيف بن ترك شكر نعمة الله؟؟

يا أيها الظالم في فعله والظلم مردود على من ظلم
إلى متى أنت، وحتى متى تشكو المصيبات وتنسى النعم؟؟

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث أبي عبد الرحمن السلمي عن الشعبي عن النعمان ابن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : «التحدث بالنعمة شكر وتركها كفر ، ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير ، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله ، والجماعة بركة ، والفرقة عذاب» .

وقال مطرف بن عبد الله : «نظرت في العافية والشكر ، فوجدت فيهما خير الدنيا والآخرة ، لأن أعافي فأشكر أحب إلى من أن أبتلى فأصبر» .

ورأى بكر بن عبد الله المزنى حملاً عليه حمله وهو يقول : الحمد لله أستغفر الله ، قال : فانتظره حتى وضع ما على ظهره ، وقلت له : أما تحسن غير هذا؟ .

قال : بلى أحسن خيراً كثيراً ، واقرأ كتاب الله ، غير أن العبد بين نعمة وذنب ، فأحمد الله على نعمه السابقة ، واستغفره لذنبه .

فقلت : الحمال أفقه من بكر . . !!

وذكر الترمذى من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهمما قال : خرج رسول الله - ﷺ - على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا .
فقال : قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن ردا منكم ، كنت كلما أتيت على قوله ﴿فَبِأَيِّ آلٍ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ، قالوا : لا بشيء من نعمك ربنا نكذب ذلك الحمد» .

وقال مشعر : لما قيل لآل داود : ﴿أَعْمَلُوا آلَ دَاؤُودَ شُكْرًا﴾ لم يأت على القوم ساعة إلا وفيهم مصلى .

وروى سهيل بن أبي صالح عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : «دعا رجل من الأنصار (من أهل قباء) النبي ﷺ فانطلقتنا معه . فلما طعم وغسل يديه قال : «الحمد لله الذي يطعم ولا يطعم ، من علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا ، وكل بلاء حسن أبلانا .

الحمد لله غير موعظ ربى ولا مكافأ ولا مكفور ، ولا مستغنى عنه .

الحمد لله الذي أطعم من الطعام ، وسقى من الشراب ، وكى من العرى وهدى من الضلال ، وبصر من العمى ، وفضل على كثير من خلقه تفضيلا ، الحمد لله رب العالمين .

وفي مسند الحسن بن الصلاح من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال :
قال رسول الله - ﷺ - : «مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ نَعْمَةً فِي أَهْلٍ، وَلَا مَالٍ، أَوْ وَلَدٍ، فَيَقُولُ: مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ فَيَرِي فِيهِ آفَةً دُونَ الْمَوْتِ» .

ويذكر عن عائشة رضى الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها فرأى كسرة ملقاء فمسحها ، وقال : يا عائشة : «أَحَسَنَى جَوَارِ نَعْمَالِ اللَّهِ فَإِنَّهَا قَلْمَانْفَرَتْ عَنْ أَهْلِ بَيْتِ فَكَادَتْ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِمْ» ذكره ابن أبي الدنيا .

وقال الإمام أحمد : حدثنا بن القاسم حدثنا صالح عن أبي عمران الجوني عن أبي الخلد ، قال : قرأت في مسألة داود أنه قال : «يا رب كيف لي أنأشكر وأنا لا أصل إلى شكرك إلا بنعمك .

قال فأتاه الوحي يا داود أليس تعلم أن الذي بك من النعم مني ؟ .

قال بلى يا رب ، قال فاني أرضى بذلك منك شكرنا» .

وقال عبد الله بن أحمد : حدثنا أبو موسى الأنصارى حدثنا أبو الوليد عن سعيد بن عبد العزيز قال : كان من دعاء داود : سبحان مستخرج الشكر بالعطاء ومستخرج الدعاء بالبلاء .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية حدثنى الأعمش عن المنهاج عن عبد الله ابن الحارث قال : أوحى الله إلى داود «أحبني وأحب عبادتى وحبيبني إلى عبادى.

قال: يارب هذا احبك وحب عبادتك فكيف أحببك إلى عبادك؟

قال: تذكرنى عندهم فإنهم لا يذكرون مني إلا الحسن» .

فجل جلال ربنا وتبarak اسمه وتعالى جده وتقديست أسماؤه وجل ثناؤه ولا إله غيره ..

ومن دقيق نعم الله على العبد التي لا يكاد يفطن لها أنه يغلق عليه بابه فيرسل الله إليه من يطرق عليه الباب يسأله شيئاً من القوت ليعرفه نعمته عليه .

وقال سلام بن أبي مطیع دخلت على مريض أعوده فإذا هو يئن فقلت له : اذكري المتروحين على الطريق ، اذكري الذين لا مأوى لهم ولا لهم من يخدمهم .

قال : ثم دخلت عليه بعد ذلك فسمعته يقول لنفسه : اذكري المتروحين في الطريق ، اذكري من لا مأوى له ولا له من يخدمه .

وقال عبد الله بن أبي نوح : قال لى رجل على بعض السواحل : كم عاملته تبارك اسمه بما يكره فعاملك بما تحب؟ .

قلت : ما أحصى ذلك كثرة .

قال : فهل قصدت إليه في أمر كربلا فخذلك؟ .

قلت : لا والله ، ولكن أحسن إلى وأعانتي .

قال : فهل سألته شيئاً فلم يعطوك؟ .

قلت : وهل منعني شيئاً سأله ، ما سأله شيئاً قط إلا أعطاني ولا استعننت به إلا أعانتي .

قال : أرأيت لو أن بعض بنى آدم فعل بك بعض هذه الخلال ما كان جزاوه عندك؟ قلت : ما كنت أقدر له على مكافأة ولا جزاء .

قال : فربك أحق وأحرى أن تدأب نفسك له في أداء شكره وهو المحسن قد ياما
وحديثا إليك ، والله لشكره أيسر من مكافأة عباده ، إنه تبارك وتعالى رضى من
العباد بالحمد شكرها .

وقال سفيان الثوري : ما كان الله لينعم على عبد في الدنيا فيفضحه في
الآخرة ، ويتحقق على المنعم أن يتم النعمة على من أنعم عليه .

وقال ابن أبي الحواري : قلت لأبي معاوية : ما أعظم النعمة علينا في التوحيد
نسائل الله أن لا يسلينا إياه ، قال : يتحقق على المنعم أن يتم النعمة على من أنعم
عليه ، والله أكرم من أن ينعم بنعمة إلا أنها ، ويستعمل بعمل إلا قبله .

هناك ناس لهم طباع غبية كنود ، تسدى إليهم الجميل بعد الجميل ؛ فكأنما ترقم
على ماء لا يبقى في نفوسهم أثر منه ، ولا اعتراف به .
وكثير من نلقى على هذا الغرار الرديء يجيء أحدهم بطلبه فتحس أنه محرج ،
وأنه محتبس في دائرة هذه الحاجة التي يفتقدها .
فإذا قضيتها له ولئن مدبرا ولم يعقب !

فإذا احتاج مرة أخرى أتى واللهم بادية في سؤاله وحاجته حتى إذا تم له ما يريد
انصرف على عجل أو بعد كلمات ميتة لا تترجم عن قلب حاضر ، ولا فؤاد واع .
هؤلاء الناس يظنون أن الحياة مكلفة بتيسير مطالبهم ، فحسبهم أن يمدوأيديهم
لتعود بما يتغرون ، كما تم الدواب أفواهها إلى الكلا وورق الشجر لتطعم منه متى
شاءت دون إحساس بفضل من غرس وصنيع من منح ! .
كذلك هم حذوك النعل بالتعل يحتاجون فيجدون فيولون !! فإذا منعهم شيئاً ما
يريدون ارتفعت صيحاتهم بالسخط والسباب والاستنكار .
لماذا ؟ إنه صرخ الحيوان المحروم .

فهلا إذا تألمت من الحرمان أبدعتم الرضا والشكر لدى العطاء .
كثير من الناس يعاملون الله بهذا الأسلوب السافل ، يسألونه فيحبهم فإذا رجع
أحدهم بيده حافلة من كان لم يدع ربه إلى ضرمسه ، من دون شكر ودون حياء .
إذا احتاج - وما أسرع الاحتياج - عاد بذات الشعور وذات الكنود ، فلماذا يتألم
إذا لدغته آلام الحرمان والطرد ؟ .

إن المنع أيسر ما يقابل به الشخص الحاصل فهو لا يذوق طعم العطاء ، ولا يقدر صاحبه .

ونحن - جماهير البشر - نصبح وننسى نخوض فى نعم الله خوضا ، فلماذا لا نوقف أفكارنا الغافية إلى معرفة تلك المنفعة؟ ولماذا لا نوقف ضمائernا لشكر مرسليها؟ .

تلتقت يوما إلى ما مضى من حياتي فرأيت صبيا من الخيرات قد غمرنى ظاهره وباطنه ومتونه وحواشيه ، وأحسست أن ما يضايقنى أحيانا كان علاجا حكيمـا لعلل نفسية لو بقى معى لكتبـى بيـونـالـتـ منـى ! .

وسائلت نفسى . كيف شكرها على هذا الخير الغدق؟ فكان الجواب : لقد شكرت النعماء يوم قدمت ، فلما استقرت بدأ الشعور الحار يبرد والاعتراف بالجميل يخف !

كذلك يفعل الناس ، وتلك عادتهم مع المنعم الأعلى ، فهل هذه سبيل الاستزادة من خيره وبره؟؟ .

وتذكرت كلمة ابن عطاء الله " كيف يحرق لك العوائد وأنت لم تحرق من نفسك العوائد "؟؟ .

إن استصحاب الشعور بالعطاء السابق هو أقصر الطرق لاستدار العطاء اللاحق ، ولا بن الجوزى في هذا خاطر لطيف .

قال رضى الله عنه :

«بلغنى عن بعض الكرماء أن رجلا سأله فقال : أنا الذى أحسنت إلى يوم كذا وكذا ، فقال : مرحبا من يتسلل إلينا بنا ، ثم قضى حاجته ... !

فأخذت من ذلك إشارة فناجيـتـ بهاـ ربـىـ فـقلـتـ : أـنـتـ الـذـىـ هـدـيـتـهـ⁽¹⁾ـ مـنـ زـمـنـ الطـفـولـةـ ، وـحـفـظـتـهـ مـنـ الضـلـالـ!ـ ، وـعـصـمـتـهـ مـنـ كـثـيرـ مـنـ الذـنـوبـ .

وـأـلـهـمـتـهـ طـلـبـ الـعـلـمـ لـاـ بـفـهـمـ لـشـرـفـ الـعـلـمـ -ـ لـوـضـعـ الصـغـرـ -ـ لـاـ بـحـبـ وـالـدـهـ -ـ لـمـوتـ الـوـالـدـ .

ورزقـتـهـ فـهـمـاـ لـتـفـقـهـ وـتـصـنـيـفـهـ ، وـهـيـأـتـ لـهـ أـسـبـابـ جـمـعـهـ .

(1) ابن الجوزى بهذه السطور يصف نفسه .

وقدمت برزقه من غير تعب منه ، ولا ذل للخلق بالسؤال ، وحاميت عنه الأعداء ، فلم يقصده جبار إلا انهزم ، وجمعت له مالم تجمع لأكثر الخلق من فنون العلم التي لا تكاد تجتمع في شخص ، وأضفت إليها تعلق القلب بمعرفتك ومحبتك وحسن العبارة ولطفها في الدلالة عليك .

ووضعتم له في القلوب القبول ، حتى إن الخلق يقبلون عليه ويقبلون ما يقوله ، ولا يشكون فيه ، ويستيقظون إلى كلامه ، ولا يدركون الملل منه ، وصننته بالعزلة عن مخالطة من لا يصلح ، وأنسته في خلوته بالعلم تارة وبناجاتك أخرى .

وإن ذهبت أعدُّ لم أقدر على إحصاء عُشير العُشير ﴿وَإِن تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصِّنُوهَا﴾ (ابراهيم : ٣٤) .

فيما محسنا إلى قبل أن أطلب ، لا تخيب أملـي فيك وأنا أطلب . فإنـماـكـ المتقدمـ أتوسلـ إـلـيـكـ» .

ويقول ابن الجوزي رضى الله عنه :

نازعـتـنـىـ نـفـسـىـ إـلـىـ أـمـرـ مـكـرـوـهـ فـىـ الشـرـعـ ، وـجـعـلـتـ تـنـصـبـ لـىـ التـأـوـيـلـاتـ وـتـدـفـعـ
الـكـراـهـ ، وـكـانـتـ تـأـوـيـلـاتـهاـ فـاسـدـةـ ، وـالـحـجـةـ ظـاهـرـةـ عـلـىـ الـكـراـهـ .

فلنجـاءـتـ إـلـىـ اللـهـ تـعـالـىـ فـىـ دـفـعـ ذـلـكـ عـنـ قـلـبـيـ ، وـأـقـبـلـتـ عـلـىـ القرـاءـةـ ، وـكـانـ درـسـيـ
قد بلـغـ سـوـرـةـ يـوسـفـ فـاـفـتـحـتـهـ ، وـذـلـكـ الـخـاطـرـ قد شـغـلـ قـلـبـيـ حـتـىـ لاـ أـدـرـىـ مـاـ أـقـرـأـ ،
فـلـمـاـ بـلـغـتـ إـلـىـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ :ـ﴿مـعـاذـ اللـهـ إـنـهـ رـبـيـ أـحـسـنـ مـثـوـايـ﴾ـ (يـوسـفـ : ٢٣ـ)ـ ،
انتـبـهـتـ لـهـاـ وـكـانـيـ خـوـطـبـتـ بـهـاـ .

فـأـفـقـتـ مـنـ تـلـكـ السـكـرـةـ ، فـقـلـتـ يـاـ نـفـسـ أـفـهـمـتـ؟ـ .

هـذـاـ حـرـ بـيـعـ ظـلـمـاـ فـرـاعـىـ حـقـ مـنـ أـحـسـنـ إـلـيـهـ ، وـسـمـاـهـ مـالـكـاـ ، وـإـنـ لـمـ يـكـنـ لـهـ
عـلـيـهـ مـلـكـ ، فـقـالـ :ـإـنـهـ رـبـيـ .

ثـمـ زـادـ فـىـ بـيـانـ مـوـجـبـ كـفـ كـفـهـ عـمـاـ يـؤـذـيـهـ فـقـالـ :ـأـحـسـنـ مـثـوـايـ .

فـكـيـفـ بـكـ وـأـنـتـ عـبـدـ عـلـىـ الـحـقـيـقـةـ لـمـلـىـ ماـ زـالـ يـحـسـنـ إـلـيـكـ مـنـ سـاعـةـ وجودـكـ
وـهـدـاـكـ أـقـوـمـ طـرـيـقـ ، وـنـجـاـكـ مـنـ كـلـ كـيـدـ

وـضـمـ إـلـىـ حـسـنـ الصـورـةـ الـظـاهـرـةـ جـوـدـةـ الـذـهـنـ الـبـاطـنـ .

وسهل لك مدارك العلوم حتى نلت في قصير الزمان ما لم ينله غيرك في طويه .
وجل في عرصة لسانك عرائس العلوم في حل الفصاحة بعد أن ستر عن
الخلق مقابحك ، فتلقوها منك بحسن الظن .

واسق رزقك بلا كلفة تكلف ، ولا كدر من ، رغدا غير نزر .

فوالله ما أدرى أي نعمة عليك أشرح لك ، حسن الصورة وصحة الآلات ؟ أم
سلامة المزاج واعتدال التركيب ؟ أم لطف الطبع الحالى عن خساسة ؟ أم إلهام الرشاد
منذ الصغر ؟ أم الحفظ بحسن الوقاية عن الفواحش والزلل ؟ أم استحباب طريق النقل
وابطاع الأثر من غير جمود على تقليد لمعظم ولا انحراف في سلك مبتدع ؟ .

﴿ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوْهَا ﴾ (ابراهيم : ٣٤) .

كم كائد نصب لك المكاييد فوقاك ؟ .

كم عدو حط منك بالذم فرقاك ؟ .

كم أعطش من شراب الأمانى خلقا وسقاك ؟ .

كم أمات من لم يبلغ بعض مرادك وأبقاك ؟ .

فأنت يا نفس تصبحين وتمسين سليمة البدن محروسة الدين ، في تزيد من
العلم وبلوغ الأمل .

فإن منعك مراد فرزقت الصبر عنه بعد أن تبين لك وجه الحكمة في المنع
فسلمي حتى يقع اليقين بأن المنع أصلح .

ولو ذهبت أعد من هذه النعم ما سمح ذكره امتلأت الطروس ولم تنقطع الكتابة .

وأنت تعلمين أن ما لم أذكره أكثر وأن ما أومأت إلى ذكره لم يشرح ...

فكيف يحسن بك التعرض لما يكرهه بعد ذلك كله ؟ ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّيْ أَحْسَنَ مَثَوَّاً إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (يوسف : ٢٣) .

الخوف

الخوف من الله عاطفة تتبع من حسن معرفته ، وكمال العلم به ، فهى ليست وجلا مبهمًا لا يدرى مأته أو نتائجه ، بل الخوف شعور واضح بجلال الخلاق العليم ، وما ينبغى إكناه له من مهابة ، وإعظام .

وكيف لا يخشى جبار السموات والأرض الذى بيده ملکوت كل شيء ، والذى لا تماهى شئ إلا بإيجاده وإنداده ، والذى لا يعترض غضبه شئ إذا أعلن غضبه على أحد ﴿فَلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مُرِيمَ وَأَمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلَلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة: ١٧) .

إن الإنسان عادة يشعر بانتفاء ذاته أمام من تبهره عظمتهم ، وهذا ما يسميه علماء النفس : الشعور السلبي بالذات ، وهو شعور يشتبك مع انفعالات نفسية أخرى ، فيكون عواطف الإعجاب ، والتهيب ، وما أشبه ذلك .

وأحق من يقف البشر بساحتهم وهم مفعمون بالخضوع والاستكانة ، والزلفي ، والاستجداه هو الله جل شأنه الذي ترجع إليه أمرورهم كلها فيبت فيها بتا لا معقب عليه ﴿أَمَنَ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ (٢٠) ﴿أَمَنَ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ جُوْهُ فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ (الملك : ٢١ ، ٢٠)

وليس أساس الشعور بالخوف من الله هذا وحده ، نعم إن المرء يفرق من الهزيمة ومن الفقر ، ويقف قلقا مضطربا أمام من يستطيع أن يوقع به شيئا من ذلك ، لكن بناء الخشية على ذلك فقط لا يليق .

إن الخوف يرتبط بالمعرفة ، فإذا رأيت امرأً يتعرض لتيار كهربائي صاعق ، أو يتوقف أمام قطار حديدي منطلق فهو إما جاهل أو مجنون .

إن العلم بخصائص الأشياء يلى على صاحبه التصرفات المناسبة .

ومن عرف الله معرفة اليقين ، انفتحت من نفسه كل آثار الجرأة والبرود وساورته
بين الحين والحين مشاعر الوجل والخذر .

وهي مشاعر لا يستغنى عنها حتى في حكم نفسه وضبط سلوكه .

ثم هي الباعث الدائم على استرضاء الله ، وفعل ما أمر وترك ما نهى
﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمُ خَيْرُ الْبَرِّيَّةِ﴾ (٧) جزاؤهم عند ربهم
جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ
ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبُّهُ﴾ (البينة : ٧ ، ٨) .

على أن الأفراد والجماعات لهم في جنب الله زلات مخوفة ، وكم يقترف البشر
من الرذائل التي تجر عليهم الويل ، لأنها محاداة لله واستهانة بحقه ، وعمى عما
يجب له .

ولو أن المعصية تلقى جزاءها العدل على عجل لخسف بآيتها ، وذاق للفور عقبى
جهله وغروره ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهِيرَهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾
(فاطر : ٤٥)

ولكن الصبور جل شأنه ينح الخطائين فرصاً واسعة كي يتوبوا الرشد لهم ويعتذرلوا لهم .
﴿... وَلَكُنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمٍّ﴾ (فاطر : ٤٥)

من الجائز أن تنفجر في أجسادهم مراجل الغضب الإلهي بغتة ، وهم سادرون في
غيهم فلا تبقى منهم أحدا ، ولا تدع لهم وسما ولا رسمما ...

وقد قص علينا المولى في كتابه أخبار الأم الأولى ، وكيف هانت على الله لما
أهانت أمره ، وكيف نكل بها لما نكلت عن الصراط المستقيم ﴿أَفَامِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ
يَأْتِيهِمْ بِأَسْنَا بَيَّانًا وَهُمْ نَاءِمُونَ﴾ (٩٧) أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنان ضحى وهم
يلعبون ﴿أَفَمُؤْمِنُوا مَكْرُ اللَّهِ فَلَا يَأْمُنُ مَكْرُ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٩٩) أو لم يهد
للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنبهم ونطبع على قلوبهم
فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (الأعراف : ٩٧ - ١٠٠) .

والخوف من الله عاطفة تدل على شرف النفس ، ويقطة الحسن ، وامتلاك الزمام

في الساعات الحرجة ، وإنه لرجل جدير بكل احترام وموبة هذا الذي يستمken ما يشتهى ، ثم يتعن عنده وهو حال لا لشيء إلا لأن الله يراه .
علام يدل هذا المسلك؟

إنه يدل على إيمان بالله عميق ، وعلى أن ذلك الإيمان يقظان ليؤدي واجبه كالدیدبان الحارس ، وعلى أنه لما استشيرت النفس نهض إليها ، وفرض وجوده وحده فجسم نوازع الشر .

ولذلك جاء في حديث السبعة الذين يظلمهم الله ، يوم لا ظل إلا ظله! .

«...ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إنِّي أخاف الله»^(١) .

وهناك من يتبع عن مثل هذه الجريمة حرصاً على سمعته ، وقهراً لشهوته ، وعلى لسانه قول القائل :

ذكرت تعلة الفتى مان يوماً وإسناد الملام لملمي
وهذا السلوك - وإن كان شرف نفس - إلا أنه ليس أثر الإيمان الذي يجب أن يملأ أرجاء النفس ، وأن يسيطر على بواعث الفعل والترك فيها .

نعم ، هو شرف لأن الذي يدع رذيلة ما ، حتى لا يقفه الناس موقف تشريب وتقرير ، أفضل من يغله هواه ، فلا يبالى ما يلقى من ذم .

إلا أن سيرة المؤمن الذي يخاف الله أشرف وأحق بالتنويه . . .
إذ أنه ترك الإثم هنا لسبب أجل هو الخوف من جلال الله .

ثم المؤمن الذي يعرف الخير والشر ، والحسن والقبيح من لسان الشارع لن يصل في معرفة العيب الذي يتركه ، والخير الذي يفعله .

ولو أنه تلقى ذلك من أفواه الناس الذين يطلب ثناءهم وينحسن ملامهم لأمكنه في عصرنا هذا أن يسكت وأن يزني وهو مطمئن إلى أن مواهبه الأخرى ستجعله عظيماً محباً . . .

إن مخافة الله بترك ما حرم هي الأساس الأعظم في تكوين الشخص الشريف المأمون .

(١) البخاري .



ومن الخطأ حسبان الخوف وحده هو الحاجز عن الشر ، والدافع إلى الخير ، إن الواقع في حياة المؤمن غير هذا ، والمفهوم من طبيعة الإيمان غير هذا . . .

فقد يترك المرء المعصية حياءً من المنع ، أو رجاءً ما عنده ، أو شعوراً نفسياً وعقلياً بدمامتها ، أو حباً غالباً لله الذي أمر ونهى .

والمؤمنون ليسوا سواءً في هذه البواعث ، بل المؤمن الفذ تختلف أحواله في استقبال ما يعرض له ، فقد يفعل الشيء أو يتركه بداعٍ الرغبة حيناً وبداعٍ الرهبة حيناً ، وبداعٍ آخر حيناً آخر .

والخوف من الله دافع بارز في حياته من غير شك ، وهو دافع معقول ، فمن ظن الخوف لا يعرض للبشر أصلاً فهو مبطل ، ومن ظن الخوف من أي شيء أنفس معدناً ، وأرقى دلالة من خشية الله فهو كاذب .

ومن ثم كان الخوف من الله ركناً في الإيمان به ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجَلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلَيْتُ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُمْ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا . . .﴾ (الأنفال : ٢) .

ويكاد الخوف يكون وحده العامل الحاسم في كثير من المواقف القلقة ، والعاصم المنجي عن ثوران بعض الغرائز العنيفة وجماحها الشديد .

سيما وقد نبهنا إلى أن الخوف وليد المعرفة ، فكلما اتسعت معرفة المرء لله ازداد مهابة له ، وحدراً من مخالفته ، وإكباراً لحقه .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : «صنع رسول الله ﷺ أمراً فترخص فيه، فبلغ ذلك ناساً من أصحابه فكأنهم كرهوه، وتنتزهوا عنه، فبلغه ذلك فقام خطيباً فقال: ما بال رجال بلغهم عن أمر ترخصت فيه فكرهوه وتنزهوا عنه، فوالله إنى لأعلمهم بالله وأشد لهم خشية» ^(١) .

وفي خوف الرسول ﷺ من ربِّه ، وفي تخويف المسلمين عامة من بطش الله وعذابه نقرأ قوله تعالى :

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شَئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ حَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمٌ

(١) مسلم .

الْقِيَامَةُ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُمْ مَنْ فَوْقُهُمْ ظُلْلٌ مِّنَ النَّارِ وَمَنْ تَحْتَهُمْ
ظُلْلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادُهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونَ (١٦) (الزمر : ١٣ - ١٦).

وقد تضمنت سنة رسول الله ﷺ نماذج إنسانية لأثر هذا الخوف العالى فى
تطهير السلوك الإنساني ، وقيادته - إذا اضطرب - نحو الصراط المستقيم .
إن امرأة ضغطت عليها الحاجة حتى الجأتها إلى التفكير فى تسليم نفسها لمن
يملكون المال ولا يملكون الخلق وأولئك فى الحياة كثيراً .
فلما واجهت المكروره ارتعد بدنها ، وتلوى الشرف المكظوم فى نفسها فلم تملك إلا
البكاء . . .

عن ابن عمر قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: كان الكفل من بنى إسرائيل لا
يتورع من ذنب عمله.

فأتنبه امرأة فأعطتها ستين ديناراً على أن يطأها.

فلما أرادها على نفسها ارتعدت وبكت.

فقال: ما يبكيك؟.

قالت: لأن هذا عمل ما عملته، وما حملني عليه إلا الحاجة.

فقال: تفعلين أنت هذا من مخافة الله! فأن وأحرى.

اذهبي فلك ما أعطيتك، والله ما أعصيه بعدها أبداً.

فماتت من ليلته، فأصبح مكتوبًا على بابه. إن الله قد غفر للكفل فعجب الناس من
ذلك» (١) .

إن المرأة الظهور سر هذا التحول فى نفس رجل قضى أغلب عمره فى الآثام ، ثم
سرت فى روحه عدوى الخير والعفاف والتقوى فأقلع عن غيه ، واجتث أصول الشر
من قلبه ، وغيره الخوف من الله ، فلألى على نفسه لا يعصيه أبداً .

فما أدركه الأجل وهو على هذه النية الجازمة كانت توبته قد غسلت خطایاه ،
فمات مغفورة له !!

إن خشية الله شيء عظيم . . . !!

(١) الترغيب والترهيب .

وإن النذر لتتلاحق في آيات الكتاب العزيز كى تشعل في الضمير هذا الشعور
الهادى فلا يتشر المرء ولا يضطرب .

وإيقاداً لهذه الشعلة ، وارتقاها لما يعقبها من آثار سجلت السنة النبوية قصة غريبة
لرجل طالت إساءته ، فلما احتضر اختلط في نفسه أمران : خوفه من عقبي ما فعل
في ماضيه الطويل ، وجهله الذي حيره في وسيلة للخلاص منه ! .

فماذا يصنع؟ امترج خوفه وجهله في عاطفة ساذجة ووصاة جمع أولاده على
تنفيذها بعد موته . قال عليه الصلاة والسلام : «كان رجل يسرف على نفسه فلما
حضره الموت قال لبنيه: إذا أنا مت فأحرقوني، ثم اطحونوني، ثم ذروني في الريح، فوالله
لن قدر الله على ليعدبني عذاباً ما عذبه أحد .

فلمامات فعل به ذلك، فأمر الله الأرض فقال: اجمعي ما فيك ففعلت، فإذا هو قائم .
فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: خسيتك يا رب، أو قال: مخافتكم، فغفر له»^(١) .

(١) البخاري .



الرجاء

الوجود الذى نحسه ، وما يكمن فى تضاعيفه من لطف وبر ، هو نعمة محض لا
علة لها إلا محض الفضل الأعلى . إن المرء ينام وتبقى فى عروقه وأعصابه عشرات
القوى التى تضبط حياته لا تهن ولا تسكن .
من الذى استبقها يقظة دائبة؟ بل من الذى أبدعها ابتداء من صميم العدم؟
إنه الله .

إنه لم يخلقك إثر سؤال منك ، ولم يشرف عليك وأنت جنين ، ثم وأنت رضيع
لأنك طلبت منه ذلك ، إنه فعل بك ذلك لأنه - من ذاته - منعم وهاب ، واجد
ماجد . ولو كان يدير الأمور وفق الأسئلة والرغبات لاندكت الآفاق وسرت الفوضى
في كل ناحية .

إنه أرحم بالعباد من أنفسهم وأعرف بصالحهم من منتهى تفكيرهم وعطفه
السابق على مقدرات الخلائق هو الذى يسير الحياة ، ويشيع فيها الخير ، ويسمن لها
البقاء .

وفى هذا يقول ابن عطاء : " جل حكم الأزل أن ينضاف إلى العلل عنایته فيك
لا لشيء منك .

وأين كنت حين واجهتك عنایته وقابلتك رعايتها؟ .

لم يكن فى أزله إخلاص أعمال ولا وجود أحوال ، لم يكن إلا محض الإفضل
وعظيم النوال " .

إن الفضل ينبثق من ذى الجلال والإكرام لأن ذلك وصفه - كما ينبثق الشعاع
من الشمس - ولله المثل الأعلى - لأن طبيعتها الاتقاد .

إن الملك الجليل الشأن الذى انبسط سلطانه على كل شيء فهو فى السماء إله
وفي الأرض إله ، ويعطى ويفعد لأن الكمال نعمته سواء عرف البشر ذلك أم
أنكروا .

وعطاوه على قدر عظمته ، ومن ثم فهو أحق من يرجى ويقصد !!
إن البشر يتهافتون على من يأنسون فيه القوة والغنى التماس جداء وابتغاء نداء ،
ولو عقلوا العلموا أن ما لديه قطرة معاشرة ، وأن أحق من يشدون إليه الرحال
ويربطون به الآمال ، هو الكبير المتعال .

إن الأساس في طبائع البشر طرا ، مهما سمت مناصبهم وبدت قدراتهم ، أنهم
يأخذون لا يعطون .

أليسوا فقراء إلى الله ، عالة على فضله؟ فالاتجاه بالرجاء إليهم طيش .

أما الرجاء في الله فعمل وافق موضعه وأصاب هدفه .

ثم إن جمهرة البشر حين يسألون تتحرك فيهم صفاتهم الفطرية ، فهم بين جاهل
بحال السائل ، أو عالم بها عاجز عن علاجها ، أو قادر يمنعه شح نفسه عن
الإجابة . وتلك كلها آفات منافية عندما يتوجه الرجاء إلى الله جل جلاله .

ولذلك ترى أولى الألباب يقصدونه بالمطلب الجسام وهم راجون لا ينقلبوا عن
ساحته إلا راضين . . .

قال ابن الجوزي :

«خُلِقْتُ لِي هَمَةٌ عَالِيَّةٌ تَطْلُبُ الْغَايَاَتِ .

بلغت السن وما بلغت ما أملت ، فأخذت أسأل تطويل العمر ، تقوية البدن ،
وبلوغ الآمال .

فأنكرت على العادات وقالت : ما جرت عادة بما تطلب .

فقلت : إنما أطلب من قادر على تجاوز العادات .

وقد قيل لرجل : لنا حويجة فقال : اطلبوا لها رجيلا .

وقيل لآخر جئناك في حاجة لا نرزئك . فقال : هلا طلبتم لها سفساف الناس؟
فإذا كان أهل الأنفة من أرباب الدنيا يقولون هذا فلم لا نطعم في فضل كريم
 قادر؟ .

ترى ما هي العظائم التي نقف بباب الله راجين أن نشوب بها؟ ما هي الأعطيه

الجزلة التي تسمى على الله قضاءها ، ونراه جل شأنه أهلاً لِإفضال بها وبأضعافها .

إن كل امرئ يحب ألا يدع شيئاً من خير الدنيا والآخرة إلا امتلكه .
ولو أن الله منع العباد ما يشتهون من ذلك كله ما تعب ، ولا نقصت خزائنه .
غاية ما يجب أن تتصارح به ، أنه لا يجوز أن نطلب إثماً ولا جهلاً ولنضرب لذلك مثلاً .

إن الحياة الدنيا دار اختبار ، وهى مر لا مستقر ، والآخرة عند الله أذكى منها وأبقى ، فإذا وفَدَ بشرٌ على الله بأعماله التي يطلب تحقيقها ، وكانت هذه الأعمال مضادة لهذه الحقائق كلها ، لأن كانت الدنيا في وعيه أرجح من الآخرة وكانت رغبته لا تعلو إشباع نهمته منها وحسب ! أترى هذا الجاهل يعود إلا بخيبة الرجاء؟ .

إن المشكلة التي يجب أن تتحلل في أذهان الناس أولاً هي تصور حقائق الحياةين .. !!

وشيء آخر : ماذا يجاب إليه طفل يحب أن يبقى طول عمره رضيعاً؟ أيحقق له رجاؤه؟ إن أغلب الناس ينزلون في أدعيتهم عند نداء طبائعهم ، ولو أجيبوا العاشوا أطفالاً لا يحملون من أعباء التكاليف شيئاً .

إن الله أهل لأن تنزل عليه بكل ما يجيشه في نفسك من أعمال .
وإذا كان قد أعطى تفضلاً من غير سؤال ، فهل يرد سائلًا جاءه راجياً؟ بيد أننا بحاجة إلى العقل والأناة والبصر .

أعجبني ما رواه ربيعة بن كعب قال : كنت أخدم النبي ﷺ نهاراً ، فإذا كان الليل أويت إلى باب رسول الله ﷺ فبت عنده فلا أزال أسمعه يقول : «سبحان الله سبحان ربّي» ، حتى أمل أو تغلبني عيناي فأنام .
فقال يوماً : «ياربيعة سلنِي فأعطيك» .

فقلت : أنظرني حتى أنظر ، وتذكرت أن الدنيا فانية منقطعة ، فقلت : يا رسول الله ، أسألك أن تدعو الله أن ينجيني من النار ويدخلنِي الجنة .
فسكت رسول الله ﷺ ثم قال : «منْ أَمْرَكَ بِهَذَا؟» .

قلت : ما أمرني به أحد ولكنى علمت أن الدنيا منقطعة فانية وأنت من الله بالمكان الذى أنت منه فأحببتك أن تدعوا الله لى .

قالى : «إنى فاعل فأعنى على نفسك بكترة السجود» ^(١) .

(وفي بيان ما يرجو العبد ، وتعلق به همته يقول ابن الجوزى :

دعوت يوماً فقلت : اللهم بلغنى أمالى من العلم والعمل ، وأطل عمرى لأبلغ ما أحب من ذلك : فعارضنى وسوس من إبليس ، فقال ثم ماذا؟ أليس الموت؟ فما الذى ينفع طول الحياة؟ .

فقلت له : يا أبله . لو فهمت ما تحت سؤالى علمت أنه ليس بعث .

أليس فى كل يوم يزيد علمى ومعرفتى فتكثر ثمار غرسى . فأشكر يوم حصادى؟ . أفيسترنى أنى مت منذ عشرين سنة؟ لا والله ، لأنى ما كنت أعرف الله تعالى عشر معرفتى به اليوم .

وكان ذلك ثمرة طول الحياة التى فيها اجتنبت أدلة الوحدانية ، وارتقيت من حضيض التقليد إلى يفاع البصيرة ، واطلعت على علوم زاد بها قدرى ، وتجوهرت بها نفسى .

ثم زاد غرسى لآخرتى ، وقويت تجاربى فى إنقاذ المباضعين من المتعلمين ، وقد قال الله لسيد المرسلين : ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه : ١١٤) .

وفى صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : «لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً» .

وفى حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : «إن من السعادة أن يطول عمر العبد ويرزقه الله عزوجل الإنابة» .

فياليتنى قدرت على عمر نوح ، فإن العلم كثير ، وكلما حصل منه حاصل رفع ونفع) .

عندما قرأت كتاب «صيد الخاطر» لابن الجوزى أحسست أن الرجل عبر بكلمات بصيرة بلية عن خوالج نفسية تحركت في باطنى ، وسجلت أطراها منها قبل أن أطلع على كتابه هذا .

(١) مسلم .

وريطني بالرجل إلى جانب ذلك أنه مشغول بتعليم الإسلام ونصح الجماهير،
وهي الوظيفة التي شرفني القدر بها . . .

والناس يظنون في رجال الدين - كما يسمونهم - جمود الحس ، وسود المزاج ،
وفقدان القدرة على تذوق الحياة .

وهذه أوصاف قد توجد في نفر من نكبت به الأديان قديماً وحديثاً ، وهي
موجودة يقيناً في طوائف أخرى ، ولكن سوء الحظ جعل النظرة العجلية تتناول
خدام الإيمان وحدهم بهذا الاتهام . . . !!.

وكثيراً ما أبتسם في حرج ونفرة وأنا أرى كثيراً من المعلولين في خلقهم
الغموضين في مواهبهم يستطيعون - بحكم مراكزهم القوية في المجتمع - أن ينالوا
منا ، وأن يضربوا حولناأسواراً من حديد لنحيا كما يريدون لا كما تتطلب ملكاتنا
وقدراتنا وخبراتنا .

وكم يكظم الإنسان الآلام في نفسه ، وهو مفعوم بالأشواق إلى الجمال والعزّة
والاستغناء ، ثم يمد بصره فلا يرى حوله إلا الدمامنة والهوان والغيبة .

وما أغرب الناس ، إنهم يشتئون الدنيا ، وينحنون لملائكتها في ضراعة ووضاعة ،
وفي الوقت نفسه يحرمونها على علماء الدين ؛ ثم يحتقرونهم لفقرهم ، ولكل ما
يستتبعه الفقر من مسكنة وقلق .

وكم يشعر الإنسان أنه بين نارين ، إن سكت عن حقه في الحياة ضاع
واستمكن الرعاع من زمامه ، وإن طلبـهـ فـي بـيـئـةـ ضـنـيـةـ بـهـ - قـيـلـ : طـلـبـ دـنـيـاـ
يـزاـحـمـ عـلـيـهـ ..

إن أمثالنا من الدعاة إلى الله ينقلون أقدامهم بوجل في سبيل مزحومة بالأقداء
والإنكار ، لا يعين على السلامة فيها إلا الله ، والذى لا نسام دعاءه ورجاءه .

وما أنكر من نفسي أنى أحب الدنيا ، ولبيست هي إن كانت مهادنة لظالم
أو إغضاء عن منكر .

أما أن تكون دعماً للحق ، وغنى عن الأدنیاء فنعمـاـ هي . . .

إن وجه الرذيلة شائيه في بصرنا ، وطعمها مر في مذاقنا ، ونحمد الله إذ
أورثنا كرهـهاـ .

أما طيبات الحياة التي تلهج الألسنة بالثناء ، وتبعد الجوارح على الشكر فنعلم
هي ، وما نستحيى من استحلائنا والإكثار منها ...

وربما كان بعض الناس جلادة على خشونة العيش ، واصطبار على كابة المنظر
في الأهل والمال ، لكنه والله أضيق بهذا وأستعيد بالله منه .

ولست أطلب من الله سعة تشغله عنه ، بل أطلب سعة تدفع إليه ، وكثيرا
يحصل من زراعة السفهاء ، ولعب الكبراء ...

فإن كان ذلك بابا إلى نقص العلم ، أو هوان المنزلة يوم القيمة فنرجو أن يجعل
الله بيننا وبينه حجابا غليظا وأمدا بعيدا ...

جالت هذه الخطرة في نفسي وأنا أقرأ لابن الجوزي هذه النفحة التي سطرها في
كتابه "صيد الخاطر" يصف بها حياته ورجاءه .

وقلت : ألا ما أقرب الشبه بين عيش وعيش ، وأمل وأمل .
قال : - غفر الله لنا وله - :

"ما ابتلى الإنسان قط بأعظم من علو همه ، فإن من علت همه يختار المعالي .
وربما لا يساعد الزمان ، وقد تضعف الآلة ، فيبقى في عذاب .

وإني أعطيت من علو الهمة طرفا فأنا به في عذاب ، ولا أقول : ليته لم يكن ،
فإنه إنما يحلو العيش بقدر عدم العقل ، والعاقل لا يختار زيادة اللذة بنقصان العقل .
ولقد رأيت أقواما يصفون علو هممهم . فتأملتها فإذا هي في فن واحد ، ولا يبالون
 بالنقص فيما هو أهم ، قال الرضي :

ولكل جسم في النحو بليمة وبلاء جسم من تفاوت همتي
فنظرت فإذا هذا غاية أمله الإمارة . وكان أبو مسلم الخرساني في حال شبيبة لا
يكاد ينام ، فقيل له في ذلك ، فقال : ذهن صاف ، وهم بعيد ، ونفس تتوق إلى
معالي الأمور مع عيش كعيش الهمج الرعاع .

قيل : مما الذي يبرد غليلك . قال : الظفر بالملك .

قيل : فاطلبه ، قال : لا يطلب إلا بالأهوال .

قيل : فاركب الأهوال ، قال ! : العقل مانع .

قيل : مما تصنع ؟ قال : سأجعل من عقلي جهلا ، وأحاول به خطرا لا ينال إلا
 بالجهل ، وأدبر بالعقل ما لا يحفظ إلا به ، فإن الخمول أخو العدم .

فنظرت إلى حال هذا المسكين ، فإذا هو قد ضيع أهم المهمات ، وهو جانب الآخرة ، وانتصب في طلب الولايات ، فكم فتك وقتل؟ حتى نال بعض مراده من لذات الدنيا .

ثم لم يتنعم في ذلك غير ثمان سنين .

ثم أُغتيل ، ونسى تدبر العقل ، فقتل ومضى إلى الآخرة على أقبح حال .
وكان المتنبي يقول :

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه
ولكن قلباً بين جنبي . ماله
يرى جسمه يكسى شفوفاً تربه
فيختار أن يكسي دروعاته بده

فتأملت هذا الآخر ، فإذا نهمته فيما يتعلق بالدنيا فحسب .

ونظرت إلى علو همتها عجبا . وذلك أنني أروم من العلم ما أتيقن أنني لا أصل إليه ، لأنني أحب نيل كل العلوم على اختلاف فنونها .

وأريد استقصاء كل فن ، وهذا أمر يعجز العمر عن بعضه .

فإن عرض لي ذو همة في فن بلغ منتهاه ورأيته ناقضاً في غيره ، لم أعد همهة تامة . مثل المحدث الذي فاته الفقه ، والفقيhe الذي فاته علم الحديث ، فلا أرى الرضى بنقصان شيء من العلوم إلا حادثاً عن نقص الهمة .

ثم إنني أروم نهاية العمل بالعلم ، فأتوقع إلى ورع بشر ، وزهادة معروف ، وهذا مع مطالعة التصانيف ، وإفاده الخلق ومعاشرتهم بعيد .

ثم إنني أروم الغنى عن الخلق ، وأستشرف الإفضال عليهم ، والاشغال بالعلم من الكسب وقبول المزن مما تأباه الهمة العالية .

ثم إنني أتوقع إلى طلب الأولاد ، كما أتوقع إلى تحقيق التصانيف ، ليبقى الخلفان نائبين عنى بعد التلف . وفي طلب ذلك ما فيه من شغل القلب المحب للتفرد .

ثم أرني أروم الاستمتاع بالمستحسنات ، وفي ذلك امتناع من جهة قلة المال ، ثم لو حصل فرق جمع الهمة . وكذلك أطلب لبدني ما يصلحه من المطاعم والمشارب ، فإنه متبع للترفة واللطف ، وفي قلة المال مانع ، كل ذلك جمع بين أصداد .
فأين أنا وما وصفته من حال من كانت غاية همهة الدنيا؟



وأنا لا أحب أن يخدش حصول شيء من الدنيا وجهي ديني بسبب .
ولا أن يؤثر في علمي ، لا في عملي .

فواقلقى من طلب قيام الليل ، وتحقيق الورع مع إعادة العلم ، وشغل القلب
بالتصانيف . وتحصيل ما يلائم البدن من المطاعم .

وما أسفى على ما يفوتنى من المناجاة فى الخلوة مع ملاقاۃ الناس وتعليمهم .
ويا كدر الورع مع طلب ما لا بد منه للعائلة .

غير أنى قد استسلمت لتعذيبى ، ولعل تهذيبى فى تعذيبى ، لأن علو الهمة
تطلب المعالى المقربة إلى الحق عز وجل .

وربما كانت الحيرة فى الطلب دليلا إلى المقصود . وهأنذا أحفظ أنفاسى من أن
يضيع منها نفس فى غير فائدة .

وإن بلغ همى مراده . . . وإن فنية المؤمن أبلغ من عمله " .

والرجاء فى الله تعالى ، وحسن الظن به ، إنما يقبلان إذا اقترنَا بالعمل الواجب ،
وصحبهما الإسراع فى حق الله تعالى ، والسهر على مرضاته .

أما مع البطالة والاسترخاء فلا مكان لرجاء ولا موضع لحسن الظن .

وتدبر قوله تعالى يصف من ترشحهم أعمالهم لرضاه : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ
هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .
(البقرة : ٢١٨)

إیمان وهجرة وجهاد ، تلك هي التي يرجو أصحابها فضل الله تعالى .

أما الريبة والقعود والراحة فلا تبلغ أمالا ، ولا تنتج إلا شرا .

وتدبر قوله تعالى يخصى أنواعا أخرى من البر ، هي التي تؤهل لحسن القبول :
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتَلَوَّنَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًا وَعَلَانِيَةً
يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ (٢٩) لِيُوفِيهِمْ أَجُورُهُمْ وَيُزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ .
(فاطر : ٢٩ ، ٣٠)

تلاوة القرآن - يعني إحياء تعاليمه . وإعزاز شرائعه - والنفقة التي تسد ثغرات

المجتمع ما عن منها وما خفى ، والإقبال على الصلوات الجامعة إقبالا يعلى ذكر الله تعالى في الحياة ، و يجعل الهاتف باسمه وحده شارة الأمة ، تلك هي أسباب الرجاء الحق ، وتأميم النصر ، والتمكين ، والنعماء .

وللناس - بطبيعتهم البشرية - أخطاء تدر منهن - ويسيئون بها إلى أنفسهم وغيرهم ، وربما جرت غضب الله عليهم ، إلا أنهم إذا أحسوا سوءها ، وضرعوا إلى الله تعالى أن يفك عنهم إصرهما ، كان للرجاء في غفران الله تعالى موضع .

إن هذا الرجاء الحار لا يجوز أن يفارق المؤمن في أي لحظة من حياته ، سواء كان قوى الساعد يضرب في الأرض بأس ، أو وهو يولي ظهره للحياة ، ويضع قدمه على عتبة الآخرةقادما إلى الله تعالى .

عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت فقال :
كيف تجده؟ قال : أرجو الله يا رسول الله وإنى أخاف ذنوبى .

فقال : رسول الله ﷺ : « لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الوطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف » ^(١) .

وعن حيان أبي النضر قال : خرجت عائدا ليزيد بن الأسود ، فلقيت وائلة بن الأسعق وهو يريد عيادته ، فدخلنا عليه ، فلما رأى وائلة بسط يده وجعل يشير إليه ، فأقبل وائلة حتى جلس ، فأخذ يزيد بكفى وائلة فجعلها على وجهه .

فقال له وائلة : كيف ظنك بالله؟ قال : ظنى بالله - والله حسن . قال : فأبشر ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله جل وعلا : أنا عند ظن عبدي بي ، إن ظن بي خيراً فله ، وإن ظن بي شرّاً فالله » ^(٢) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : « أمر الله عز وجل بعدى إلى النار ، فلما وقف على شفتها التفت ! فقال : أما والله يا رب إن كان ظنني بك لحسنا . فقال الله عز وجل : ردوه ، أنا عند حسن ظن عبدي بي » ^(٣) .

وهذا الحديث ضعيف السند ، ومعناه يقبل في حدود الدائرة التي رسمناها من صحيح الكتاب والسنة ، وأقصى ما يشير إليه التنويه بقيمة حسن الظن إن الشخص الذي يحسن بك الظن يعرفك معرفة لا بأس بها ، وإن كانت المعرفة هنا أوضح في ناحية الرحمة والتتجاوز .

(٢) البهقى .

(٢) أحمد .

(١) الترمذى .

وهو قد يخطئ في حقل لاختلال المقاييس التي يزن بها الأمور ، لكنه - مع هذا الخطأ - لا يوصف بأنه لك عدو ، إنه صديق ، أو تابع ، لم يحسن التصرف فقط .

وربما انضم إلى هذه الخلة ما يعرض صاحبها لمؤاخذات قاسية .

وحديث الرجل الذي التفت إلى الله - وهو على شفا الهاوية - وفي فؤاده رجاء لم يغرب شعاعه ، جعله إلى الرمق الأخير يتلفت أملًا الغوث ، غير مصدق أن الله يسلمه إلى هذا المصير . هذا الحديث - إن صح - لا يهون من قيمة العمل .

إنه يصور حالة امرئ مؤمن خلط عملاً صالحاً وأخر سيئاً ، وكان يجوز أن يقذف في النار لترحق بقايا السوء في نفسه ، كما سيقع ذلك لكثير من المؤمنين الذين بيّنت السنن الصالحة عقبى تخليطهم ، وتفريطهم ، غير أن الله جلت رحمته عفا عنه .

وكأن كفة الخير في عمله كان ينقصها القليل لتميل جهة اليمين ، فكان حسن ظنه بالله - وحسن الظن إيمان - المرجع الذي نجا به .

أما قلة الاكتتراث بالواجب ، وسرعة التهاوى على المحرم فلا يمكن أن يكونا في نفس تحسن بالله تعالى الظن ، بل هما في نفس صدق عليها إبليس ظنه .

ومن التلاعب بالألفاظ أن ترى أمًا جاهلة بالله تعالى ، ترق في حدوده ، وتهدر أحکامه ، وتأمل مع ذلك في نعيمه ورضوانه بدعاوى أنها تحسن الظن بالله تعالى .

ومن أدعياء التدين من يشغب على قواعد الدين ، ومن يجرئ العامة والخاصة على الإفلات من ربقة باسم الأمل في الرحمة ، والتعويل على حسن الظن .

وذلك كله ضرب من الفوضى الفكرية والخلقية لا يجوز السكوت عليه ، وقد حاربه الأئمة من قديم ، وشددوا النكير على أصحابه ، قال حجة الإسلام أبو حامد الغزالى : قال يحيى بن معاذ : من أعظم الاغترار عندى التمادى في الذنب مع رجاء العفو من غير ندامة ، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة ، وانتظار زرع الجنة ببذر النار ، وطلب دار المطيعين بالمعاصي ، وانتظار الجزاء بغير عمل ، والتمنى على الله عز وجل مع الإفراط :

ترجمونجاة ولم تسليك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليأس

قال :

وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة ، والقلب كالأرض ، . والإيمان كالبذر فيه . والطاعات جارية مجرى تقليل الأرض وتطهيرها ، ومجرى حفر الأنهار وسياقة الماء إليها .

والقلب المستهتر بالدنيا ، المستغرق بها كالأرض السبخة التى ينمو فيها البذر .
ويوم القيمة يوم الحصاد ، ولا يحصد أحد إلا ما زرع ، ولا ينموا زرع إلا من بذر الإيمان ، وقلما ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه .

وكما لا ينمو بذر فى أرض سبخة ، فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع ، فكل من طلب أرضا طيبة وألقى فيها بذرا جيدا غير عفن ولا مسوس ، ثم أملأه بما يحتاج إليه وهو سوق الماء إليها فى أوقاته ، ثم نقى الشوك عن الأرض والخشيش وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده ، ثم جلس متظرا من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة إلى أن يتم الزرع وبلغ غايته ، سمى انتظاره رجاء .

وإن بث البذر فى أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب إليها الماء ولم يستغل بتعهد البذر أصلا ، ثم انتظر الحصاد منه ، سمى انتظاره حمقا وغرورا لا رجاء .
وإن بث البذر فى أرض طيبة لكن لا ماء لها وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار ولا تمنع أيضا ، سمى انتظاره تمنيا لا رجاء .

فإذن اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تعهدت جميع أسبابه الداخلية تحت اختيار العبد ، ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره ، وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع المفسدات .

فالعبد إذا بث بذر الإيمان وسقاوه بماء الطاعات ، وظهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة ، وانتظر من فضل الله تعالى ثبيته على ذلك إلى الموت ، وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة ، كان انتظاره رجاء حقيقيا ممودا في نفسه ، باعثا له على المواظبة والقيام بمقتضى الإيمان في إتمام أسباب المغفرة إلى الموت .

وإن قطع عن بذر الإيمان تعهداته بماء الطاعات ، وترك القلب مشحونا برذائل الأخلاق ، وانهمك في طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة ، فانتظاره حمق وغورو .

قال عليه السلام : «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هو أهلاها، وتنوى على الله الأمانى»^(١) .

(١) الترمذى .



وقال تعالى : ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَأَبَيَّعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيَّاً﴾ (مريم : ٥٩) .

وقال تعالى : ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرَثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ (الأعراف : ١٦٩) .

وذم الله تعالى صاحب البستان إذ دخل جنته وقال : ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبْيَدَ هَذِهِ أَبَدًا (٢٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَّا﴾

(الكهف : ٣٦، ٣٥)

فإذن العبد المحتهد في الطاعات ، المتتجنب للمعاصي ، حقيق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة وما تمام النعمة إلا دخول الجنة أ. ه.

التوكل

التوكل شعور بهيمنة الله على الحياة ، وبأن حركاتها وسكناتها محكومة بحوله وقوته لا يمكن أن تند منه أو تبعد عنه .

واستقرار هذا الشعور في القلب يجعل صلة الإنسان بربه عميقه ، وركونه إليه باديا . ولکى ندرك الأساس العقلى لهذا الشعور يجب أن نلقي نظرة لا افتعال فيها على ما يدور حولنا من شئون ، وعلى مسلكنا المعتاد بإزائه .

إن أحدهنا يخرج من بيته إلى عمله في الصباح ، وهو مالك لأمره ، يعتقد أنه ليس عليه أكثر من أن يحرك قدميه إلى حيث يصل ، وتلك وسائل مقدورة له . ولعل الماديين من الناس يقولون . وما دامت تلك الوسائل في حوزته فلا معنى للتفكير فيما وراءها .

ونريد نحن أن نتأمل في هذا القول ، ومدى صدقه .
هل صحيح أن الوسائل الموصولة في أيدينا؟ .

لتنظر إلى الكيان البشري نفسه . إن الساعة التي في معصمك ، والمنبه الذي في بيتك لا يدوران إلا بعد أن تملأهما يوميا ، فإن غفلت عن ذلك توقفت العقارب وسكت الدق . أفكذلك قلبك بين حنایا؟

إن دقاته لا تهدأ أبدا ، إنه يتحقق أردت أو لم ترد ، إنه يواصل عمله ليلا ونهارا ، وأنت نائم وأنت يقظان ، فهل لك عليه من سلطان؟ فإذا خرجت من بيتك ، وشاء مالك التصرف فيه أن يقفه فمن يمنعه؟ .

ولنفرض أنك مالك أجهزتك الظاهرة والباطنة ، وأن هيمنتك عليها شاملة كاملة ، فماذا تملك من ظروف الحياة الخارجية؟ إن الحركة الواسعة التي تدور في الشارع بعيدة عن نطاق حكمك ، ولو تنبه حسك أشد التنبه ما أمكنك أن تسيطر على كل شيء ، ويمكن على حين غرة أن تصاب بأذى شديد من قشرة برقالة تحت قدمك ، أو من سيارة مارقة لم يحسن قائدتها الابتعاد عنك .

إن هناك أشياء كثيرة لا يتم مراد الإنسان إلا بتوفيرها جمِيعاً ، وهذا التجمُّع والتنسيق لا تتحكمهما مشيَّة بشر ، ونحن المؤمنين لا نرد ذلك إلى حظوظ عمَّاء بل إلى مشيَّة الخالق الكبير ، المهيمن على كل شيء ﴿إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدُوهُ وَتَوَكُّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (هود: ١٢٣) .

من أجل ذلك كثُرت الأوامر في الكتاب والسنة بالتوكل على الله جل وعلا ، لأن التوكل دلالة علم بالله وصفاته وما ينبغي له ...

وفيَّه بصيرة من العبد بالحدود التي تعمل في نطاقها قدرته وإرادته ، وبالمعنى الواسع الذي تصرف فيه الإرادة العليا والقدرة العليا .

والمتوكِّل بهذه ال*yقظة الفكريَّة والتفسيريَّة أهل لأن يظفر برعاية الله وتوفيقه ومحبته ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٩) ، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسِيبٌ إِنَّ اللَّهَ بِالْعُمُرِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق: ٣) .

أي إن الله يكفي من لاذ به واعتمد عليه ، وهو - سبحانه - يستحيل أن يفوته ما يريد ، فهو بالغ أمره لا محالة ، بيد أنه أدار الكون على قوانين مقدورة ، وسنن معلومة ﴿وَإِنْ مَنِ شَيْءٌ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نَنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدْرٍ مَعْلُومٍ﴾ (الحجر: ٢١) .

ومن الجهل بالله وصفاته - والجهل طريق الكفر إن لم يكنه - أن يتوقع أحد الخذلان والضياع مع ارتباطه بالله!! وقد جاء في نظم القرآن الكريم تساؤل غريب يكشف وجه الحق في هذه القضية ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافِ عَبْدٍ... وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقامٍ﴾ (الزمر: ٣٨ - ٣٦)

والتوكل كلمة مظلومة ، إنها تعنى ركون الإنسان إلى الله فيما لا طاقة له به لأنَّه لا يستطيع عمله . أما ما يدخل في حدود طاقته ويملك البيت في بدايته ونهايته فلا مكان للتوكل فيه .

إذا دخل الليل وهو في حجرته نهض إلى المصباح فأُوقده ، هذا عمله الذي يقوم به ولا ينتظر من السماء أن تنوب عنه فيه .

إذا سار فى طريق التزم الجانب الأيمن ، وتجنب مطان الخطر ؛ وأجاب داعى
الخذر ، أما إيثار الفوضى والنزق وانتظار السلامة باسم التوكل فجهل ...
إذا تقدم لسابقة استكمل أهبة الفوز بما تفرض من كفاح ذهنى وعلمى وما
تتطلبه من نشاط يقرب من الغاية ...
إذا سكن بيته غلق أبوابه ليلا ، وتعهد ثغراته حتى لا يجد اللصوص لهم منفذ
وهكذا .

من أجل ذلك أجاب رسول الله ﷺ الأعرابى الذى سأله : أتركها وآتوكل أم
أعقلها وآتوكل - يعني ناقته -؟ فقال : اعقلها وتوكل .
ونبه الله المجاهدين - إذا ضمتهن جنبات الميدان - أن يكون انتباهم حاداً
وتيقظهم بالغا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ .
(النساء : ٧١)

وقبل أن يأمر الله نبيه بالتوكل عليه فى قوله : ﴿فَاعْبُدُهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾
(هود : ١٢٣)

قبل ذلك مباشرة قال : ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ
وَأَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ (هود : ١٢١ ، ١٢٢) .

فالامر بالتوكل جاء بعد إعلان عن عمل موصول وصبر طويل .
ورأى أحد الأئمة فقيرا ينطلق إلى الحج دون زاد ، فسأله أين زادك ؟ .
فقال : أنا متوكلا على الله .

فقال له : أمسافر أنت وحدك ؟ قال : بل مع القافلة .
فقال له : أنت متوكلا على القافلة !! .

وصدق ، فهذا متأكل لا متوكلا ، وهذا الصنف جاهل بالإسلام ، ومعرفته بالله
غامضة يشوبها حمق كثير .

والتوكل إيمان بالغيب بعد استنفاد كل الوسائل المقررة فى عالم الشهادة ، إيمان
بالله بعد أداء كل ما يرتبط بالنفس من واجبات .
والتوكل يجيء صدقا وسكونة فى موضعه الحق ، ولنضرب لذلك الأمثل .

طلب الرزق غريزة لدى الأحياء كلهم ما إن تبدو تباشير الصباح حتى يستعد الفلاحون والتجار والصناع وأصحاب الحرف للدخول في كفاح طويل أو قصير كي يحرز كل امرئ قوته وقوت أسرته .

وهذا الكفاح محك قاس للأخلاق والمسالك ، فإن اللهفة على تأمين المعيش قد تلجم أصحابها إلى الختل والتلون أو الكذب والحيف . وربما وجدت الضعاف يتعلمون الأقواء ، والصغرى يذوبون في الكبراء .

والإسلام يرفض أن يكون الكدح وراء الرزق مزلقة لهذه الآثام كلها ، ومن ثم فهو يتطلب بصراة أن يكون الارتفاع من أبواب الحلال المغض ، وألا يلجاً مسلم أبداً إلى غش أو ذلة أو ضييم ليجتلب به ما يشاء :

الوسائل التي حددتها الشارع هي وحدتها الأسباب الشريفة التي يقوم بها ثم يقف عندها مرقباً في ثقة ما تتمخض عنه من نتائج .

والالتزام التقوى فى معالجة هذه الشئون وأمثالها هو منطق الإسلام ، وهو منطق منتج لا عقيم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ (٢) ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكّل على الله فهو حسبي ﴿ الطلاق : ٣ ، ٢ ﴾ .

والتيقوى هنا رعاية الشرف فى التكسب ، والاستقامة فى الطلب ، فإن إلحاح الرغبة فى طلب الكفاف أو فى طلب الثراء قد يدفع إلى اللؤم والعوج .

وَحِزْنًا لِلنُفُوسِ عَنْ هَذِهِ الْمَهَاوِيَّ يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «لَا يَحْمِلُنَّكُمْ أَسْبَطَاءِ الرِّزْقِ أَنْ تَأْخُذُوهُ بِمُعْصِيَةِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْأِي مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ»^(١).

وغرساً لفضيلة التوكل عند طلب الرزق روى الغزالى في الإحياء هذه الآثار .

قرأ الخواص قوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىْ بِهِ بِذُنُوبِ عَبَادِهِ خَبِيرًا ﴾ (الفرقان : ٥٨) ، فقال : ما ينبغي للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى .

وقيل لبعض العلماء فى منامه : من وثق بالله تعالى فقد أحرز قوته ، وقال بعض العلماء : لا يشغلك المضمون لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل فتضيع أمر آخرتك ولا تناول من الدنيا إلا ما قد كتبه الله لك .

(١) البزار.

وقال يحيى بن معاذ : في وجود العبد ، الرزق عن غير طلب دلالة على أن الرزق
مأمور بطلب العبد .

قال إبراهيم بن أدهم : سألت بعض الرهبان : من أين تأكل ؟ فقال لي : ليس
هذا العلم عندى ولكن سل ربي من أين يطعمنى ؟ .

وقال هرم بن حيان لأويس القرني : أين تأمنى أن أكون ؟ فأواماً إلى الشام .
وقال هرم : كيف المعيشة ؟ قال أويس : أف لهذه القلوب قد خالطها الشك فما
تنفعها الموعظة .

وقال بعضهم : متى رضيت بالله وكيلا وجدت إلى كل خير سبيلا ، نسأل الله
تعالى حسن الأدب .

وهذه الآثار لا تعنى إلا رفع كبوات البؤس أو زجر نزوات الطمع ، فإن البشر فى
هذه الميادين يفتقرن إلى علاج شديد .

لقد رأينا ذل الفقراء وشره الأغنياء وراء المال يفعل الدواهى فلا جرم أن ترد
الآثار تلطم هذا التطرف كيما ترده إلى سوء السبيل .

ولكن هذه التعبيرات التي يقصد بها إشاعة الثقة في أرجاء النفس الإنسانية حتى
لا تتضرع وتتجزع انقلبت دلالاتها في بعض النفوس ففهمت منها ما لا يجوز أن
يفهم ، فهمت منها أن السعي باطل ، وأن السكون دين ، وفي ذلك يقول رجل
مهزوم أطاش العجز له :

والسعى للرزق . والأرزاق قد قسمت بغير ألا إن بغير المرء يصرعه

ويقول آخر :

جري قلم الق ضاء بما يكون ف س يان الت حرك والسكون
جنون منك أن ت سعى لرزق ويرزق في غ شا وته الجنين

وهناك موطن آخر للتوكل يستحب فيه ذكر الله ، والاطمئنان إليه ، ويكون
الإيمان بالغيب فيه مصدر أنس وقوة لأصحابه .

ذلك موطن الكفاح الذي يحمل عبئه أصحاب الرسالات ، وي تعرضون فيه
لخواوف مزعجة ، ولا يثبنون فيه على الروع والغبن إلا لأملهم في الله واستنادهم



إليه . ولا بالتوكل الذى ينير أمامهم ظلمات الحاضر ، ويجرئهم على مواجهة الجبروت بعزم .

والقوى الشريدة التى يواجهها حملة الدعوات ليست عدوا سهلا ، وإنقاد الحقائق الكبيرة والحقوق الضائعة من بطش هذه القوى عمل يقترب بالمعجزات . فإن الاستكانة المطلقة التى تغمر الأفئدة وتطويعها على الخوف من هؤلاء الأقوىاء الأشرار تجعل انتصار المصلحين أمامهم ، والدخول فى معركة مريرة لاستئصالهم - تجعل ذلك حلا فادح الثقل مرهوب العقبي .

وإننا - لطول ما بلونا - نقدر موقف موسى وأخيه عندما أمرا بالذهاب إلى فرعون ونصحه ، فقالا : ﴿رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ (٤٥) قال لا تخافا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (طه : ٤٦ ، ٤٥) .

إن الشعور بصحبة الله هو المؤنس في هذه الوحشة ، وهو المشجع في هذه الرهبة ، وذاك معنى التوكل في تلك المواقف .

وهو ما نزل به الوحي على قلب الرسول عليه الصلاة والسلام أول ما طرقته الرسالة فقال الله له : ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَّلِّ إِلَيْهِ تَبَّيِّلًا﴾ (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩) وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ (المزمول : ٨ - ١٠) .

ونحن نجد التوكل على الله هو المعنى الشريف الجليل الذى يلوذ به المكافحون ، ويرقبون معه مستقبل رسالتهم ، ومطلع الفجر وسط ما يخيم عليهم من إظام .

إنه ليس فقط القوة المعنوية التى يتحاملون بها على جراحاتهم بل هو كذلك اللفظ المنغوم الذى يجرى على ألسنتهم ويسمعه منهم خصومهم وهم يناقشونهم :

﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيْكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلِيَتَوَكَّلَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١١)
وَمَا لَنَا أَلَا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبْلَنَا وَلَنْصِبَرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلِيَتَوَكَّلَ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (إبراهيم : ١٢ ، ١١) .

عندما يطلب من أولئك المؤمنين الصابرين أن يستروا حياتهم وراحتهم واستقرارهم بنبذ الإيمان ، والعودة إلى الضلال القديم يأبون إلا الصمود على الحق ،

وتحمل الأذى في سبيله فيقولون : ﴿ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مُلْكِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسَعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾
 (الأعراف : ٨٩)

وأساس هذا الثبات والرجاء أن مرد الأمور على تطاول الزمن إلى الله ، وأنه إذا وهب النصر فلن يعترضه أحد ، وأنه ناصر جنده لا محالة ، وأن الباطل يأخذ جولته ثم يتلاشى ، وأن ليس أمام الإيمان إلا التعويل على الله والتأميم فيه : ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلَيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (آل عمران : ١٦٠)

والتوكل على غير الله قصير العمر ، أو عديم الجدوى ، أما التعلق بالله فهو ارتباط بالمصدر الدائم للخير ، ولذلك قال : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ (الفرقان : ٥٨) ! . . .

الحُبُّ

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدُ مِنْكُمْ عَنِ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذْلَلَةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْزَزَةً عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً لَاتِّمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِمْ ﴾ .

(المائدة : ٥٤)

هذه الآية عرضت لحبة الله جل وعز ، ولبعض آثارها العملية ، في فترة من تاريخ الإسلام كان يحتاج فيها إلى أخلاق معينة .

والقوم الذين أحبوهم الله وأحبوه ، ذكروا في سياق الآية على أنهم بدل من قوم آخرين نزلوا عن هذه المرتبة ، لم ترثهم خلالهم ومسالكهم لحبة الله ، بل ما زالوا يتسللون في مهاوى السوء حتى عدوا مرتدین عن الإسلام .

والارتداد - الذي توعد الله أهله بالطرد - هو في نظرى نتيجة سيرة طويلة يصحبها التفريط والالتواء ، ولست أظنه جاء دفعة واحدة .

إنه يبدأ استثنالا للواجبات واستحلالا للآثام ، ثم عكوفا على هذه وتغريدا على تلك ، ثم ميلا لأهل السوء وانحرافا عن أهل الخير .

وعندما يكون هو الرجل مع المبطلين ، وعندما يكون انتصاره لهم ، فهو مرتد يقينا عن الإسلام !!

وما بقاء رجل على دين ينفر من تعاليمه ويخرجون أمتته؟ ﴿ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدُ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حُزْنٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ . (المائدة : ٤١)

وإذ يدب هؤلاء عن الله وحقوقه ، يجيء آخرون في قلوبهم حياة ومية ، يحبون ربهم ويلقون أمره بالإعظام والحفاوة .

ولاؤهم لله يد니هم من كل مؤمن به ، ويكرههم في كل فاسق عن أمره ، ويطلقهم في العالم سلما لأوليائه حربا على أعدائه ، تنھض بهم رسالات الخير ، وتنهزم أمامهم ألوان الشرور .

وإذا صحت محبة الله في قلب امرئ فقد تبأ قمة الكمال ، وتهياً لفضل من الله جزيلاً !

نعم ، إن نشوء هذه العاطفة ونماءها يسبقها اصطفاء خاص ، والشعور بحب الله ليس متاحاً لكل إنسان إنه سمو يتخير الله له من يشاء ، ولذلك ختمت الآية السابقة بهذا التذليل :

﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْمٌ ﴾ (المائدة: ٥٤) .

إنها منة تسيل من عين الجود قبل أن تكون كسباً تتوجه إليه الإرادة !

ومن حقك أن تسأل : كيف ذلك ؟ أليس هذا الكلام مما يقعد الهمم ويبذر اليأس ؟

ونجيب : كلا ، والأمر يحتاج إلى زيادة إيضاح .

إن المواهب الإنسانية الرفيعة لا تنشأ أصلاً من كسب الإنسان ، بل لابد أن يسبقها استعداد فطري يولد المرء به ، ولا يد له فيه .

ووجمهور العباقرة والممتازين ترجع عظمتهم ابتداء إلى أصالة في معادنهم الفكرية والنفسية لا توجد في غيرهم ، ثم يتعهدون هذه الطبائع الفذة بما يبلغ بها الغاية . ويعiken أن ينضاف إلى الغرائز الأولى تفاوت عناصر البيئة ، فرب بيئه أخمدت ما في النفوس من وقدرات ملتهمة . وأهالت عليها التراب ، ورب بيئه نفخت في هذه النفوس ما يهيج ضرائمها ويرفع شعلتها .

وما ينغرس في الجبالات من خلال ، وما تضطرب به المجتمعات من أحداث شأن يعود إلى الأقدار العليا لا إلى إرادتنا المحدودة .

إن الإيمان نفسه يمكن عده فضلاً - من هذه الزاوية - فقد كان من الجائز أن نولد ، أنا وأنت ، أرواماً أو أعاجم لا ندرى ما الكتاب ولا الإيمان .

فإذا متنا على هذا الحال ، وعاملنا الله بقانون العدل لم يعذبنا وحسب .

أما التأهيل للنعم المقيم فلا بد له من يقين وصلاح وجهاد ، وذلك كله تلده بيئه دون أخرى - من أجل ذلك وصف الله التوفيق للإيمان بأنه فضل فقال : ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مَّنْ رَبَّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرَضُهَا كَعْرُضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَعْدَتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (الحديد: ٢١) .

إن صدقة الغنى عمل مشكور يدخله يوم القيمة ، بيد أن الفضل الأول لمن
أغناه فأقدره على النفقة في سبيله .

فكسب العبد بيده أو قصده بقلبه لا ينسى من الوهاب الكبير ولذلك تنسب
لله الفضل في كثير من الأعمال التي تقوم بها عن اختيار محسن .

وعاطفة الحب الإلهي إذا انقذت في فؤاد مؤمن فإن الله هو الذي أولى هذا
الشرف . وأفاء تلك النعمة ، وليس أحد يملك أن يفرض على الله صداقته .

حقاً إنه - تبارك اسمه - لا يضيع زلفي متعدد إليه ؛ ولكن يمنع وده من شاء
صدقة منه على من اصطفى من عباده .

وبديهي أن الله يعطي من تعرض لعطائه ؛ ويضع الخير في الأيدي الممدودة
إليه .

أما من أدب وتولى ؛ فلا شيء له إلا الطرد والهوان .

ومحبة الله تنغرس في قلوب العارفين به .

والمعرفة كما تكون عن جهد الإنسان في الفكر ، والذكر ، والتأمل ، والتنزية
تكون فيما يكشفه الحق عن عظمة الذات وجمالها لبعض المتعلقين به وعلى قدر
هذا الانكشاف يكون الإعظام والحب والتفانى .

وجمهور البشر لهم أشياء يحبونها ويتعلقون بها ، وتوضع على سيرتهم طابعها
وتكون وراء كثير من أقوالهم وأفعالهم .

وانعطاًف الإنسان نحو شيء معين بداع الغريزة أو العادة لا شيء فيه ما دام في
إطار الحدود المشروعة .

ولكن لا يجوز أن يتلك هذا الميل زمام الإنسان ، ويتولى تصريفه ، وينحي غيره
من البواعث الأخرى .

أو بعبير أوضح ، من أحب الله لم يؤثر عليه شيئاً .

وعندما تتنافس المشاعر المختلفة في الاستيلاء على زمام المرء ، وتحديد وجهته ،
فيجب أن تنهزم كل عاطفة أخرى ، وأن يرجع جانب الله رجحانه حاسماً .

ونحن في الحياة العادية نشهد ناساً كثيرين يتعلقون بمبادئ ، وأشخاص وأشياء

مختلفة ، و يؤثر هذا التعلق في طريقة إنفاقهم لأوقاتهم ، و بنائهم لحياتهم ،
و إصدارهم للأحكام الخاصة والعامة .

وعاطفة المرء نحو ربه تتحدد قيمتها في هذا المترنح النفسي البعيد المدى .

والمفروض أن حب المسلم لربه أربى من أي عاطفة أخرى عند أي إنسان آخر
﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ (البقرة : ١٦٥) .

ويظهر ذلك جلياً عندما يصطدم في نفس المرء شعوران متناقضان ، فقد تجيش في قلبه رغبة القعود في بيته مع ولده وأهله ، وقد يهتف به نداء الواجب أن يدع ذلك كلـه ، وينطلق إلى ميدان الجهاد مضحياً بنفسه ورغباته .

ومصير الإيمان مرتبط بنتيجة هذا الصراع العاطفي ، فإن غلت محبة الله ، ورجحت كفة أمره فيها ونعمت ، ولا فالهزيمة فسوق عن أمر الله ﴿ قُلْ إِنَّ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالَ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةً تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنَ تَرَضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (التوبه : ٢٤) .

والواقع أن محبة الإنسان للكثير من الأشياء هي التي تصده عن الكثير من الواجبات خصوصاً إذا غلت الرغبة على فكره وغطت على بصيرته ، فإنه يفقد اتزانه فيما يصدر من أحكام ، وفيما يصدر عنه من أعمال ، بل إنه قد يهبط إلى مراتب الطفولة - وهو المسن - لأن الطفل لا تسيطر على تصرفاته إلا شهواته ...

وقد يقال : حبك الشيء يعمى ويصم .

وكم من رجل أرداه حبه للمال ، أو للثناء ، أو للراحة بين أهله وعشائرته إذ يقصر هذا الحب خطوه إلى معالى الأمور ، ويفريه بالقعود عن نصرة الحق بالنفس والمال .
ولذلك كانت نفس الإنسان - إذا آثر الحياة لها - عدوه المخوف . وكان ولده وزوجه أعداء له كذلك ، يوم يؤثر الحياة إلى جوارهم عن تلبية النداء وإجابة داعي الله ، وهذا يعني قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ... ﴾ (التغابن : ١٤) ، الواجب أن يتلطف الإنسان مع أهله وعشائرته

حين يتعلقون به ، ويبيغون بقاءه معهم ، تلطف من يرق لضعفهم ، ولكن لا يمنعه إعذاره لهم من توديعهم إلى حيث ينبغي أن ينطلق ، ومن هنا ختمت الآية بقوله تعالى : ﴿... وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفُحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (التغابن : ١٤) .

ثم قال محدثا من الركون إلى القعود : ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عَنْهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (التغابن : ١٥) .

ومقتضى حب الله عز وجل ؛ أن يطيع الإنسان أمره ؛ ويدع نهيه ، ويحرص على رضاه .

وكلما ربت هذه العاطفة فعل الإنسان الكثير لله دون أن يحس تعبا ، لأن ما غمر فؤاده من شعور يهون عليه المشاق .

ودعوى الحب مع التفريط في الحقوق ، ومع الاستهانة باتباع الرسول دعوى منكرة ، فإن من أحب الله تأسى برسوله ، واستظل بلوائه ، واقتفي في الدقيق والخليل أثره ، قال تعالى : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبِّكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ (آل عمران : ٣١) .

ولذلك قال الشاعر - في لوازم الحبة :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه !! هذا العمري في الفعال بديع !
لو كان حبك صادقاً أطعته ! إن المحب لمن يحب مطيع

وهذا صحيح ، فإن المحب ينفذ ما يطلبه منه حبيب ، بل هو يتشهى أمرا منه ليسارع إلى تأديته بشوق ورغبة ..

إلا أن المرء قد تعرض له حالات مرضية يختل معها سلوكه ، ولا تبلغ به هذه العاطفة مداها ، كما تقطع الدائرة الكهربائية في أحد الموضع ، فلا يضاء المصباح لاحتباس التيار .

المعروف أن المرء يحب نفسه ويحرص على مصلحتها ، ومع ذلك فقد يصاب بمرض يهدد حياته ، ويأمره الطبيب بترك عادة له ، حتى يستشفى مما ألم به فيعجز عن إجابة أمر الطبيب ، ويقع فيما حظر عليه !!

إنه لا يكره نفسه ، ولكن شلل الإرادة تحت تأثير العادة أزله بعيدا عما يجب .

وبعض العصاة من المؤمنين لا يكرهون ربهم ولا أنفسهم ، وإنما يقعون في
المخالفات تحت تأثير هذه الأحوال المعتلة .

ولا ريب أنهم - عند ارتكاب هذه المخالفات - لا يكونون في صحو فكري كامل ،
إنهم أشبه بالمسهد الذي جن عليه الليل ، وتصارع عليه الكلال والأرق ، فتفكيرهم
أدنى إلى الأحلام الطائشة منه إلى المنطق المستحكم الحصيف !!

ولندع الآن الخوض في نتائج المحبة ، ولنتحدث أولاً في أسبابها .
لماذا نحب الله؟ أو لماذا ينبغي أن نحبه؟

ونحن واجدون - بعد التأمل الذي يجلب الضباب ويريح الغفلة - أن الله
أهل لكل حب ، وأنه أولى بتعلق القلب من حب المرء لوالده وولده ونفسه
التي بين جنبيه !

ونبدأ بأسرع دواعي المحبة ورودا على الذهن ، وأعني به الإحساس الذي يستعبد
الإنسان ويقيده بأواصر نفسية متينة نحو المحسن ، ولا شك أن الله تبارك اسمه ولـى
نعم التي يخوض الناس فيها خوضا ، ويرحون في بحبوحتها طولاً وعرضـا ﴿ وَمَا
بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَارُونَ ﴾ (النحل : ٥٣) .

والنعم الإلهية تكتنف الوجود الإنساني من كل ناحية ، إلا أن البشر يعاملون
ربهم معاملة الولد المدلل العاق لأبيه ، يضيق إذا حرم بعض رغائبـه ، ويتمادي به
الضيق حتى ينسى المـنـ الجـسـامـ التـىـ تـطـوـقـ عـنـقـهـ وـتـسـتـبـقـ كـيـانـهـ .
ولو أن الله يسارع إلى الإنسان بكل ما يهوى لهـلـكـ الإـنـسـانـ .

إنـىـ أـشـهـدـ - عـلـىـ ضـوـءـ تـجـارـبـيـ التـىـ حـفـرـتـهـ الـأـيـامـ مـنـ حـيـاتـىـ - أـنـ أـنـفـسـ مـاـ
يـعـلـىـ شـائـقـاـ أـنـىـ وـلـيدـ أـمـورـ كـنـتـ بـهـ ضـائـقـاـ ، أـوـ أـتـ بـعـيـداـ عـنـ تـفـكـيرـىـ ، وـتـقـدـيرـىـ .
وـلـوـ سـارـتـ أـحـوـالـىـ وـفـقـ مـاـ أـهـوىـ مـاـ كـنـتـ إـلـاـ أـحـدـ الـهـمـلـ ، وـلـوـ وـكـلـتـ إـلـىـ
نـفـسـىـ ، وـرـغـبـاتـهـ الـجـابـةـ لـهـلـكـتـ .

وـمـاـ أـصـدـقـ قـوـلـ اللهـ فـىـ كـتـابـهـ : ﴿ وـعـسـىـ أـنـ تـكـرـهـوـاـ شـيـئـاـ وـهـوـ خـيـرـ لـكـمـ وـعـسـىـ
أـنـ تـُـحـبـوـ شـيـئـاـ وـهـوـ شـرـ لـكـمـ وـالـلـهـ يـعـلـمـ وـأـنـتـمـ لـاـ تـعـلـمـوـنـ ﴾ (البـقـرةـ : ٢١٦)

ولو عقل الإنسان لكان حبه لله سواء في المحن والمنع لأن تقدير الله للإنسان
أجدى عليه من تقديره لنفسه .

وتبقى بعد ذلك كله أصول النعم التي يحيا بها الإنسان ويقتعد بها مكانه في
الوجود الكبير ، وهو مكان جد خطير ، قال تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الشَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ
لِتَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٢٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ
وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ (٢٣) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا
تُحْصُوْهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (ابراهيم : ٣٢ - ٣٤)

واسداء الجميل يورث الشكر ، وهو شعور قد يطول وقد يقصر ، ولكن تكرار
الجميل على تراخي الأيام وتفاوت الأحوال يورث الحب ، والحب عاطفة تتتصق
بالشغاف ، وتتشعب في نواحي السلوك كلها .

وتكرار الجميل لمن يعترف به ظاهر ، بيد أن الإنسان كثيراً ما يستقبل النعم
الجزيلة بإحساس يبدأ برأقا . ثم سرعان ما يبهرت .

ومع ذلك فإن رب العالمين لا يحبس فضله عندما يطلب سائل الأمس الذي
أخذ ونسى !!

وقد حفل القرآن بصور شتى لطبيعة الإنسان في هذه المواقف ، ويز في هذه
الصور كيف أن الله أهل للحب كله ، وأن الإنسان أهل لللوم كله .

وتأمل هذه الصور لذهول البشر مع ترافق العطاء ، واستحقاق الشكر والثناء ،
والحب والولاء ، قال تعالى :

﴿وَإِذَا مَسَكْمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَاهُ فَلَمَّا نَجَّا كُمْ إِلَى الْبَرِّ
أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ (الإسراء : ٦٧) .

والإنسان يجأر طالباً من مولاه النجدة عندما تحصره الأزمات ، وتأخذ بخناقه ،
ويشعر بأنه سيهلك في حومتها لا محالة .

فإذا أنته النجدة التي طلب ، واسترد أنفاسه ، عاد سيرته الأولى ، ونأى عنمن
قربته منه الأزمات ، واستأنف حياة الغفلة التي أراد الله إخراجه منها ، بهذه
المتابع العارضة .

أجل ، فالآلام - في الأغلب - ترد على المرء دواء لعل كامنة فيه ، ومعاناة مراتتها سبيل الشفاء لمن يحسن الاستفادة والتذكرة .

ولئن كانت السراء غذاء للكيان الإنساني إن الضراء دواء لا بد من تناوله .

وفي حياتنا العادلة نحتاج إلى أنواع الأدوية كما نحتاج إلى أنواع الأغذية .

لهذه وظيفتها وموضعها ، ولتلك وظيفتها وموضعها ، وربما كانت الآفات التي تعرّض القلب الإنساني وتعكر صلته بالله أكثر وأحوج إلى المعالجة من العلل التي تنتاب البدن وتعكر صفوه .

إلا أن موقف الإنسان من ربه عندما يدخله في تجارب الألم غريب ، إنه يثوب إلى الحق بسرعة ، ويصرخ سائلاً العفو والرحمة ، من يملك هذا وضده .

فإذا نفس عنه كربته خفت الصوت العالى ثم احتبس ، ثم ذهل ، ثم انقلب صوت كنود وكبر !!

لماذا؟ هل أخذت أيها الإنسان ضماناً بانتهاء المتابع إلى الأبد؟ هل اطمأنت إلى أنك لن تقع في الفخ مرة أخرى؟

﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا الْكُمْ وَكِيلًا ﴾ (٦٨) أَمْ أَمِنْتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغَرِّقُكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا الْكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ (الإسراء: ٦٩، ٦٨)

وقر بالبشر مازق شتى ، إذا استحكمت عليهم حلقاتها ناشدوا الله العفو والرحمة ، وإذا احتوتهم سعة الحرية نسوا وجحدوا ﴿قُلْ مَن يُنْجِيْكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضْرِعًا وَخْفِيَّةً لَّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنْكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنْجِيْكُمْ مِّنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ (الأنعام: ٦٤، ٦٣) .

والواقع أن الناس أمام هذا الإفضال المتكرر صنفان :

صنف غافل القلب غليظ الرين ، تغرّ به الأفراح والأتراح دونوعي ، وكأنه لم يدع الله إلى ضرمسه ، بل يظن أن ما يمر به من بؤس ونعمى طبيعة الحياة ويقول :

﴿قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَاءُ وَالسَّرَّاءُ ﴾ (الأعراف: ٩٥) .

أى تلك عادة الدنيا ، وحالة الزمان!! .

وهذا صنف كفور لا خير فيه ولا دين له . . .

وصنف آخر يتأمل فى غزارة النعم التى تنهمر من المكث الوهاب .

ويعرف حق صاحبها فى أن تحفظ وترعى ، فيبطوى فؤاده على تقديرها وإعزاز مرسليها ، ولا يزال هذا الشعور يشرح صدره كلما جدت منه - ومن الله تتجدد ولا تفنى - فيكسبه هذا الشعور الموصول حب الله ، والرضا عنه والتعلق به .

وللحب داع آخر . إن النفس الإنسانية تبهرها العظمة ويعجبها العظاماء ، ويسرها الإقبال عليهم ، والتودد إليهم والتنويه بأثارهم .

وكم من عبقرى لم نر شخصه طوينا القلوب على محبته ، والحماس له لأن أبصارنا تعلقت بمواهبه الجليلة ، وامتيازه ال رائع ، ففعلت صورته الباطنة بنا ، ما تفعله صور الجمال الحسى بألباب العشاق .

ولو أن الناس لفتقهم هذه الحقائق ، وسيرهم منطقها باطراد لكان لهم مع الله شأن آخر . . .

أطلعني أحد الناس على صورة رائقة للشمس ، وهى تغرب ، وأخذ يطرب الرسام العبرى الذى خلقها بريشه .

وكانت الصورة رائعة حقا! بدت فيها الشمس وهى تلم أشعتها من فوق السطوح والقمم ، وتأهباً لوداع الأحياء إلى ملتقى آخر!! ومن ورائها آفاق معصفرة احمررت فيها حواشى السحب ، واستقرت فيها - إلى حين - فترة الانتقال بين إقبال الليل وإدبار النهار . !!

قلت : هذه صورة جميلة ، خطتها يد ماهرة ، تستحق الثناء .

لكن لماذا يعجب الناس براسم الصورة على الورق؟ ولا يتوجهون بأبصارهم وبصائرهم إلى صانع الأصل الذى احتواه الفضاء الرحيب ، ودارت فيه أجرام ضخمة ، وتأنقت فيه الطبيعة الحية ، وتحركت فيه الأرض كثيراً حول نفسها وقليلاً حول الشمس ، وجرت فيه الشمس مدى لا ندرى كنهه ولا نسبر غوره!! .

إن الأصل نفسه فى الشروق الزاهى ، أو فى الغروب الدامى ، على اختلاف

الليل والنهار يستحق التأمل الذكي ، ويستحق بعد ذلك وقبله أن تتجه الأفئدة إلى بارئ السموات والأرض تسجد لجلاله وتسبح بحمده .

وإلى الأصل المنقوش في صفحات الكون لا إلى الرسم المصغر على وجوه الأوراق . نظر «محمد» عليه الصلاة والسلام إلى بدايات الليل ، ونهايات النهار ثم رد الأشياء إلى مالكها الحق ، ونسبها إلى صاحبها الأصيل قائلاً : «اللهم هذا إقبال ليك وإدبار نهارك وأصوات دعاتك فاغفر لى» .

والعجب للناس : ينظر أحدهم إلى تمثال من حجر أتقن ناحتة إضفاء بعض الملامح البشرية عليه ، ثم يرثون وأستنتهم تلهج بمدحه .
أما مبدع هذا الجسم الحي فقلما يكترون له ، بل فيهم من يجدد وجوده ، وينتهك حرماته .

وما أبعد البون بين صخرة هدب ظاهرها على نحو معين ، وعضلات من لحم ودم وعزم وعصب ، تدور خلاياها بالحياة أخذأً ورداً ، فلو وضعتم إصبعكم على جزء ما من هذا الجسم ثم تأملت ما تحتها لعلمت أن ألف الشعيرات تسرى فيها بالدماء ويتفاعل فيها الزفير والشهيق ، وتتولد الطاقة من احتراق الأغذية وطرد نوع من الهواء - الكربون - واستقبال نوع آخر - الأكسجين .

وشيء آخر ، أطراف هذا الجهاز الحسي وذيله التي لا آخر لها ، والتي تجعل الجسم كله يهتز لوخزة شوكة تصيب أي ناحية فيه .

إن التأمل في النفس الإنسانية يجعل المرء يد بصره إلى أعلى قائلًا مع الملائكة : نسبح بحمدك ونقدس لك ، ومع هذا فإن صانع ذلكم الإعجاز يلقى من بعض عباده بل من أكثرهم الغمط والكنود .

وأما الذين استنارت سرائرهم بصدق المعرفة فهم يتلمحون ما في الصفات العليا من عظمة وشمول ، وما يصدر عنها من عجائب في الأرض والسماء ، فينعطفون نحو ربهم ، وملء نفوسهم الإعجاب والإعزاز والود .

ونحن ندرى أنه ليس لبشر مافعل حقيقي ، يصح وصفه بأنه خالق لتمثال ، أو مبدع لآلية ، فإن يده لم تصنع أكثر من أنها تصرفت في مادة موجودة أو ألفت بين أشياء كائنة ، وأن الإلهام الأعلى هو الذي هدى أصحاب الموهاب إلى إبراز ما يحبدون عليه ويعظمون به ، إلا أننا نجد في هذا الإيجاد المجازى فرصة للمقارنة ، وثرة لتعريف الناس بربهم ، وإزاحة الغطاء عن قلوبهم حتى يحسنوا فهمه ومودته .

وفي الأيام الأخيرة وفق أحد المخترعين إلى صنع آلة تحول الماء المالح إلى ماء عذب ، وهذا ابتكار حسن ودلت لو تابع العلماء تحسينه حتى يمكن الإفادة منه في أرحب دائرة ، إن استخدامه الآن ينفع بعض السفن التي تستغرق في رحلاتها أماداً طويلة ، أو بعض المخصوصين الذين لا تتيسر لهم موارد الماء الضروري لبعدهم عن منابعه . لكن ما هي الآلات التي تروي الألوف من الخلاائق ، وما يتبعهم من حيوان وطير؟

ما هي الآلات التي تسوق نطاف الماء الصافي إلى مساحات هائلة من الأرض
فتغسل جدبها خصباً ومواتها حياة؟

كيف يتلطف بداعي السموم والأرض فييسقى أولئك الأحياء من عباده وهذه الحقول المنداحة في بلاده دون أن يشعر بمنصب أو يتكلف إدارة أجهزة وطنين آلات؟ .

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُشَيرُ سَحَابًا فِي سَمَاءٍ كَفَيْ شَاءَ وَيَجْعَلُهُ كَسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لِمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لِمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ . (الروم : ٤٨ - ٥٠)

والحق أن إمداد البشر بالماء الخلو على هذا النطاق الواسع بوساطة جهاز منسوج من الهواء ، مبسوط الأذرعة بين الأرض والسماء ، يستنقذ الماء بخاراً من البحر الملح ثم يكشفه سحاباً يختلط كيانها بما يجعل ماءها عذباً ، ثم تنطلق في شتى الأشكال مخترقة الآفاق إلى حيث تهمى بالخير والبركة . . . !! إن هذا لما يجلأ الفؤاد روعة ، ويزيده إكراماً وإعلاء ل شأن الخالق المدبر تقدست أسماؤه ، وتباركت آلاوه ، ولا إله غيره .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرُجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانَهُ ثُمَّ يَهْيِجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولَئِكَ الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر : ٢١) .

فليستعرض الإنسان ما يعرف من موهب وخلال ، ولن يستعرض في ذهنه ما يبهره ، من عباقرة وأبطال ، ثم ليقارن بين تلك القوى الكليلة والقوى المطلقة ، وبين هذه العظمات الباهتة العاجزة والعظمة الساطعة الحالدة!!

إنه سوف يرى رب العالمين أولى بالتمجيد والإعجاب ؛ وأحق بالمحبة والاقتراب . . .

والبشر - من الناحية العقلية - لا يرون في هذه الحقيقة ، غير أنها لا تنتقل من أبابهم إلى قلوبهم فتتحول من فكرة إلى شعور ، ومن شعور إلى سلوك .

إن هذه الحقيقة تدخل نفوسهم كما يدخل الطعام في بطن المعمود ، لا تستقبلها أجهزة سليمة تحول إلى قوة وغاء وحرارة بل ربما كان فيه الحرف .

كذلك البشر يعلمون عن الله ما ينبغي أن يؤسس في نفوسهم الحب المكين له ، ومع ذلك قد يحبون غيره مثله أو أكثر : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّهُمْ كَحْبَ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُ حُبًا لِّلَّهِ . . .﴾ (البقرة: ١٦٥) .

وندع للإمام الغزالى أن يقارن بين ما يستثير الإعجاب والحب فى شمائل الناس ؛ وبين صفات الفرد الصمد جل جلاله ؛ قال :

وأما العلم : فأين علم الأولين والآخرين من علم الله تعالى الذى يحيط بالكل إحاطة خارجة عن النهاية حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض؟ وقد خاطب الخلق كلهم فقال عز وجل :

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٨٥)

بل لو اجتمع أهل الأرض والسماء على أن يحيطوا بعلمه وحكمته في تفصيل خلق نملة أو بعوضة لم يطلعوا على عشر عشير ذلك :

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ (البقرة: ٢٥٥) .

والقدر اليسير الذى علمه الخلائق كلهم فبتعليمه علموه كما قال تعالى :

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٢) عَلَمَهُ الْبَيْانَ﴾ (الرحمن: ٤، ٣) .

فإن كان جمال العلم وشرفه أمراً محبوباً ، وكان هو في نفسه زينة وكمالاً للموصوف به فلا ينبغي أن يحب بهذا السبب إلا الله تعالى ، فعلوم العلماء جهل

بالإضافة إلى علمه ، بل من عرف أعلم أهل زمانه وأجهل أهل زمانه استحال أن يحب بسبب العلم الأجهل ويترك الأعلم ، وإن كان الأجهل لا يخلوا عن علم ما تتقاضاه معيشته .

والتفاوت بين علم الله وبين علم الخلائق أكثر من التفاوت بين علم أعلم الخلائق وأجهلهم ، لأن الأعلم ما يفضل الأجهل إلا بعلوم معدودة متناهية يتصور في الإمكان أن ينالها الأجهل بالكسب والاجتهاد ، وفضل علم الله تعالى على علوم الخلائق كلهم خارج عن النهاية إذ معلوماته لا نهاية لها ومعلومات الخلق متناهية .

وأما صفة القدرة : فهي أيضاً كمال والعجز نقص ، فكل كمال وبهاء وعظمة ومجده واستيلاء فإنه محبوب وإدراكه لذيد ، حتى إن الإنسان ليس معنى في الحكاية شجاعة على خالد رضى الله عنهما وغيرهما من الشجعان ، وقدرتهما واستيلاءهما على الأقران فيصادف في قلبه اهتزازاً وفرحاً وارتياحاً ضرورياً بمجرد لذة السمع فضلاً عن المشاهدة ، ويورث ذلك حباً في القلب ضرورياً للمتصرف به فإنه نوع كمال ، فأنسب الآن قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله تعالى .

فأعظم الأشخاص قوة ، أوسعهم ملكاً ، وأقواهم بطشاً ، وأقمعهم خباث النفس ، وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره - ما منتهى قدرته؟ .

إنما غايته أن يقدر على بعض صفات نفسه وعلى بعض أشخاص الإنس في بعض الأمور ، وهو مع ذلك لا يملك لنفسه موتاً ولا حياة ولا نشوراً ولا ضراً ولا نفعاً . بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى ، ولسانه من الخرس ، وأذنه من الصمم ، وبدنه من المرض ، ولا يحتاج إلى عدماً يعجز عنه في نفسه وغيره مما هو على الجملة متعلق قدرته . فضلاً عما لا تتعلق به قدرته من ملكوت السموات وأفلاكها وكواكبها ، والأرض وجبارها وبحارها ورياحها وصواعقها ومعادنها ونباتها وحيواناتها وجميع أجزائها ، فلا قدرة له على ذرة منها ، وما هو قادر عليه من نفسه وغيره فليست قدرته من نفسه وبنفسه ، بل الله خالقه ، خالق قدرته ، وخالق أسبابه ، والممكن له من ذلك .

ولو سلط بعوضة على أعظم ملك وأقوى شخص من الحيوانات لأهلكه ، فليس للعبد قدرة إلا بتمكين مولاه كما قال في أعظم ملوك الأرض ذي القرنين إذ قال :

»إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ^{﴿الكاف﴾} (الكاف : ٨٤) ، فلم يكن جميع ملوكه وسلطنته إلا
بتمكن الله تعالى إياه في جزء من الأرض .

والأرض كلها مدرة بالإضافة إلى أجسام العالم ، وجميع الولايات التي يحظى
بها الناس من الأرض غيرة من تلك المدرة .

ثم تلك الغيرة أيضاً من فضل الله تعالى وتمكنه .

فيستحيل أن يحب عبداً من عباد الله تعالى لقدرته وسياسته وتمكنه ،
واستيلائه وكمال قوته ، ولا يحب الله تعالى لذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله
العلى العظيم ، فهو الجبار القاهر والعليم القادر . السموات مطويات بيمنيه ،
والأرض وملكتها وما عليها في قبضته ، وناصية جميع الخلق في نطاق قدرته .

إن أهلتهم عن آخرهم لم ينقص من سلطانه وملكه ذرة .

وان خلق أمثالهم ألف مرة لم يعى بخلقهم ، ولا يسه لغوب ولا فتور في
اختراعهم ، فلا قدرة ولا قادر إلا وهو أثر من آثار قدرته ، فله الجمال والبهاء
والعظمة والكبرياء والقهر والاستيلاء ، فإن كان يتصور أن يحب الإنسان قادرًا
لكمال قدرته فلا يستحق الحب بكمال القدرة سواه أصلاً .

وأما صفة التنزيه عن العيوب والنقائص ، والتقدس عن الرذائل والخبائث فهو
أحد موجبات الحب ، ومقتضيات الحسن والجمال في الصور الباطنة ، والأنباء
والصديقون - وإن كانوا منزهين عن العيوب والخبائث - فلا يتصور كمال التقدس
والتنزيه إلا للواحد الحق الملك القدس ذي الجلال والإكرام .

وأما كل مخلوق فلا يخلو عن نقص أو عن نقائص ، بل كونه عاجزاً مخلوقاً
مسخراً مضطراً هو من العيب والنقص ، فالكمال لله وحده ، وليس لغيره كمال إلا
بقدر ما أعطاه الله ، وليس في المقدور أن ينعم بمنتهى الكمال على غيره ، فإن
منتهى الكمال أقل درجاته أن لا يكون عبداً مسخراً لغيره قائماً بغيره . وذلك
محال في حق غيره ، فهو المنفرد بالكمال ، المنزه عن النقص ، المقدس عن العيوب .
وشرح وجوه التقدس والتنزيه في حقه عن النقائص يطول وهو من أسرار علوم
المكاشفات فلا نطول بذكره .

فهذا الوصف أيضاً . إن كان كمالاً وجمالاً محبوباً فلا تتم حقيقته إلا له ،
وكمال غيره وتنزهه لا يكون مطلقاً ، بل بالإضافة إلى ما هو أشد منه نقصاناً ، كما

أن للفرس كمالاً بالإضافة إلى الحمار ، وللإنسان كمال بالإضافة إلى الفرس ، وأصل النقص شامل للكل ، وإنما يتفاوتون في درجات النقصان .

فإذا الجميل محظوظ ، والجميل المطلق هو الأحد الذي لا ند له ، والفرد الذي لا ضد له الصمد الذي لا منازع له ، الغنى الذي لا حاجة له ، القادر الذي يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد . لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه ، العالم الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات والأرض ، الظاهر الذي لا يخرج عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة ، ولا ينفلت من سطوطه وبطشه رقاب القياصرة ، الأزل الذي لا أول لوجوده الأبد الذي لا آخر لبقاءه الضروري للموجود الذي لا يحوم إمكان العدم حول حضرته ، القيوم الذي يقوم بنفسه ؛ ويقوم كل موجود به ، جبار السموات والأرض ، خالق الجماد والحيوان والنبات المنفرد بالعزوة والجلبروت ، المتوحد بالملك والملائكة ذو الفضل والجلال والبهاء والجمال! والقدرة والكمال ، الذي تتحير في معرفة جلاله العقول ، وتخسر عن وصفه الألسنة ، الذي كمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته ، ومنتهى نبوءة الأنبياء الإقرار بالقصور عن وصفه كما قال سيد الأنبياء صلوات الله عليه وعليهم أجمعين :

«لا أحصي ثناء عليك . أنت كما أثنيت على نفسك» .

وقال سيد الصديقين رضي الله تعالى عنه :

العجز عن درك الإدراك إدراك ، سبحانه من لم يجعل للخلق طريقة إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته .

فليت شعرى من ينكر إمكان حب الله تعالى تحقيقها ويجعله مجازاً؟ أينكر أن هذه الأوصاف من أوصاف الجمال والحمد ، ونعوت الكمال والمحاسن ، أو ينكر كون الله تعالى موصوفاً بها ، أو ينكر كون الكمال والجمال والبهاء والعظمة أمراً محبوباً بالطبع عند من أدركه؟ فسبحان من احتجب عن بصائر العميان غيره على جماله وجلاله أن يطلع عليه إلا من سبقت له منه الحسنى ، الذين هم عن نار الحجاب مبعدون ، وترك الخاسرين في ظلمات العمى يتبعون ، وفي مسارح المحسوسات وشهوات البهائم يتربدون ، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون .

خاتمة

أحمد الله على عونه الكريم في إتمام هذه الفصول ، مع كثرة الأعباء ، وثقل الواجبات التي ارتبطنا بها في ميدان الحياة العامة .

لقد كان حبيبا إلى نفسي أن أخلص للعلم ، وأن أعكف على الدراسة ، لكن دون هذه الرغبة عائق جمة ما يسهل التغلب عليها .

والرجل الذي يشغل وظيفة إدارية قد تكون مسلاطته فيها أن ييسر لأمهاته نفعا ، أو يدفع عنها ضررا ، فإنه ليحزنني أن يكون تقرير النفع للناس ، وإبعاد الفضول عنهم عملا يخرج فيه الفؤاد وترهق الأعصاب ، ويقاد يجر الملال بعد الكلال !! .

قد يقول القارئ لهذا البحث : ما لى ولهذه الشكاوة؟ إن مجال القول لا يزال ذا سعة ، وكان ينبغي أن يأخذ الكلام حقه في الاتصال والامتداد حتى نعرف : ما عرا هذا الجانب العاطفي المغبون من تحريف وعوج جعلاه كثير المزالق والخسائر؟ .

وهذا تساؤل كنت أعددت الجواب عليه عندما شرعت أملاً الصحائف الأولى من كتابي هذا ، ثم سرعان ما دخلت في تفاصيل لم يكن من الوفاء بها بد .

فلما انتهيت منها -وها هي ذي بين يدي القارئ العزيز - أحست أن نقد هذا الجانب العاطفي ، ومتابعة سيره في حياة المسلمين ، وتاريخهم يحتاج إلى جهد جديد ، ودراسة متوفرة ، وذاك ما لا أملك إليه سبيلا الآن . . .

بيد أنى مدرك ضرورة إكمال هذا البحث ، كى تتم الصورة العلمية للموضوع ، وكى يعرف المسلمون مسارب الخطأ في جزء كبير من ثقافتهم . . .

محتويات الكتاب

| الصفحة | الصفحة الموضوع | الموضوع |
|--------|----------------------------------|--|
| ١١٩ | اليأس من الناس | ٣ مقدمة الطبعة الأولى |
| ١٢١ | نقص القادرين على التمام | ٦ مقدمة |
| ١٢٢ | أحدرك نفسك | ١٥ الإسلام والإيمان والإحسان |
| ١٢٣ | الاستكانة لله | ١٧ حديث جامع |
| ١٢٦ | المحبوسون في سجن المادة | ٢٢ ما هو الإيمان؟ |
| ١٣١ | من؟ إلا الله . !!! | ٢٩ العقيدة الصحيحة بين الإسلام والنصرانية |
| ١٣٥ | من حقيقة العبودية | ٣٣ الإلحاد خرافة علمية |
| ١٣٨ | من أخطاء العابدين | ٤٤ ما الإسلام؟ |
| ١٤١ | المنة لله وحده | ٤٥ معنى الشهادتين |
| ١٤٢ | لا تخدع عن حقيقتك | ٤٨ الخطيئة في حياة البشر |
| ١٤٣ | اعرف حقوق سيدك | ٥٢ دائرة الخضوع لله |
| ١٤٦ | فضول العيش أشغال | ٥٨ ما الإحسان؟ |
| ١٤٩ | في محاسبة النفس | ٦١ الإحسان فريضة مكتوبة على كل شيء |
| ١٥٣ | شارات الطريق | ٦٤ قوانين الإحسان وأخطاره |
| ١٥٧ | التوبية | ٦٨ الإحسان بين التأمل الذاتي والصلاح الاجتماعي |
| ١٦١ | رغبة إلى الله | ٧٢ حقيقة الذكر المطلوب |
| ١٦٧ | م يتوب الناس؟ | ٧٧ الذكر عبادة اجتماعية |
| ١٧٠ | مدارج التوبية | ٧٩ أمتنا بين الإساءة والإحسان |
| ١٧٢ | توبية الصفوة ، واستغفار الرسول ﷺ | ٨٥ دعائم الكمال النفسي |
| ١٧٧ | الورع | ٨٧ نسبنا السماوي |
| ١٨١ | الغة والقناعة | ٨٩ المادية تشد الناس إلى أسفل |
| ١٩٧ | الصبر | ٩٤ الإلحاد خيانة عظمى |
| ٢٠٦ | الشكرا | ٩٩ مقلد و الحضارة المادية عندنا |
| ٢٢١ | الخوف | ١٠٣ جهاد النفس |
| ٢٢٧ | الرجاء | ١٠٩ إشباع الشهوات |
| ٢٣٩ | التوكل | ١١٢ من تجارب المريين |
| ٢٤٦ | الحب | ١١٣ التعب الضائع |
| ٢٦١ | خاتمة | ١١٤ استعجال الشهرة |
| | | ١١٥ تسليم لله |
| | | ١١٦ من خداع الشيطان |
| | | ١١٧ ثق في ربك |

مؤلفاته فضيلة الشيف

محمد الغزالى

- | | |
|--|---|
| ١ هـ داعية . ٢ جدد حياتك . ٣ مشكلات فى طريق الحياة الإسلامية . ٤ سرتاحر العرب وال المسلمين . ٥ دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين . ٦ مع الله .. دراسة فى الدعوة والدعاة . ٧ الإسلام والمناهج الاشتراكية . ٨ من هذه اتعلمت . ٩ الإسلام والأوضاع الاقتصادية . ١٠ نظارات في القرآن . ١١ الحق المركب .. «ستة أجزاء» من ١٦-١١ . ١٢ الإسلام المفترى عليه . ١٣ معركة المصحف في العالم الإسلامي . ١٤ حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام . ١٥ إعلان الأمم المتحدة . ١٦ الإسلام والاستبداد السياسي . ١٧ الاستعمار أحقد وأطماع . ١٨ في موكب الدعوة . ١٩ خلق المسلم . ٢٠ ظلام من الغرب . ٢١ التعصب والتسامح . | ٢٥ من معالم الحق . ٢٦ حقيقة القومية العربية . ٢٧ الإسلام والطاقات المعطلة . ٢٨ كيف نتعامل مع القرآن؟ ٢٩ كنز من السنة . ٣٠ الفساد السياسي في المجتمعات العربية والإسلامية . ٣١ كفاح دين . ٣٢ جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج . ٣٣ تأملات في الدين والحياة . ٣٤ الإسلام في وجه الزحف الأحمر . ٣٥ صيحة تحذير من دعوة التنصير . ٣٦ مقالات (أربعة أجزاء) من ٣٦-٣٩ . ٤١ حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام . ٤٢ الجانب العاطفى من الإسلام . ٤٣ عقيدة واحدة للمسلم . ٤٤ كيف نفهم الإسلام؟ ٤٥ مائة سؤال عن الإسلام . |
|--|---|

هادیة شرکة نهضة مصر لِلعالم الإسلامي

موسوعة فضيلة الشیخ

محمد الغزالی

على أسطوانات CD

تشتمل على:

- أكثر من (75) كتاباً هي مجلد ما كتب الشیخ.
- أكثر من (175) ساعة صوتية وثلاث ساعات فيديو نادرة.
- (بحث مميز - تصنیف موضوعی شامل).
- (آراء وأقوال العلماء والمشاهير عن فضیلته).
- كتاب خاص يروى دقائق حیاة الشیخ الخاصة لأول مرة بقلم أ / محمد عبد القدوس.
- كُتيب توضیحی خاص عن فضیلة الشیخ ، والموسوعة في علبة أنيقة.

تم إعداد موسوعة فضیلة الشیخ محمد الغزالی على عدد (4) أسطوانات

خصص لكل أسطوانة منها موضوع بعينه يشمل كامل تراث فضیلته



الأسطوانة الرابعة

آراء وموافق
وأحداث



الأسطوانة الثانية

المكتبة
المرئية



الأسطوانة الثالثة

المكتبة
الصوتية



الأسطوانة الأولى

المكتبة
المقروءة

تطلب من:

مركز التوزيع، 18 ش. كامل صدقى - الفجالة - القاهرة ت: 02-5908895 - 5909827

فرع الإسكندرية، 408 طريق الحرية (رشدى)

فرع المتصرفة، 47 ش عبد السلام عارف

فرع الإسكندرية، 408 طريق الحرية (رشدى)

فرع المتصرفة، 47 ش عبد السلام عارف

